ريتشارد هولواي

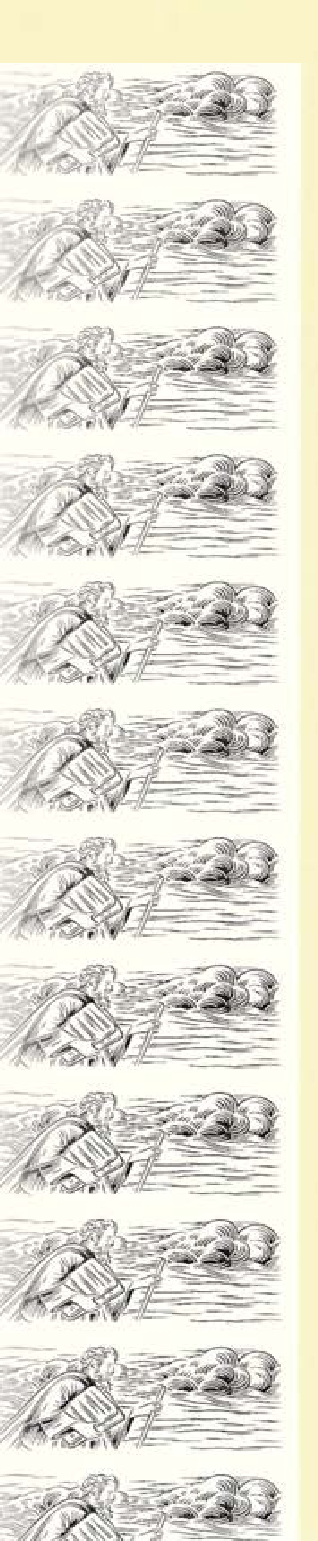
مختصر تاريخ الأديان



ترجمة: د. محاسن عبد القادر







ريتشارد هولواي

مختصر تاريخ الأديان

لا يسعنا نحن البشر إلَا أن نتساءل عن وجودنا وعن المكان الذي جئنا منه. من خلق الكون؟ وعندما نموت، هل يوجد عالم آخر؟ وكيف سيكون؟ شغلت أسئلة مثل هذه تفكير الإنسان عبر العصور وعبر أرجاء العالم كله، وقد توصلنا في بحثنا عن الإجابات إلى تفسيرات مختلفة.

أعاد ريتشارد هولواي وباحترام عميق والتزام شديد الدقة، سرد قصص الأديان الكبرى منذ فجر الإيمان حتى القرن الحادي والعشرين، لفترة تمتد إلى أبعد من زمن الديانة الجاينية، والإسلام، والمسيحية، والبوذية، والهندوسية، وقد كتب هولواي للمؤمنين، وغير المؤمنين، ولمن لم يحسموا أمرهم بعد.

ريتشارد هولواي، أسقف أدنبرة السابق، هو دليل حاسم ونافذ البصيرة لقوة الإيمان ولأهميته المستمرة من العصور القديمة حتى عصرنا الحالي.

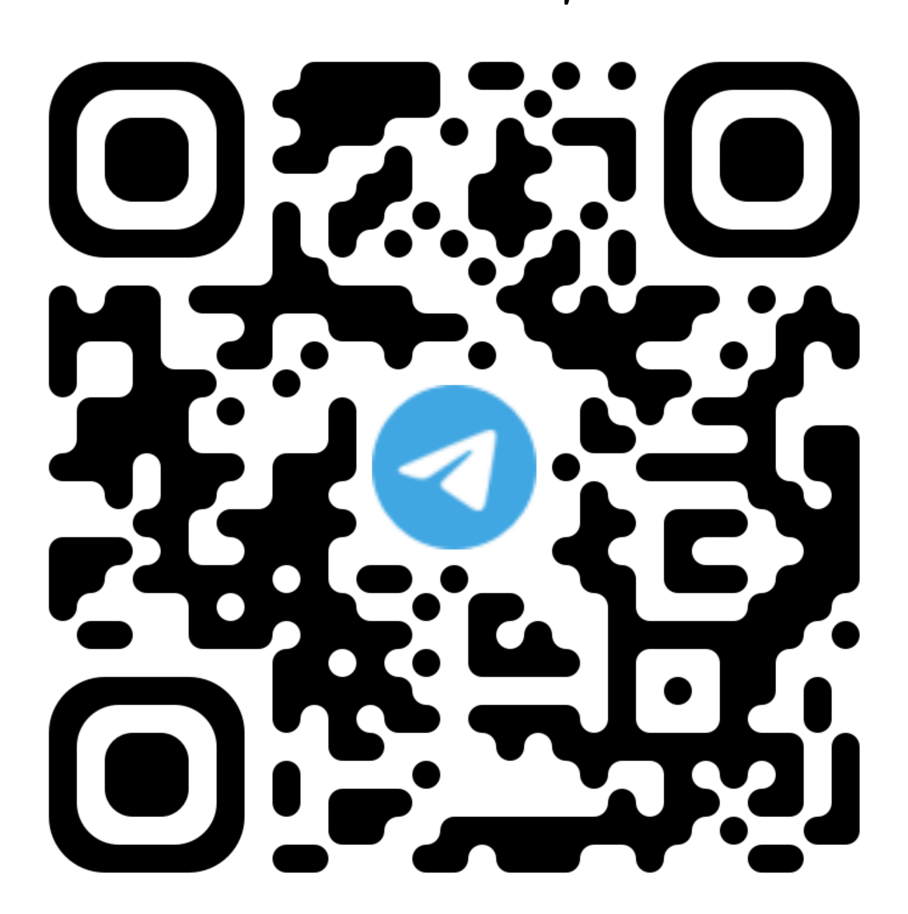


للمزيد من الكتب المعدلة
أو لطلب كتابك ليتم تعديله:

(قناة: كتب معدلة للكيندل)

https://t.me/amrkindle

أو قم بعمل Scan:




مختصر تاريخ الأديان

إلى نِك وَألِس
مع الحب

ريتشارد هولواي

مختصر تاريخ الأديان

ترجمة
د. محاسن عبد القادر





المحتويات

الفصل الاول



هل من أحد هناك؟

ما هو الدين؟ ومن أين نشأ؟ نشأ الدين من عقل الحيوان البشري، لذا فهو ينبع منا. لا تبدو الحيوانات الأُخَر فوق الأرض بحاجة إلى الدين، وبقدر ما يمكننا معرفته، لم تُنشِئ ديناً في يوم ما، لأنها أكثر انسجاماً مع حيواتها مما نحن عليه، فهي تتصرّف غريزيّاً، مستسلمة لتيار الوجود من دون التفكير فيه طوال الوقت. أما الحيوان البشري فلم يعد يمتلك القدرة على فعل

ذلك؛ فعقولنا تطورت بطريقة تجعلنا مدركين لذواتنا، مهتمين بأنفسنا، لا نستطيع منع أنفسنا من تأمل الأشياء، ومن (التفكير).

إن أكثر ما يشغل تفكيرَنا هو الكونُ نفسُه، ومن أين نشأ. أيوجد من خلقه؟ الكلمة المختصرة التي نستخدمها للشخص المحتمل، أو الشيء المحتمل الذي خلقه، هى، إلهٌ، (ثيوس)

في اللغة اليونانية. فمَنْ يؤمنْ بوجودِ إلهٍ يُدْعَ (موحّدًا)، ومَنْ لا يؤمنْ بوجوده، ويعتقد أننا وحدنا في الكون يُدْعَ (ملحدًا). والعلمُ الذي يهتمّ بدراسة ما يتعلق بالله، وما يريده منا، هو (علم اللاهوت). السؤال المهم الآخر الذي لا يسعنا إلّا أن نسأل أنفسنا عنه، هو ما الذي سيحدث لنا بعد الموت؟ وعندما نموت هل سينتهي كل شيء، أم أنّ هناك أمرًا آخرَ سيحدث؟ ولو عرفنا هذا الأمر، ما الذي سيبدو عليه الوضع؟

كان أولُ صدْع في إجابة هذه الأسئلة، هو ما نسمّيه الدين. فالإجابة عن السؤاًل الأول كانت سهلة؛ خلقت الكونَ قوةٌ تتجاوز نفسها، يدعوها بعضنا الله، تواصل اهتمامها، وعنايتها بما خلقته. فكل دين يقدم نسخته عن هذه القوة المدعوّة الله، وعما تريده منا، لكن الأديان كلها تؤمن بوجود الله بشكل، أو آخر.

يُقال لنا إننا لسنا وحيدين في هذا الكون، فثمة عوالمُ عديدة أبعدُ منا، وأبعادٌ أُخَر نطلق عليها (الظواهر الماورائية)، لأنها فوق العالم الطبيعي، الذي يكون في متناول حواسنا. مباشرةً.

إن كانت أهمُّ عقيدة للدين قائمةً على أساس وجود حقيقة خارج هذا العالم ندعوها الله، فما الذي يعزز هذه العقيدة، ومتى بدأت؟ لقد بدأت منذ عصور بعيدة. في الواقع لا يبدو أن وقتًا مرَّ لم يكن يؤمن فيه الإنسان بوجود عالم ما ورائي خلف الذي نعيش فيه. ربما كان التساؤل بشأن ما الذي سيحدث للناس بعد وفاتهم هو السبب الذي بدأ منه الأمر كله. فكل الحيوانات تموت، وبخلاف غيرهم، لا يترك البشرُ جثثَ موتاهم تتحلل

حيثما ألقيت. وبقدر ما يمكننا تتبع آثارهم في الزمن السحيق، يبدو أنهم أقاموا جنازات لموتاهم، والطريقة التي نظموها فيها تخبرنا شيئًا عن معتقداتهم الأولية.

مؤكّدًا لا يعني هذا أن الحيوانات الأخَر لا تأسى لفقدان رفاقها الموتى. ثمة الكثير من الدلائل تُرسّخ القناعةَ بأنّها تأسى. ففي مدينة أدنبرة تمثالٌ شهير لكلب صغير يدعى جريفريير بوبي يشهد على الحزن الذي تشعر به الحيوانات عند فقدانها قريبًا ارتبطت به. توفي بوبي عام 1872 بعد أن أمضى الأربعة عشر عامًا الأخيرة من حياته ماكثًا عند قبر سيده الميت، جون جري. ومن دون شك كان بوبي يفتقد صديقه، ولكن عائلة جون جري البشرية هي من أقامت جنازة لائقة، ودفنته ليرقد في مقبرة جريفرايرز كيركيارد، وبدفنه، هذا، أنجزتْ أحد أهم

الأفعال الإنسانية المميزة. لذا ما الدافع الذي حثَّ الإنسان على دفن موتاه؟

من أكثر الأشياء وضوحًا التي لفتت انتباهنا بشأن الموتى، هو أن فعلاً ما كان يحدث في حياتهم، قد توقف عن الحدوث. فهم لم يعودوا يتنفسون. إنها خطوة صغيرة لربط فعل التنفس بشيء كان مستقرًا في الداخل، قد انفصل عن الجسم المادي الذي منحه الحياة. وهذا الفعل مشتق من الكلمة اليونانية النفس (psyche)، ومن اللاتينية الروح (spiritus)، وكلاهما اشتُقَّ من الأفعال التي تعني يتنفس، أو ينفخ. فالنفس، أو الروح هي ما يُبقي الجسد حيًا يتنفس. تسكن الروحُ الجسدَ فترةً من الزمن،

ثم تغادره ما أن يموت. ولكن إلى أين؟ تقول أحد التفسيرات إنها تعود إلى العالم الماورائي، عالم الروح، في الجانب الآخر من العالم الذي نسكنه على الأرض.

وما اكتشفناه من طقوس مبكرة لإقامة الجنازات يدعم وجهة النظر هذه، على الرغم من أن كل ما تركه لنا أسلافنا البعيدون لا يعدو آثارًا صامتة عندما كانوا يفكرون فيه. لم تكن الكتابة قد اخترعت، لذا لم يتمكنوا من تدوين أفكارهم، أو شرح معتقداتهم في مدونات نستطيع قراءتها اليوم. بيد أنهم تركوا لنا دلائل تثبت تفكيرهم، فلنبدأ في التمعن فيها. ولكي نعثر عليها لابدّ من أن نعود إلى آلاف السنين قبل ميلاد المسيح (BCE)، المصطلح الذي يتطلب تفسيرًا قبل أن نمضيَ قُدُمًا.

من المنطق أن نمتلك تقويمًا عالميًا، أو طريقة لتحديد تأريخ

الأحداث التي وقعت في الماضي. والتقويم الذي نمتلكه اليوم قد وضعتْه الديانة المسيحية في القرن السادس بعد الميلاد (CE)، ليكشف كم هو مؤثرٌ، الدينُ، في تأريخنا. فلآلاف السنين كانت الكنيسةُ الكاثوليكية واحدةً من أعظم القوى على الأرض، لدرجة أنها أصدرت تقويمًا ما يزالِ العالم كلُّه يستخدمه حتى الآن. أما الحدث المحوري فقد كان ولادة مؤسس المسيحية، يسوع المسيح. كانت ولادتُهُ في السنة الأولى، ودأبَتْ الكنيسة على أرخنة أيّ حدث وقعَ قبل ولادته في سنوات ما قبل الميلاد (BC)، أو ما قبل المسيح، وأرخنة ما يقع من أحداث بعدها في سنوات ما بعد الميلاد (AD)، بعد العام الذي ولد فيه السيد المسيح.

وفي وقتنا الحاضر استُبدِلَ المصطلحان قبل الميلاد (BC) وبعد الميلاد (AD) بالمصطلحين (BCE) و(CE) اللّذين يمكن أن يترجما بتحريف ديني، أو من دونه: فـ (BCE) تعني قبل الحقبة المسيحية، أو قبل الحقبة العامّة، وتعني (CE) الحقبة المسيحية، أو الحقبة العامّة. ويمكنك أن تختار على وفق الطريقة التي تفهم فيها المصطلحات. سأستخدم في هذا الكتاب مصطلح (BCE) لأؤرخ الأحداث التي جرت قبل ميلاد المسيح، أو قبل الحقبة العامة، ولكي أتجنب أي التباس في النص، سأكون مقتصدًا في استخدام المصطلح الآخر (CE) حيثما أجده ضروريّاً. فلو وجدتُ تأريخًا وحده أعرف أنه جرى ضمن الحقبة المسيحية، أو الحقبة العامة.

على أية حال، عثرنا على دليل يعود إلى 130000 قبل الميلاد وما بعد، يبين الطريقة التي دفن فيها أسلافنا أمواتهم. ففي

القبور التي جرى الكشف عنها عُثر على الطعام، والأدوات، والحلي، ما يوحي بإيمانهم أن الموتى يرحلون إلى نوع من الحياة بعد الموت، ويحتاجون إلى أن يتزودوا للرحلة. وترمز ممارسة الرسم على الأجساد بالمغرة الحمراء إلى فكرة الحياة المستمرة. اكتشفت هذه الممارسة في إحدى أقدم المقابر المعروفة، فوق جسد أم وابنها عثر عليهما في كهف قفزة في إسرائيل، وهي تعود للعام 100000 قبل الميلاد. ووُجِدت الممارسةُ ذاتُها على مبعدة نصف العالم، عند بحيرة مانجو في استراليا في عام 42000 قبل الميلاد، حيث عثر على أجساد مغطاة أيضًا بالمغرة الحمراء. وقد شكَّل الرسم على أجساد الموتى علامة على ظهور أبرع الأفكار

الإنسانية، التفكير الرمزي، الذي يتوفر عليه الدين بكثرة، لذا يستحق التوقف عنده، وفهم مضمونه.

وكما هو الحال مع العديد من الكلمات المفيدة، تُشتَق كلمة (رمز) من اليونانية، وتعني جمع الأشياء المبعثرة بالطريقة ذاتها التي تُلصَق بها قطعُ الصحن المكسور. ومن ثم تحول الرمز إلى موضوع يقابل شيئًا آخر أو يمثله. ما زلت متمسكًا بفكرة ضم الأشياء مع بعض، ولكنها أصبحت أكثر تعقيدًا من مجرد لصق أجزاء قطع الخزف. وخير مثال على الرمز هو العلم الوطني، والنجوم التي تزينه والأشرطة. فما أن نراها حتى نتذكّر الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يرمز العلم إليها ويمثلها.

أصبحت الرموز مخيفة للناس لأنها تمثل دلالات أعمق مما تستطيع الكلمات التعبير عنه. لذا كانوا يكرهون رؤية رموزهم

وهي تخترق، فلا ضير في حرق قطعة ملابس قديمة، ولكن إن حدث ورُسِم عليها رمز يمثل أمتك فقد يثير ذلك غضبك. وعندما تكون الرموز دينية، ومقدسة في مجتمعات معينة، تصبح أكثر توقيرًا، ويمكن لإهانتها أن تثير غضبًا عارمًا. تذكر فكرة الرمز لأنها ستظهر مجددًا في هذا الكتاب. ففكرة أن شيئًا، مثل المغرة الحمراء، يمثل شيئًا آخر، تقابل الاعتقاد أن الموتى يرحلون إلى حياة جديدة في مكان آخر.

مثال آخر على التفكير الرمزي يتجسّد في تحول طريقة تحديد المكان الذي سيرقد فيه الموتى إلى أمر ذي أهمية، خصوصًا إذا كان هذا المكان يعودُ إلى شخصيات متنفذة، مهمة. فأحيانًا

كانوا يدفنون تحت صخور عملاقة، وأحيانًا في حجرات من الحجر متقنة البناء تدعى (الأضرحة القديمة) (دولمين)، التي تتكون من حجرين عموديين يسندان غطاء كبيرًا. وأكثر أضرحة الموتى إثارة، في تأريخ البشرية، الأهرامات الموجودة في الجيزة في مصر. فبالإضافة إلى أنها قبور، يمكن التفكير فيها على أنها منصات انطلاق تنتقل منها أرواح الأجساد الملكية إلى الخلود.

ومع الزمن لم تتوقف شعائر الدفن عن إضافة التفاصيل حسب، وإنما أضحت في بعض الأماكن قاسية بصورة تثير الرعب أيضًا، إذ تتم التضحية بالزوجات، والخدم ودفنهم مع الراحل لتوفير أسباب الراحة له، وتهيئة مستقره في حياته في الجانب الآخر من الحياة. والجدير بالملاحظة أن ثمة جانبًا قاسيًا في الدين منذ البداية لا يقيم وزنًا لحياة الأفراد.

وبقراءة متمعنة لهذه الأدلة نجد أن أجدادنا عدّوا الموت مدخلاً لمرحلة وجود أخرى، تخيلوها نسخة عن حياتهم التي يعيشونها. ونجد أيضًا ملمحًا عن إيمانهم بوجود عالم يتجاوز هذا العالم، ويرتبط به في الوقت نفسه مع وجود الموت باباً بينهما.

لحدّ الآن تبدو المعتقدات الدينية كما لو أنها نتاج عملية حدس ملهم. فقد كان أجدادنا يتساءلون مع أنفسهم كيف ظهر العالم إلى الوجود، فخمنوا وجود قوة عليا خلقته، موجودة في مكان ما في الكون. تأملوا الموتى الذين توقفت أنفاسهم وقرروا أن أرواحهم لابد من أنها تغادر أجسادهم التي سكنتْها مرةً، وتذهب إلى مكان آخر.

ولكن ثمة جماعة مهمة في تأريخ الدين لم تعتمد على الحدس، و(تخمين) وجود عالم ما ورائي، أو وجهة للأرواح المغادرة. لقد أخبرونا أنهم قاموا بزيارة هذا العالم، أو هو الذي زارهم، واستمعوا إلى ما يطلبه منهم، وتلقوا الأوامر ليخبروا الآخرين بما رأوه وما استمعوا إليه. هكذا أعلنوا الرسالة التي تسلّموها، وجذبوا الأتباع الذين آمنوا بكلماتهم وبدأوا يعيشون على وفق تعاليمهم. ندعوهم الأنبياء أو الحكماء، من ولدت الأديان الجديدة على أيديهم.

ومن ثم حدث أمر آخر، إذ حفظ أتباعهم القصة التي قيلت لهم، في البداية انتقلت عبر الكلام، ولكن مع مرور الزمن كُتبتْ الكلمات على الورق، وعندها تحولت إلى ما يسمى (الكتاب المقدس). إنه (الإنجيل)! الكتاب! الذي غدا من أكثر رموز

الدين قوة. ومن الواضح أنه كتاب مادي، كتبه بشر، ويمكن التحقق من ذلك من تأريخه. بيد أن ثمة رسالة من العالم الماورائي تتخلل كلماته، أُرسِلتْ إلى عالمنا. تحول الكتاب إلى جسر يربط الأبدية بالزمن، ويربط الإنسان بالإله. لهذا السبب كانوا يتطلعون إليه بإعجاب ويدرسونه بعمق، ولهذا السبب، أيضًا، يغضب المؤمنون عندما يتعرض دينهم للسخرية، أو التدمير.

فما تأريخ الأديان إلّا حكاية هؤلاء الأنبياء، والحكماء، والحركات التي قادوها، والنصوص التي كتبت عنهم. لكنه موضوع مثقل بالتناقضات والخلافات، فالمتشككون يرتابون حتى في وجود بعض هؤلاء الأنبياء، ويشكون في ادعاءاتهم

بشأن الرؤى، والأصوات التي سمعوها. هذا منصف بما يكفي، لكننا لن ندرك المغزى من ذلك. فالأمر الذي لا جدال فيه أنهم موجودون في (القصص) التي حكيت عنهم، القصص التي ما تزال ذوات معنى لبلايين البشر في وقتنا الحالي.

في هذا الكتاب سنقرأ قصص الأديان التي تخبرنا عنهم من دون أن نكرر السؤال فيما إذا كانت هذه هي الطريقة التي حدثت فيها فعلاً آنذاك. غير أنه سيكون من الخطأ تجاهل هذا السؤال تماماً، سنمضي في الفصل القادم بتأمل ما كان يحدث عندما رأى هؤلاء الأنبياء، والحكماء الرؤى، وسمعوا الأصوات. وأحد هؤلاء الأنبياء كان يدعى موسى.

الفصل الثاني



الأبواب

افترض أنك وجدت نفسك في صحراء سيناء في مصر في أحد صباحات عام 1300 قبل الميلاد. قد تمر قرب رجلٍ حافي القدمين يركع أمام شجيرة شوكية، تراقبه، وهو يستمع إليها بتركيز، ثم يخاطبها، ويستمع إليها مجددًا، وأخيرًا يقف على قدميه، ويمضي بعيدًا بهيئة عازمة. هذا الرجل كان اسمه موسى، واحد من أشهر الأنبياء في تأريخ الدين، ومؤسس الديانة اليهودية.

والحكاية التي ستكتب عنه يوماً ستقول إنه في هذا اليوم كان الله يتكلم معه عبر هذه الشجرة المحترقة، ويأمره أن يقود مجموعة من العبيد خارج مصر، ويحررهم في أرض الميعاد في فلسطين.

وفيما يخصك أنت المراقب، لم تكن الشجيرة تحترق بنار لا تنطفئ، بل هى متوهجة بسبب التوت الأحمر. وفي الوقت

الذي تراقب فيه موسى منصتًا بانتباه، لن يكون بإمكانك أن تسمع ما يقال له، ولكن تستطيع أن تستخلص ردوده. على الرغم من أنك لن تفاجأ بأي من هذا؛ فأختك الصغيرة تختلق حوارات مع دُماها، وقريبك الصغير يتحدث مع صديقه المتخيّل الذي يعد وجوده حقيقة مثل حقيقة أبويه. وقد نسمع أيضًا عن مرضى نفسيين يخوضون محادثات مكثفة مع مستمعين غير مرئيين، لهذا أنت معتاد على فكرة وجود أشخاص يسمعون أصواتًا لا يلتقطها غيرهم.

ولكن دعْ موسى لوهلة، وتأمل المتحدث الخفي الذي يخاطبه. تذكر فكرة الواقع اللامرئي الموجود خارج الزمان والمكان الذي يمكن أن يتواصل مباشرة مع البشر. تمسك بهذا المنطق وستدرك فكرة الدين الجوهرية. فثمة قوة في الكون تتجاوز

ما تستطيع حواسنا المادية إدراكـه، وهي (تظهر لأشخاص خاصين سينشرون رسالتها إلى الآخرين). حتى هذه اللحظة نحن لا نتفق مع هذه العبارة، أو نعترض عليها، بل نحاول أن نحدد ماهيتها ليس إلّا. الادعاء يقول إنه «توجد قوة خفية في الكون نسميها الله، وهي على اتصال بنا». نحن الذين نتابع التأريخ نتعلم أن الأديان كلها على اختلافها تمتلك صيغًا مختلفة من هذا الادعاء، وما كانت القوة الخفية تحاول أن توصله لنا، إلّا أن معظمها كان يرى في وجود هذه القوة أمرًا مسلمًا به، ويؤمن أن صيغة إيمانه هى أفضل استجابة لوجودها.

الآن، لنعُدْ إلى موسى، ولنتأمّلْ اللقاء في الصحراء من جانبه. فبالنسبة لك لم تكن الشجيرة مشتعلة نارًا، وما كان باستطاعتك أن تسمع صدى صوت الله يجلجل هناك. إذًا كيف شعر موسى بحرارة اللهب، واستمع بتركيز إلى ما أمره الصوت بفعله، وفَعله؟ هل حدث ذلك في رأسه فحسب؟ عندها لم يكن بإمكاننا أن نرى ما يحدث. أو نعرف أن باستطاعة عقله الاتصال بعقل آخر بعيدٍ عن استيعابنا وإدراكنا؟ إن كانت الأديان قد بدأت من تجارب تحدث في عقول أنبيائها، وحكمائها، وإن كنت تريد أن تنظر فيها بإنصاف، لا أن ترفضها لكونها قصة خيالية، عندها عليك أن تأخذ بالحسبان أن بعض الناس قد يكونون منفتحين لحقائق لا نراها، أو نسمعها نحن.

التفسيرُ المحتمل هو أن عقولنا تعمل على مستويين مختلفين،

مثل شقة في الطابق الأول، وتحتها يوجد قبو، أو سرداب.
فنحن نختبر الفرق عندما نحلم، يكون العقل صاحيًا في الطابق الأرضي، يحيا حياته المنظمة، المخطط لها، ولكن ما أن نُطفِئ الأنوار، ونذهب للنوم في الليل حتى يُفتح باب القبو، ويملأ عقلنا الحالم بأجزاء مختلطة من رغبات مكبوتة، ومخاوف منسية.
إن كان باستطاعتنا أن نتغاضى، لوهلة، عن التساؤل فيما إذا كان هناك الكثير في الكون مما لا تقع عليه العين، يمكننا، في الأقل، أن نعترف أن هناك ما لا ندركه في حياتنا العادية اليقظة، الواعية.
ثمة قبو تحتيّ في عقل الإنسان يدعى اللاوعي تُفتح أبوابه عندما ننام، وتفيض من خلاله الصور، والأصوات التى ندعوها الحلم.

في تأريخ الدين سوف نجد أشخاصًا يأتيهم في ساعات اليقظة هذا النوع من اللقاءات التي لا نراها، نحن، إلّا في الأحلام. أولئك الأشخاص ندعوهم الأنبياء، أو الحالمين، ولكن قد توجد طريقة أخرى للتفكير فيهم، وذلك بتشبيههم بالفنانين المبدعين الذين عوضًا عن تفريغ رؤاهم في اللوحات، أو الروايات، يندفعون لترجمتها إلى رسائل تقنع الملايين ليؤمنوا بما رأوه وسمعوه. وموسى هو مثال شهير لهذه الفعالية الغامضة. شيء ما كان على اتصال به من مكان ما وبسبب هذا اللقاء تغيّر تأريخ اليهود إلى الأبد. ولكن ما كان هذا الشيء، ومن أين جاء؟ أكان داخله؟ أم خارجه؟ أو ربما يكون الأمران معا في الوقت نفسه؟

إن أخذنا ما حدث لموسى في سيناء مثلاً مستخدمين استعارة الباب بين عقلنا الواعي واللاواعي ليساعدنا، سأقترح منهجًا

يقدم ثلاثة طرق مختلفة للتفكير في التجربة الدينية.

في حدث من هذا النوع يفُتَح الباب بين العقل الواعي والعقل اللاواعي، وما يعقبه شيء يشبه الحلم. يؤمن الأنبياء أنه يأتي من خارجهم، ولكنه واقعيًا يأتي من عقلهم اللاواعي. فالصوت الذي سمعوه هو صوت حقيقي يتكلم معهم، بيد أنه كان صوتهم هم، يصدر من داخل عقولهم. لهذا السبب لا يمكن لغيرهم أن يسمعه.

أو من المحتمل أن يكون البابان قد فُتِحا في التجربة النبوية. فربما يكون العقل اللاواعى، أو العقل الحالم قد دخل إلى العالم

الماورائي. فلو كان ثمة حقيقة أخرى هناك، أو عقل يتجاوز عقولنا، فمن المحتمل أنه سيحاول الاتصال بنا. ما يحدث للأنبياء وهم في حالة الوحي أنهم يلتقون بحقيقة أخرى عقلها يتحدث مع عقولهم، وسيخبرون العالم ما كانت تقوله لهم.

توجد حالة وسطى بين نظرية (الباب الأول) ونظرية (الباب الثاني). نعم قد يكون هناك بابان في العقل اللاواعي للإنسان، وربما تقع للعقل الإنساني لقاءات حقيقية مع ما هو موجود في ذلك العالم. لكننا نعرف كيف أن البشر لا يمكن الاعتماد على فهمهم للعقول الإنسانية الأخرى، لذا ينبغي أن نكون حذرين من ادعاءات اللقاء مع العقل الإلهي. قد يكون هناك بابان في العقل اللاواعي للإنسان، بيد أنه من غير المحتمل أن يكون الباب الذي سيفتح مواربًا تمامًا، لذا لا يمكن أن نكون

متأكدين مما ادعى الأنبياء رؤيته، وسماعه.

لنستخدم استعارة الأبواب في تأمل ما حدث لموسى في الصحراء، مجددًا، والمناهج الثلاثة المختلفة للدين التي نمَت عنه. لو أخذنا منهج الباب الأول: راود موسى حلمٌ أمده بالقوة، والقرار ليصبح محررًا لناسه من عبوديتهم في مصر، وهذه قصة سنتمعن فيها أكثر في فصل لاحق. التجربة كانت حقيقية، لقد حدثت، لكنها نبعت كليًا من عقله اللاواعي. وخير تشبيه لهذا المنهج في الدين يأتي من دور السينما القديمة التي أحببتها في طفولتي. كانت الأفلام تطبع، في تلك الأيام، على بكرات من السليولويد، وفِي خلفية صالة العرض توجد مقصورة فوق

الشرفة العليا تعرض منها الأفلام على شاشة فضية على الجدار المقابل. ذلك ما نراه أمامنا من المكان الذي نجلس فيه، ولكنه في الواقع يأتي من آلة موجودة خلفنا في حجرة العرض. فأحد الطرق للتفكير في الدين هو تشبيهه بعرض المخاوف والاشتياقات الكامنة في عقلنا اللاواعي على شاشة الحياة. فالدين على ما يبدو موجود في الواقع، وله حياته الخاصة، بيد أنه ينبع فعليًا من أعماق مخيلتنا، إنه نتاج إنساني صرف.

يمكن أن تتوقف هنا، وتترك الأمر، أو يمكن أن تقبل معظم هذا التفسير، وأن تنتقل إلى فكرة الباب الثاني. من الممكن أيضًا أن تؤمن أن الدين قد أنزله الله من دون أن نغير تفصيلاً من تفاصيل الجانب الإنساني من التجربة الدينية. فنحن لم نتمكن من سماع الصوت الذي كان موسى يصغي إليه، لأنه كان في

حالة ذهنية يتصل فيها بالله مباشرة بعقله. إنه عالم غير مرئي، وغير مسموع لنا، لقاء حقيقي مع العالم الآخر. على الرغم من صعوبة استيعاب هذا الحدث كليًا، فقد رأينا نتائجه.

يمكن إضافة منعطف آخر إلى فكرة الباب الثاني. فمعرفة كم من السهل أن يسيئ الناسُ فهْمَ اللقاءات اليومية التي تحدث مع اشخاص آخرين، تجعلنا متحفظين مع ادعاءاتهم مقابلةَ الله، وأن نتخذ جانب الشك والتواضع. هذا يعني أنه ينبغي أن نطبق مهاراتنا النقدية على هذه الادعاءات الدينية، لا أن نأخذها بالتقييم الذاتي الذي تضطلع به هذه الأديان.

لهذا يمكنك أن تكون غير مؤمن، أو مؤمنًا حقيقيًا، أو مؤمنًا نزّاعًا إلى الانتقاد. وفي خضم تفكيرك في هذه الأمور قد تجد نفسك تنتقل من موقع إلى آخر عبر السنين، كمل يفعل الكثيرون منا. سأتركك تتخذ قرارك حول أفضل طريقة لتأويل هذه الحكايات التي ستقرأها في هذا الكتاب، أو أن تترك المسألة مفتوحة حتى آخر صفحة فيه. وربما حتى تقرر أن لا تقرر، وهو موقف يعرف بـ (اللاأدرية)، وهو اسم مشتق من كلمة يونانية تعني (لا سبيل إلى معرفته).

لغاية هذه المرحلة ما نزال نفكر في الدين بصورة عامة، وقد حان الوقت الآن أن نتمعن في كل دين بوجه خاص. ولكن السؤال المهم هو من أين سنبدأ، مثلما هو مهم أي ترتيب ينبغي اتباعه. فعلى خلاف تأريخ العلم أو الفلسفة، لن يفلح أن نتبنى

منهجًا زمنيًا في الدين. فقد كانت تجري أحداث مختلفة في أماكن مختلفة في الوقت نفسه، لهذا لن نتمكن من اتباع خط تطور متصل حسب، وإنما علينا أن نتبع خطًا متعرجًا، زمنيًا، وجغرافيًا في آن واحد.

إن فضيلة هذا المنهج أنه سيبين لنا اختلاف الإجابات التي قدمتها لنا مختلف الأديان عن الأسئلة الجوهرية التي تطرحها البشرية على نفسها منذ بدء الخليقة. قد تكون الأسئلة ذاتها - أيوجد إله هناك؟ ما الذي سيحدث لنا بعد الموت؟ - بيد أن الإجابات كانت متباينة للغاية. وهذا ما جعل تأريخ الدين ساحرًا للغاية.

لحسن الحظ ثمة نقطة بداية واضحة ننطلق منها في رحلتنا.

فلابد من أن نبدأ مع أقدم الديانات الحيّة وأشدها تعقيدًا في جوانب عديدة، ألَا وهي الديانة الهندوسية. لنبدأ من الهند.

الفصل الثالث



العجلة

ثمة موضوع شائع في الخيال العلمي فحواه أن يعود البطل بالزمن ليغير أحداثًا في الماضي، سيكون لها تأثير كارثي في التأريخ الإنساني. في إحدى القصص، يسير قطار، يركبه انتحاري مجنون، فوق سكة حديد، وما أن يتجاوز سدًا ضخمًا، حتى يقوم الانتحاري بتفجيره، فتُغرق مياه الفيضان المدينة برمتها. لحسن الحظ، اتقن قسم سري في الحكومة وضع طريقة لإرسال

الناس إلى الماضي عبر الزمن. فاستخدم القسم هذه الآلة الجديدة، وأرسل عميلاً ليركب القطار قبل أن يغادر المحطة، وأُعطيَ مهلة ساعتين ليجد الانتحاري، ويبطل مفعول القنبلة. وقد نجح في القيام بذلك في الوقت المحدد، وتم إنقاذ المدينة. قد يتمنى معظمنا أن يتمكن من العودة بالزمن هكذا لمحو رسالة

ما، أو لكبح دافع ألحق الأذى بالآخرين، وجلب معه التعاسة.

بيد أن قانون النتائج (أو أن يتبع الفعل فعلٌ آخر) قد اتخذ مكانه ونحن عالقون بنتيجة ما فعلناه.

في الديانة الهندوسية يدعى ذلك (الكارما)، أو قانون الفعل. فطبقًا للديانة الهندوسية، عاشت روحك أو نفسك حيوات عديدة قبل أن تحتل الجسد الذي أنت فيه الآن. وستعيش مستقبلاً المزيد من الحيوات عندما تنتهي هذه الآنيّة. واختيار كل حياة تحددها الطريقة التي تصرفت فيها ليس في الحياة التي تسبق هذه فحسب، بل في الحيوات السابقة أيضًا، بعيدًا حتى في ضباب العصور القديمة، مثلما سيؤثر تصرفك الآن في نوع الحياة التي ستحصل عليها في دوران العجلة القادم.

عندما تأمل أنبياء الهند وحكماؤها في البعيد، وتساءلوا عما

يحدث للإنسان عندما يموت، تلقوا إجابة مميزة. إن الإنسان لا يموت، وذلك بمعنيين فإما أنه يتوقف عن الوجود كليًا، أو يستمر كما هو في نوع من الحياة ما بعد الموت. إزاء الإجابتين قالوا إن الأموات يعودون إلى الأرض ثانية في شكل حياة أخرى تحددها الكارما الخاصة بهم، وقد لا يعودون في هيئة إنسان. فالوجود الكلي لم يكن إلّا مصنعًا ضخمًا لإعادة التدوير، إذ ستؤثر نوعية الحياة التي تمر عبر الباب المخصص للموت في مكانة من سيخرج من الباب في الجانب الآخر المخصص للانبعاث. كان اسم هذا المصنع (سامسارا) (ويعني التدفق المتواصل) لأن الأرواح كانت تنتقل عبره إلى الشكل التالي، وإلى المرحلة

القادمة، سواء للخير أم للشر، فكل فعل ترتكبه في حياة واحدة يؤثر في هيئة مظهرك التالي. ولم يكن الكائن البشري وحده من وقع أسيرًا في السامسارا، فالعالم نفسه كان خاضعًا لقانون الموت والبعث ذاته. وفي نهاية دورة الوجود الحالية فإنه سيقع في حالة من السكون، يجري استدعاؤُهُ منها للعودة إلى الوجود عندما يحين الأوان. وهكذا تستمر عجلة الوجود بالدوران مجددًا مرة، وثانية، وثالثة.

غير أنهم لم يفكروا بالكارما عقابًا وضعه رقيب غيبي للأرواح. فالكارما كانت قانونًا موضوعيًا مثل الجاذبية، ينبع فيه شيء من شيء آخر مثلما تتبع النتيجة السبب، ومثل دفع أحد أحجار الدومينو ومراقبة سقوط كل الأحجار بعدها. قد تتخذ الروح خلال تطوافها في السامسارا نحو ثمانية ملايين هيئة قبل

أن تحقق في النهاية حالة (الموكشا)، أو الانعتاق من الوجود، وتضيع في الأبدية مثل قطرة مطر تسقط في المحيط. فالهدف النهائي للديانة الهندوسية هو كيفية الهروب من الدوران النهائي لعجلة الوجود وتحقيق الخلاص.

والمصطلح الفني المستخدم لوصف ما يحدث لنا بعد الموت هو (التناسخ). آمنت به العديد من المجتمعات عبر العالم، لكن لا مكان آخر وجد فيه بقوة مثلما وُجِد في الدين الهندي. والمصطلحات كلها التي استخدمتها لتعريف (الكارما)، أو قانون الفعل؛ و(السامسارا)، أو التدفق المتواصل للروح؛ بحثًا عن (الموكشا) أو الانعتاق، هى مصطلحات جاءت من لغة قديمة

تدعى السنسكريتية، أدخلتها إلى الهند زمرة من الغزاة الهمجيين القادمين من الشمال. ومع غزوهم للهند نحو عام 2000 قبل الميلاد يمكننا أن نحدد تأريخ بداية الديانة الهندية.

في أقصى شمال الهند شريط طويل من الأرض الخضراء يسمى سهوب آسيا الوسطى، وهي بلاد عشبية قاسية تناسب فضاضة رعاة البقر الذين يتبعون ماشيتهم في بحث مستمر عن مرج للرعي. ولأسباب غير متأكدين منها تمامًا، هاجر هؤلاء، مطلعَ الألفية الثانية قبل الميلاد، من السهوب بحثًا عن حياة أفضل. توجه العديد منهم جنوبًا إلى الهند، وأطلقوا على أنفسهم اسم المواطنين أو (الآريين) بلغتهم. كانوا يشبهون المحاربين الذين يقودون مركبات حربية مسرعة. اجتاحوا، في أمواجٍ، واديَ السند الذي يقع في الزاوية الشمالية الغربية من شبه القارة.

في هذا المكان كانت هناك حضارة ناهضة من قبل، لديها نظم متطورة في الفن، والعمارة، والدين، وامتلكت رذائل المجتمعات المتطورة وفضائلها كلها. اقتحم هذا المشهدَ هؤلاء الآريون الغزاة بسرعة وعوضوا أنفسهم، باندفاع شديد وشجاعة، عن كل ما افتقدوه بإحكام. ثمة عامل آخر ميّز المحتلين عن سكان هذا المكان وهو أنهم كانوا يتصفون ببشرة لونها أفتح منهم، وهذا الاختلاف في اللون سنقرأ عنه الكثير الذي تردد صداه عبر القرون إلى زمننا الحالي، ما أعطى صدى قبيحًا لكلمة آري. غير أن المحتلين أدخلوا إلى الهند ما هو أكثر من مجرد لون بشرة

فاتحة، فقد أدخلوا آلهتهم معهم وبدايات لتأسيس بنية أدب ديني مميّز يدعى (الفيدا).

جرى وضع كتاب الفيدا في صيغته المكتوبة بين عامي 1200 و1000 قبل الميلاد في الوقت الذي رسّخ فيه الآريون أنفسهم في الهند وهيمنوا على الحياة هناك. تعرف الفيدا بـ (شيوتي) أو الاستماع، وتُفهم بمعنيين مختلفين لكن مترابطين. فقد استمع حكماء الماضي إلى جوهرها وانتظروا ليتكشف لهم معنى الوجود في العالم الماورائي. كانوا، هم، المستمعين الأصليين، ممن تكلمت إليهم الأصوات. وما استمع إليه المعلمون نقلوه إلى تلاميذهم مكرّرًا مرة تلو الأخرى. بهذه الطريقة انتقل كتاب الفيدا إلينا عبر القرون. وما تزال طريقة قراءته بصوت عال هي الطريقة المفضلة لتعلم كتب الديانة الهندوسية المقدسة. فلا وجود للإنجيل،

أو القرآن في المعابد الهندوسية، ولكنك تستمع إلى مكافئه المقروء في المراسم التي تقام هناك.

تعني الفيدا (المعرفة)، وهي الكلمة التي لها جذور الكلمتين الإنجليزيتين ذاتهما (بصيرة) و(حكمة). ثمة أربعة كتب للفيدا وهي – الرجفيدا، الياجورفيدا، السامافيدا، الأتهارفافيدا، وكل منها يحتوي على أربعة أجزاء، تنقسم على سامهيتا، براهمان، أرانياكا، أوبانيشاد. وسنقدم نبذة مختصرة عنها. يعد كتاب الرجفيدا سامهيتا من أقدم الكتب الأربعة، فهو يضم أكثر من ألف ترنيمة تمتدح الآلهة. تدعى هذه الفعالية في الدين (العبادة)، وثمة طريقة واحدة للتفكير فيها هى أن نعدها نوعًا من التملّق

يفترض أن يُمتّع أصحاب السلطة، بالطريقة ذاتها التي تخاطب فيها ملكة بريطانيا بـ (جلالة الملكة) ويتوقع من الناس أن ينحنوا احترامًا، أو خضوعًا عندما يلتقون بها. وهذا مثال من الرجفيدا:

خالق الكون، من تجاوز الحكمة، وتجاوز القوة،

الخالق، الآمر، المثل الأعلى...

فاهم المغزى، بالغ في الكلام.

فكما يتمتع الكهنة الدنيويون بتلقي الهدايا، ويُكبح غضبهم بالإطراء، كذلك كان الأمر مع الآلهة. إن كانت الترانيم تملقًا نقدمه للآلهة، فالأضاحي عطايا تلازمها، ولابد من أن تقدم بمراسم مدروسة تتطلب محترفين بارعين لتنظيمها. في التقاليد الهندوسية، يدعى الكهنة الذين يديرون الأضاحي بالبراهمة، وكتيبات التعاليم التي جمعوها لمساعدتهم تدعى البراهمان.

وعلى خلاف معظم الناس الذين تكون هذه التعاليم مملة لهم، فهي يمكن أن تكون مثيرة للاهتمام للغاية لنوع معين من العقل الديني. عندما كنت شابًا أدرس لأصبح كاهنًا كنت مأخوذًا بإرشادات هذه الشعائر والمراسم الخاصة بمختلف التقاليد المسيحية. كان ثمة مجلد كتاب بحجم عتبة الباب اسمه (شرح طقوس المراسم الرومانية)، إضافة إلى نسخة كتاب قديم باهت اللون يعود إلى كنيسة إنجلترا واسمه (ملاحظات عن الطقوس). اعتدت أن انغمس بانفعال في كلا الكتابين متخيلاً فوج الأساقفة يتقدمون ببطء في مبنى الكاتدرائية الشاسع الفسيح

يغمرهم دخان البخور ذو الرائحة الزكية. هذان الكتابان كانا بمثابة كتب البراهمة المقدسة للكنيسة الكاثوليكية. ولكن لم يكن رجال الدين وحدهم من يحبون ارتداء الملابس وإداء الطقوس، فالعديد من النوادي الخاصة وأخويات الطلبة يمارسون طقوسهم السرية، مذكّرين بحاجة الإنسان إلى الرمزية والمراسم.

إن كنت مثلي، تثير معتقدات الدين الداخلية اهتمامك أكثر من شعائره الخارجية، فينبغي عندها أن تولي اهتمامك للمرحلة الأخيرة من التطور في كتابات الفيدا. وقد وجدت ذلك في الكتاب المقدس الأوبانيشاد، الذي كُتِب على مدى ثلاثة قرون حتى جرى إنجازه نحو 300 قبل الميلاد. فكتاب أوبانيشاد، أو (الجلوس قرب المعلم) حوّل الاهتمام من الجانب الشعائري من الهندوسية إلى جانبيها الفلسفي واللاهوتي. وقد تعرفنا لأول مرة في هذا الكتاب على عقيدتي الكارما والسامسارا اللتين استعرضناهما

في بداية هذا الفصل.

في الفصل القادم سنستعرض ظهور بعض هذه التعاليم الهندوسية المميزة والطريقة التي فسرت بها. بيد أني أريد أن انهيَ هذا الفصل بالتطرق لرد الديانة الهندوسية على السؤال الآخر المهم في الدين. لقد رأينا الآن كيف أجابوا عن السؤال بشأن ماذا سيحدث لنا بعد الموت، وجاء رد كتاب أوبانيشاد بعقيدة التناسخ الرائعة. السؤال الآخر الذي يطرحه الدين دائماً هو ماذا لو وجدت كينونة ما في الظلمات خارج الكون. فالأديان الأخرى ذكرت الأنبياء الذين منحوا الإجابات لهذه

الأسئلة، وكل دين عدّ هذا النبي ملكًا خاصًا له. ليست هذه هي الطريقة التي سارت فيها الأمور في الهندوسية، فلا وجود لمؤسس أخذ الدين اسمه منه، ولا توجد شخصية واحدة ملهمة له نرجع إليها. لقد انبعث دينهم من حالمين مجهولين في ماضي الهند السحيق، وقد لا تكون الهندوسية احتفظت بأسماء هؤلاء الحالمين الأوائل، بيد أنها احتفظت بما قالوه لها.

وفي جزء كتاب الرجفيدا بدأت بالرد على سؤال الدين فيما إذا كان يوجد شيء هناك. ولكي نسمعه علينا أن نتخيل أنفسنا أحد الحكماء المجهولين، وهو جالس قرب نار في مخيم تحت سماء مرصعة بالنجوم في شمال الهند يتأمل، عبر الزمن، بدايات العالم وما قبلها، ينشد ترنيمةً، ولا يتكلم محدقًا في الليل.

ولم يكن موجودًا:

لم يكن ثمة حيز من الهواء، ولا سماء بعده.

ذلك الإله الواحد، الذي يتنفس بطريقته:

باستثناء أنه لم يكن شيئًا.

ظهرت الآلهة في وقت لاحق من خلق هذا العالم.

لا يعلم أحد ظهورها الأول في حيز الوجود؟

هو، أول هذا الخلق، سواء أكان هو من صنع كل شيء
أم لم يصنعه.

من تدير عينه هذا العالم في أعالي السماء، إنه حقًا يعرفه،
أو ربما لا يعرفه.

ثمة مفاجآت فيها نسمعه يترّنم. أخبرنا أنه توجد آلهة إلّا أنها (ظهرت بعد خلق هذ العالم). هذا يعني أنها مثلنا قد تم (خلقها) ولم تخضع أيضًا لتطورات عجلة الزمن، وهي لا تختلف عنا تولّدًا، وترحّلاً. بيد أن الحالم قد لمح أنه وراء كل التغير الذي يحصل في الشكل يوجد شيء لا يتغير، (ذلك الإله الواحد) كما دعاه. وكأن التأريخ ومخلوقاته كانوا مثل الضباب الذي يغطي على وجود جبل شاهق ويشوهه: ذلك الإله الواحد! ولكن ما هو؟ ومن كانت الآلهة، ومن كان ممثلوها؟

الفصل الرابع



الواحد في الكل

تسمع في أحد الأيام أن كاتبتك المفضلة قادمة إلى المدينة لتتحدث عن عملها، فتتجه إلى المكتبة التي ستكون فيها، وتستمع إليها وهي تقرأ من كتابها الجديد، المليء بمغامرات الشخصيات التي كنت تتابعها منذ زمن بعيد. فتسأل الكاتبة من أين جاءت هذه الشخصيات كلها؟ وهل هي حقيقية، وتعيش في مكان ما؟ فتضحك قائلة: (في مخيلتي فحسب). هي من خلقت هذه

الشخصيات، لقد خرجت من رأسها. لذا يمكنها أن تفعل ما يحلو لها بها.

ماذا لو انتابك شعور في طريقك إلى البيت أنك قد تكون غير حقيقي؟ وقد تكون من صُنع شخص آخر، شخصية في حبكة رآها شخص ما في أحلامه؟ وإن حدث هذا، فكأن شخصية

في كتاب ما قد أدركت أنه، أو أنها لا تملك حياةً مستقلةً، وأنها مجرد نتاج لخيال كاتب ما.

يشبه ذلك الفكرة التي حلّت بين حكماء الهند بقوة الوحي. هم أنفسهم لم يكونوا حقيقيين! أمر واحد كان حقيقيًا تمامًا: الروح الكونية، أو الروح التي تدعى (براهمان) التي تجلت في أشكال متعددة تعبيرًا، أو كتابةً. فكل ما في العالم الذي يبدو أنه وجد في واقع صعب، كان في الحقيقة مظهرًا من مظاهر البراهمان في أشكالها المتخفية وهيئاتها الكثيرة. إنها، كما يقول كتاب الأوبانيشاد المقدس، «الشاهد الساكن الأبدي داخل كل الكائنات، في قلب كل شيء مهما كان، وهو الوعي الفردي الذي هو واحد مع البراهمان – الوعي الأعلى والمطلق. مثل الشرارة بالنسبة للنار».

ثمة قصة في كتاب الأوبانيشاد عبرت عن تماثل هذه الوحدة في عبارة شهيرة: قال والد لابنه الذي يدعى شويتا كيتو، «إنه الجوهر الأسمى - يوجد في هذا العالم كله ليصير روحه. هو الحقيقة... و... هو أنت، شويتا كيتو». قد يعتقد الناس أن لهم وجودًا منفصلاً وخاصًا، غير أن ذلك وهم. فهم جميعًا شخصيات تظهر مرة تلو الأخرى في القصة المتجلية في البراهمة، وقد كتبت أفعالهم (الكارما) والأدوار التي سيشغلونها في الحلقة القادمة.

لم يكن الأفراد من كتبوا أدوارهم حسب، بل والطريقة التي نُظِّمَ فيها المجتمع في طبقات، وفرق قد كتبته أيضًا. وفي كل مرة تنبعث فيها روح الإنسان، تتجلى في واحدة من هذه

المجاميع، فيكون عليها أن تحيا زمنها فيه حتى موتها القادم، والتناسخ الآتي:

يدفعنا وجود العلاقة الواضحة بين الطبقات المنفصلة وألوان بشرتها، إلى تذكر الغزاة الآريين الذين أدخلوا لغتهم ودينهم إلى وادي السند وتميّزوا ببشرة فاتحة اللون، وربما تعالوا على الأعراق ذوات البشرة الغامقة اللون التي التقوا بها عند وصولهم. من المحتمل كان يوجد نوع من الانقسام بين الطبقات الاجتماعية المختلفة في الهند قبل مجيء الآريين، وقد برروا ذلك أنه تصنيف أعدته الحقيقة العليا، وهناك نص يشرح أصله.

لقد أوكل البراهميون مهمة خلق العالم إلى الله الخالق الذي يدعى على نحو لا يخلو من الإرباك بـ (البراهما). خلق البراهما أول رجل يدعى (مانو)، وأول امرأة اسمها (شاتاروبا)، ومنهما

خُلقت البشرية. إلّا أن البشر لم يُخلَقوا متساوين، إذ توجد أربع طبقات اجتماعية بترتيب تنازلي على وفق أهميتها. تضم الطبقة العليا البراهمة، والكهنة، والمعلمين. والطبقة الثانية الكاشتريا، وتتكون من الملوك والارستقراطيين، والمحاربين. والطبقة الثالثة الفايشيا وتضم التجار، والبائعين، والحرفيين. وفي المرتبة الدنيا تحلّ الطبقة الرابعة وهم الشودرا التي تمثل الخدم، وعمال المزارع. كان البراهمة الطبقة البيضاء، والكاشتريا الطبقة الحمراء، والويش الطبقة الصفراء، أما الشودرا فكانوا الطبقة السوداء. وثمة طبقة أدنى من الجميع لا تنتمي إلى أيٍّ من الطبقات، وأفرادها يقومون بأعمال متدنّية مثل إفراغ دورات المياه، وغيرها من أعمال النظافة

التي جعلتهم قذرين على الدوام. إنهم طبقة (المنبوذين) حتى ظلهم يلّوث كل ما يقترب منه. كان نظامًا قاسيًا وصارمًا، لكن إيمان الناس في الكارما، والسامسارا خفف قليلاً من يأسهم منه. فالتنقل عبر حيوات تقررها أفعالهم في الحياة (الكارما) جعل الناس يأملون في أنهم إن عاشوا حياة صالحة فسيحسن من موقعهم في الجولة القادمة.

بيد أنه لم يكن العالم بطبقاته الاجتماعية، وانقساماته، وأشكال الحياة الزاخرة فيه يمثل الطريقة الوحيدة التي عبّر فيها البرهمي عن نفسه، فقد خلق الآلهة أيضًا، بل والملايين منها، وكانت طريقة أخرى ليتخذ فيها (الإله الواحد الذي لا شكل له) أشكالاً مختلفة. ولكن علينا أن نحذر من طريقة تفكيرنا بهذه الآلهة، ففي الظاهر، ندعو الديانة الهندوسية بالديانة (الشركية)،

وهي طريقة أخرى للقول إنها تؤمن بتعدد الآلهة. لكن يمكن وصفها، بدقة، بديانة (توحيدية)، لأنها تعتقد أن الآلهة الكثيرة ما هي إلّا وجه من أوجه الإله الواحد، أو مظهر من مظاهر قدرته، بل إنه حتى فكرة الإله الواحد لم تكن صحيحة تماماً. ففي المعتقد الهندوسي، خلف كل الشخصيات الوهمية متغيرة الهيئة في الحياة - بضمنها (الآلهة) - تكمن (الحقيقة العليا)، (الإله الواحد)، كما وصفه كتاب الأوبانيشاد المقدس. وإن رغبت في معرفة المصطلحات الفنية للأشياء، فهذا المعتقد معروف بـ (الأحادية)، ويعني (وحدة مادة الكون)، بدلاً من (وحدانية الإله).

ليس للجميع عقل مطلع على فكرة بهذا الحجم، لذا نُصِبَتْ تماثيل للآلهة تمثل رموزًا (للإله الواحد) لمنح الناس شيئًا ينظرون إليه، ويركزون عليه. تذكّر أن الرمز هو موضوع يقابل فكرة كبيرة، ويربطنا بها. في الديانة الهندوسية الآلاف من الآلهة، والتماثيل لتختار منها، وكلها وضعت لتجذب أفكار المتعبد إلى (الإله الواحد) الذي وُجد من خلاله كل شيء.

إن أردت رؤية ما تبدو عليه أشكال الآلهة الهندوسية، فالمكان الذي تجدها فيه هو أحد معابدها، لذا فلنعثر على أقرب معبد. نصعد درجات الرواق حيث خلعنا أحذيتنا، ودخلنا المعبد حفاةً. وصلنا إلى القاعة الوسطى، وفي نهايتها البعيدة حيث المزيد من الدرجات، نكتشف ضريحًا لإله أو آلهة تعيش هناك. تعج معابد الهند الكبيرة بالآلهة. والمعبد الذي اخترناه تسكن فيه

ثلاثة آلهة لا غير بيد أنها مشهورة ومهمة للغاية.

فهذا تمثال لرجل يرقص له ثلاث أعْين، وأربع أذرع، ومن رأسه يتدفق أشهر نهر في الهند، هو نهر الكنج. وهذه هيئة إنسان ضخم بكرش كبيرة، ورأس فيل. لكن أكثر اكتشافاتنا إرباكًا كانت لوحة لامرأة لسانها يمتد إلى أبعد ما يكون، لديها أربع أذرع، تحمل في يدٍ سيفًا حادًا، وفي الأخرى رأسًا مقطوعًا تسيل منه قطرات دم.

كان الراقص ذو ثلاث الأعين، وأربع الأذرع هو شيفا المُدمر. والإله برأس الفيل هو غانيش، أحد أبناء شيفا، والآلهة بارفاتي. وأما المرأة بأربع الأذرع التي تحمل الرأس المقطوع فهي

كالي زوجة من زوجات الإله شيفا. لدى غانيش رأس فيل لأن والده في يوم ما فشل في معرفته وقطع رأسه، ولما أدرك خطأه وعده أن يغرس له رأس أول من يمر أمامه، ومرّ فيل في المكان. وكما يليق بمن يحمل مثل هذه المحنة، أصبح غانيش إلهًا مشهورًا ومحبوباً يساعد أتباعه لمواجهة التحديات التي تعترضهم في الحياة.

أما قصة الآلهة كالي فهي أقل أسىً من قصص الآخرين. كانت آلهة الهندوس أعظم من تجلت بهيئات مختلفة، وكالي هي هيئة من الهيئات الكثيرة للآلهة الأم، الجانب الأنثوي من الإله. في أحد معاركها ضد الشر، انجرفت كالي نتيجة لهول الدمار، وراحت تذبح كل من يقع أمامها. ولكي يوقفها شيفا رمى بنفسه على قدميها، فصدمت كالي من هذه الحركة، وامتد لسانها خارجًا من المفاجأة. تعدّ كالي وغانيش شخصيتين نابضتين بالحياة، بينما

يُعَدّ شيفا الشخصية الأكثر أهمية، فهو الأبرز بين الآلهة الثلاثة الأعْلَين في مجمع الآلهة الهندوسي، وأما الالهان الآخران فهما (البراهما)، الخالق الذي التقيناه مسبقًا، وفيشنو الحافظ.

ولكي نستوعب مكانة الآلهة الثلاثة العليا في الدين الهندوسي لابد من أن نفهم طريقتين مختلفين للتفكير بالزمن. ففي الفكر الغربي يسير الزمن كالسهم المنطلق إلى الهدف، وأفضل طريقة لتصويره هو خط مستقيم مثل هذا: ← أما في الفكر الهندي، فالزمن يدور مثل العجلة، وأفضل طريقة لتصويره هو دائرة كهذه: O وكما تدفع الكارما الأفراد عبر دورة بعد أخرى من الانبعاث، يخضع العالم أيضًا لقانون مماثل، ففي نهاية المدة الحالية يتلاشى

العالم في فراغ العدم، حتى يبدأ (الإله الواحد) بتدوير عجلة الزمن مجدداَ، ويخلق البراهما كونًا جديدًا للوجود.

تنتهي مهمة البراهما عند دوران العجلة القادم فيسترخي عندئذ ويتولى المسؤولية فيشنو. عادة ما يصّور فيشنو وهو يحمل صولجانًا في يده اليمنى رمزًا للسلطة: إنه الإله الذي رعى العالم بحنان أبوي وبذل جهده ليبقيه آمنًا. الإله فيشنو إلهٌ مشجع ومطمئِن، وربما يكون حتى مملاً بعض الشيء. أما الإله شيفا فهو بعيد كل البعد عن كونه مملاً، فهو يمثل الجانب العدواني من الطبيعة البشرية. إنه المُدمر الذي ينهي ما بدأه البراهما، وفيشنو هو من يدعمه. وتُعَدّ (رقصة الموت) أكثر أفعاله دراميةً، ففيها يسحق الزمن بقدميه فيصبح العالم في طي النسيان حتى دوران العجلة التالي:

يتأمل الهندوس الورعون تماثيل هذه الآلهة ويفكرون فيما يمثلونه، إنها تذكرهم بدوران عجلة الزمن العظيمة التي تجعلهم يدورون المرة تلو الأخرى في حياة بعد أخرى. إنها مراحل متجددة يكون الجميع فيها في حالة ذهاب وإياب، وظهور واختفاء، يصنعون مداخلهم ومخارجهم، منظر عبقري ولكنه منهِك. أتوجد طريقة تجعلهم يكفون عن هذه المراحل، والانسحاب منها؟ وهل المخرج الأخير من حالات الدخول والخروج للسامسارا ممكن؟

ثمّةَ ممارسات يمكن للروح أن تقوم بها لتساعدها في الهروب من مراحل الزمن المتجددة، ولكى نفهمها علينا أن نتذكر المأزق

الذي وجد البشر أنفسهم فيه. فهم أنفسهم لم يكونوا حقيقيين، ومع ذلك، وقعوا في فخ وهمٍ أنهم كذلك. الخلاص هو أن تصل إلى التحرر من الوهم وأن تجعل الذات تختفي في الآخر. ولتبسيط الأمر، لنقسم هذه الممارسات التي تجعل التحرر ممكنًا على نوعين من التدريب الروحي. يمكن أن نفكر فيهما على أن أحدهما يمثل الطريقة الخارجية، والآخر الطريقة الداخلية؛ طريقة التركيز على شيء ما، وطريقة التركيز على اللا شيء.

باتباع الطريقة الخارجية، التي تعرف أيضًا (بالتفاني في العبادة) يستخدم المتعبدون شكل الإله أو تمثاله ليحققوا التواصل مع (الإله الذي لا شكل له). إنهم يجلبون له الهدايا في المعبد ويحيطونه برعايةٍ عطوفٍ، وبإداء هذه الشعائر يخرجون من أنفسهم ليدخلوا إلى الإله الواحد. تعزز هذه الشعائر نوعًا من

نسيان الذات الذي يحررهم تدريجيًا من قبضة الطبيعة البشرية التي تحبسهم في الوهم. بيد أن هذه الطريقة سيرها بطيء وقد تتطلب حيوات لا معدودة قبل أن تحقق الهروب النهائي من دوران عجلة الموت والولادة الذي لا يتوقف.

تتخذ الطريقة الثانية منهجًا معاكسًا للوصول إلى الخلاص، فهي لا تستخدم التماثيل لتصل إلى ما وراء الظواهر، إنما تحاول أن تجرد النفس من وهم الذات بممارسة التأمل. يتعلم الممارس الجلوس ساكنًا متجاهلًا متاعب الجسد، وحالات صرف الانتباه التي تتضارب في عقله. الذين يمارسون التأمل يحاولون تفريغ أنفسهم من وهم الذات، وتحقيق الوحدة مع الحقيقة العليا. غير

أن التأمل ليس حلاً سحريًا كذلك، فإحساس التوحد الذي يمنحه هو إحساس زائل، والعقل الذي نُفرغ منه سرعان ما يمتلئ ثانية بكل الشهوات والملهيات المعروفة. لهذا السبب، سعى البعض، وراء تحقيق حالة دائمة من نسيان الذات، والتوحد مع (الإله الواحد)، بهجر علاقاته الدنيوية كلها، متحولين إلى متسولين هائمين يعيشون حياة إنكار ذات تامّ. إنهم يكبحون احتياجات الجسد التي تربطهم بهذه الحياة ليتركوا أنفسهم تضيع في (الإله) الذي وحده من يمثل الحقيقة. تمسكت الديانة الهندوسية بوعد التحرر النهائي من عجلة الزمن، إلّا أن فكرة الحيوات اللامتناهية التي يتطلبها التحرر تفقد الصواب. ونحو عام 500 قبل الميلاد قامت بحثّ بعضهم ليفكر في اجتراح طريقة سريعة للوصول إلى هذا التوق للانعتاق. حَقّق ذلك أحد أعظم العباقرة جاذبية في

تأريخ الهند الذي سنتناوله في الفصل القادم، واسمه سدهارتا جوتاما الذي كان أميرًا، ولكنه معروف أكثر بالبوذا.

الفصل الخامس



من أمير إلى بوذا

بعد 1500 عام من اندفاع الفرسان الآريـين إلى الهند، وشروعهم في تطوير الديانة المعقدة، النابضة بالحياة التي ندعوها الآن بالهندوسية، فكر رجل في فزع بعقيدة التناسخ اللانهائي في هذه الديانة. سأل نفسه ما الذي كان يقيّد تلك النفوس على عجلة الانبعاث. ومن جوابه ظهرت حركة روحية جديدة. ولد حوالي عام 580 قبل الميلاد عند سفوح جبال الهيمالايا في شمال

شرق الهند، وكان اسمه سدهارتا جوتاما وهذه قصته.

ينتمي سدهارتا إلى الطبقة الاجتماعية (كاشتريا) المكونة من الحكام، والمحاربين. كان والده سودهودانا، ملك ساكياس في عمر الخمسين عاماً عندما أنجبت زوجته الملكة مايا ابنهما. درس سدهارتا، وهو طفل ورع، الكتب المقدسة للهندوسية

(الفيدا). وعلى الرغم من أنه كان أميرًا يعيش حياة ثرية، فقد ذكّره معلموه أنه، مثل أي شخص آخر، كان في خضم رحلة طويلة عبر العديد من الحيوات. وعندما كان في سن السادسة عشرة تزوج من الأميرة ياشودرا، وأنجبا ابنهما راهولا، وعاشِ سدهارتا حياة بذخ وأمان حتى سن التاسعة والعشرين، يلبي كلّ احتياجاته جيشٌ من الخدم. لكن في غضون أيام قليلة، غيّرت سلسلة من الأحداث حياته إلى الأبد، وأصبحت تعرف باسم قصة المشاهد الأربعة.

في اليوم الأول، رأى سدهارتا رجلاً هزيلاً يتلوى من الألم على الأرض وهو عائد من يوم صيد. سأل حارسه الشخصي تشانا عما به. فجاء الرد (إنه مريض)؛ فسأل الأمير (لماذا هو مريض؟)؛ (هذه، يا أمير، هي سنة الحياة، كل الناس يمرضون).

بدا الأمير مستغرقًا في التفكير لكنه لم يقل شيئًا.

في اليوم التالي صادف رجلاً عجوزًا بظهر منحنٍ مثل القوس، ينكس رأسه، وترتجف يداه، وكان يجد صعوبة في المشي حتى وهو يستند إلى عصا. سأل الأمير تشانا (هل هذا الرجل مريض؟)؛ (لا)، أجاب تشانا، (إنه كبير في السن، وهذا ما يحدث في الشيخوخة). بدا سدهارتا مستغرقًا في التفكير، ولكن مرة أخرى لم يقل شيئًا.

كان المشهد الثالث موكبًا جنائزيًا؛ يُنقَل فيه رجل ميت إلى منطقة الإحراق لتُحرَقَ جثته، حسب العرف الهندوسي، تتبعه أرملته وأولاده وهم يبكون. سأل سدهارتا تشانا عما كان

يحدث. فأوضح له «هذا هو طريق الأجساد كلها، سواء أكانتْ

أجساد أمراء أم فقراء، الموت سيأتي إلينا جميعًا». مرة أخرى
لم يقل سدهارتا أي شيء.

شهد سدهارتا ألم المرض، والشيخوخة، والموت. وتساءل

(ما سبب كل هذه المعاناة؟) كان قد درس كتب الفيدا، التي

لم تقلْ عن هذه المعاناة أكثرَ من أنّها قانون الحياة، قانون الكارما.

وبينما كان يجلس في قصره يفكر في هذه الأسرار، تسلل صوتُ

غناءٍ عبر نافذته. فلم يزده إلّا حزنًا، أدرك أن المتعة كانت عابرة،

تمنح الراحة، ولكن لا يمكن أن تفعل شيئًا لإبطاء اقتراب الموت.

في اليوم الرابع ذهب إلى السوق، وكان تشانا معه كالمعتاد.

ووسط المتسوقين والتجار الذين يوفرون احتياجاتهم، رأى

سدهارتا راهبًا يرتدي الرداء الخشن، ويتسول الطعام. كان

عجوزًا فقيرًا، لكن بدا سعيدًا، هادئًا. فسأل تشانا (أي نوع من الرجال هذا؟). أوضح تشانا أنه كان أحد الذين تركوا بيوتهم ليعيش مستغنيًا عن ممتلكاته، وكل ما تقدمه من خدمات.

عاد سدهارتا إلى قصره المرفه مستغرقًا في التفكير. في خلال تلك الليلة التي جفاه النوم فيها، واعتراه الاضطراب، حلّ فيه إدراكٌ مفادُهُ أن (الرغبة) في الشهوات كانت سبب المعاناة الإنسانية. لم يكن الرجال والنساء يرضون أبدًا بنصيبهم، ولا يشعرون بالسلام أبدًا. لقد تاقوا إلى كل ما لا يمتلكونه، وما أن يحققوا ما تمنوه حتى يتطلّعوا إلى تحقيق رغائب، وأمانٍ جديدة. كلما تمعن سدهارتا في الأمر، ازداد نفوره من الرغبة.

إنه مرض يصيب كل من يولد في هذا العالم ولا مفر من دوافعه التي لا تقاوم. وعلى الرغم من تمرده ضد الرغبة، كان سدهارتا أيضًا مليئًا بالتعاطف مع أولئك الذين تعذبهم رغباتهم. لذا قرر أن يساعدهم، ويبحث عن طريقة ليحررهم من براثنها حتى لا يولدوا مرة أخرى في عالم الألم هذا. وسيبحث عن حالة التنوير التي يمكن أن تُخلّص من دوران عجلة الانبعاث، وحينذاك سيقود المعذبين إلى الطريق الذي عثر عليه.

بعد أن اتخذ قراره، نهض سدهارتا من سريره. بعد أن همس وداعًا صامتًا لزوجته وابنه، استدعى تشانا ومضيا في الليل بمركبته التي سحبها الفحل كانثاكا. عندما وصلا إلى حافة الغابة ترجل سدهارتا من العربة، وبسيفه قطع شعره الأسود الطويل. أعطى الشعر إلى تشانا، وأرسله إلى القصر

ليظهره دليلاً على الحياة الجديدة التي بدأها، ثم قام بتبديل ثيابه باهظة الثمن بثياب متشرد، وانطلق في رحلته حاجّاً لا مأوى له. كان الأمير سدهارتا جوتاما يبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا عندما أصبح متسولاً. وهذه اللحظة في حكايته عرفت باسم التخلي العظيم.

هام على وجهه ستَّ سنوات، باحثًا عن أفضل طريقة للتطهّر من ألم الرغبة وتحقيق حالة التنوّر. قدم له الحكماء الذين قابلهم منهجين. كان أحدهما شكلاً شاقًا من التمارين العقلية التي صممت لانضباط العقل، وتهدئة شهواته. اتقن سدهارتا هذه الاساليب ووجدها نافعة، بيد أنها لم تقدم له التحرر النهائي،

أو حالة التنوير التي كان ينشدها. ترك المتأملين، ورحل حتى قابل فرقة من الرهبان الذين كانوا يمارسون التقشف الصارم. وأولئك أخبروه أنه كلما تماديت في إنكار جسدك أصبح عقلك أكثر صفاءً. إذا كنت تريد أن تحرر روحك يجب عليك تجويع جسدك. ثم شرع سدهارتا في برنامج إنكار الذات الذي قربه من الموت. قال عن نفسه في ذلك الوقت:

> حين كنت أعيش على فاكهة واحدة في اليوم نحُل جسدي... وأصبحت أطرافي مثل مفاصل متصلبة لزواحف هزيلة... ومثل العوارض الخشبية لسقف متداع كانت أضلعي الضعيفة... ولو تحسست بطني، لوجدتً عمودي الفقري في قبضتي.

اندهش مع نفسه: بالتأكيد إن كانت نظرية إماتة الجسد

هذه صحيحة لكنت وصلت إلى الاستنارة الآن لأنني اقتربت من حافة الموت. أضحى سدهارتا الآن ضعيفًا للغاية، عاجزًا عن سحب جسده أبعد من ذلك، فأغمي عليه. اعتقد أصدقاؤه أنه على وشك الموت، لكنه استرد عافيته. وعندما عاد إلى نفسه أخبر الرهبان أنه اتخذ قرارًا. فلم تجعله ستة أعوام من التأمل المكثف، والحرمان الصارم يقترب من حالة التنوير التي سعى إليها، لذا سيتوقف عن تجويع نفسه وتعذيبها. حزن الرهبان لإعلانه، فتركوه، واستمرّ سدهارتا وحده في طريقه.

وصل إلى شجرة التين البرية، وبينما كان يستريح تحتها اتخذ قرارًا. قال في نفسه إنه مهما جفّ جلدي، وضعفت أعصابي وعظامي، واستنزفت طاقتي، سأجلس هنا حتى أبلغ حالة التنوير. وبعد مضي سبعة أيام توصل إلى أن رغبته في تحرير نفسه من الشهوات كانت هي نفسها رغبة! وأدرك أن رغبته في التخلص من الشهوات كانت عقبة أمام تنويره. وكلما ترسخ معنى هذه البصيرة في داخله، اكتشف أنه الآن مجرد من الرغبة. فانتقل إلى حالة من النشوة التي (انتهى فيها الجهل، وانبثقت المعرفة، وانقشع الظلام، وبرز الضياء!) أدرك على الفور أنه (لا مزيد من الانبعاث، لقد عشت الحياة العليا. انتهت مهمتي، والآن لم يعد هذا الذي كنت عليه وجودًا. لقد توقف دوران عجلة الموت والولادة الجديدة بالنسبة لي). ثم أصبح بعدها البوذا،

(المستنير)، وعرفت هذه الليلة بالليلة المقدسة.

بعد ذلك ذهب للبحث عن الرهبان الذين خيّب ظنهم بتخليه عن اتباع طريقهم للتنوير. وجدهم في حديقة الغزلان في بيناريس، وهي مدينة تقع على ضفاف نهر الكنج في شمال الهند. وعلى الرغم من تركه لهم، استقبلوه بلباقة. رد سدهارتا على اتهامهم الرفيق أنه بالتخلي عن حياة إماتة الجسد بكبت الشهوات فقد خسر إمكانية التنوير. ويعرف رده باسم (خطبة دوران العجلة).

في هذا الحديث، سأل مرة أخرى السؤال الذي كان يطارده منذ أن غادر المنزل للبحث عن التنوير. ما الذي سيضع حدّاً

لدوران عجلة الموت والانبعاث التي قيدتنا إليها رغباتنا وشهواتنا؟ كان الجواب الذي قدمه هو أن المخرج كان في طريق الاعتدال بين نقيضين متطرفين، سماه (الطريق الوسط). «هناك نوعان من التطرف، يا رهبان، لتفاديهما. أحدهما حياة المتعة وشهواتها، وهذه حياة مهينة، وبلا فائدة. والآخر هو حياة تعذيب الذات، وهي مؤلمة، وبلا فائدة أيضًا. ومن خلال تجنب هذين النقيضين نحصل على الطريق الوسط الذي يؤدي إلى التنوير».

تمثلت معالم الطريق الوسط في الحقائق الأربع النبيلة: الحياة معاناة. المعاناة سببها الشهوة. المعاناة من الممكن أن تنتهي. يوجد طريق يقود إلى نهاية المعاناة، وهو اتباع الطريق النبيل بمحطّاته الثماني.

كان بوذا رجلاً عمليًا، رجل فعل. والسمة القوية التي

تميز الأشخاص العمليين هي حبهم للفعل، يسجلون الأشياء التي يجب القيام بها، والأشياء التي يجب تذكرها، والأشياء التي يريدون جلبها من السوق. إليكم قائمة بوذا بعناصرها الثمانية التي تقودنا إلى القضاء على الرغبة التي تسبب المعاناة: الرؤية السليمة، النيّة السليمة، الكلام السليم، الفعل السليم، كسب الرزق السليم، الجهد السليم، الوعي السليم، والتركيز السليم. تجد الرؤية السليمة والنية السليمة الطريق الوسط وتتبعانه. ومن ثم يأتي قرار عدم الافتراء على الآخرين، أو استخدام لغة فظة. والأهم من ذلك هو رفض السرقة، أو القتل، أو فعل أي أمر مخجل، وتجنب المهن التى تسبب الضرر للآخرين.

البوذية هي ممارسة، وليست عقيدة. إنها أمر يجب القيام به بدلاً من الإيمان به، ويكمن مفتاح فاعليتها في السيطرة على شهوات العقل المضطرب من خلال التأمل. فعبر الجلوس بهدوء ومراقبة طريقة التنفس، والتأمل في كلمة، أو زهرة، ينتقل الممارسون، عبر مستويات مختلفة من الوعي، إلى السكون الذي يقلل رغبة الاشتهاء. كان بوذا سيتفق مع رؤية المتأمل الفرنسي بليز باسكال في القرن السابع عشر: كل الشرّ في الإنسان ينبع من سبب واحد، هو عدم قدرته على الجلوس ساكنًا في حجرة!

بعد أن اقتنع الرهبان بعرض بوذا للطريق الوسط، صاروا أتباعًا له، وولدت (السانغا) وهي مجتمع الرهبان والراهبات البوذيين. على الرغم من أن تعاليم بوذا لم تفرض أي عقيدة، إلّا أنها استندت إلى فرضيتين من الدين الهندي، الكارما، والسامسارا: قانون الفعل الذي يؤدي إلى ملايين من إعادة الولادات. لقد

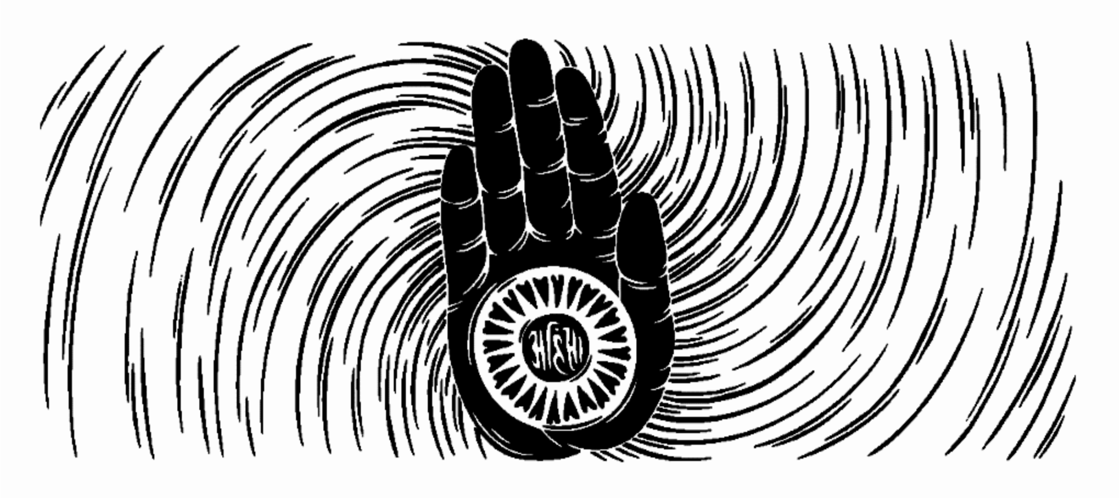
علّم أن أسرع طريقة لإيقاف دوران عجلة الانبعاث هو أن يصبح البوذي راهبًا، وأن يمارس الضوابط التي تؤدي به إلى التنوير. ولكن إذا لم يسمح وضعه بذلك، فأفضل ما يفعله هو أن يعيش حياة أخلاقية على أمل أن يتمكن في المرة القادمة من الوصول إلى حالة تمكنه فيها من ارتداء رداء الراهب أو الراهبة ذي اللون الأصفر.

بعد خطبته في بيناريس هذه بعمر 45 سنة، استمر بوذا في السفر، وتعزيز نظامه من الرهبان والراهبات، (السانغا). وعند اقترابه من الموت، أخبر أتباعه أن رحيله عنهم لا يحمل

أهمية لأن تعاليمه هي التي ستبقى، وأن التعاليم هي الأهم.

قام الأمير الذي أصبح بوذا برحلته الأخيرة إلى بلدة شمال شرق بيناريس. شعر بالمرض، استلقى بين شجرتين ومات، وكان عمره ثمانين عامًا. انتشرت الديانة التي أسسها سدهارتا جوتاما في جميع أنحاء آسيا، وبمرور الوقت تحولت إلى ديانة عالمية، لكنها نادرًا ما توجد اليوم في الأرض التي ولدت فيها. على عكس الديانة الجاينية، التي قلما توجد في أي مكان آخر، وسننتقل إليها بعد ذلك.

الفصل السادس



لا تؤذِ أحداً

الجاينية، حالها حال البوذية، هي إجابة عن السؤال الذي تطرحه الهندوسية على البشرية. إذا كان وجودنا الحالي هو آخر الحيوات الكثيرة التي سنقودها، لأن الكارما قد أقفلت علينا في عجلة الانبعاث، فكيف يمكننا تحرير أنفسنا، والهروب إلى حالة تسمى السكينة (النيرفانا) وهي كلمة سنسكريتية تعني (الانطفاء)، أو (الإخماد). حيث تنطفئ مثل الشمعة. إذ إن مفهوم النيرفانا

في البوذية الجاينية هي حالة الخلو من المعاناة، وادراك الوحدة مع الكون. وهي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق، ليتم (إخماد) كل الرغبات، ويتحول الإنسان فيها إلى حالة (السكينة)، ويصبح منفصلاً تماماً بذهنه وجسده عن العالم الخارجى، والهدف من ذلك هو شحن

طاقات الروح من أجل تحقيق السعادة (القصوى). ويتحقق ذلك عندما تهرب الروح في النهاية من عجلة الموت والولادة (السامسارا). كان جواب بوذا هو العثور على طريق وسط بين الطرفين. ذهبت الجاينية في الاتجاه المعاكس. اختارت الطريقة الأكثر تطرفًا، مسار إنكار الذات الشديد، وأفضل أمثلتها على ذلك هو ارتكاب أتباعها لفعل (الساليخانا)، وهو الصوم لتجويع أنفسهم حتى الموت.

تأتي كلمة الجاينية من فعل في اللغة السنسكريتية الذي يعني (ينتصر على)، وهي تشير إلى المعركة التي شنها الجاينيون ضد طبيعتهم للوصول إلى التنوير الذي يجلب الخلاص. وفي تقليد هذه الديانة استطاع أربعة وعشرون من (الجاينيين) أو المنتصرين فقط الوصول إلى مثل هذا التحكم برغباتهم، وحققوا مرحلة التنوير.

أصبحوا معروفين باسم تيرثانكارا، ويعني صانعي الإله، بسبب قدرتهم على قيادة الأرواح عبر نهر التناسخ إلى الخلاص على الجانب الآخر. آخر هؤلاء التيرثانكارا وصف بأنه (مؤسس الجاينية. كان اسمه فاردامانا، على الرغم من أنه كان يعرف باسم مهافيرا، أو البطل العظيم. تخبرنا التقاليد أنه ولد نحو عام 599 قبل الميلاد في حوض نهر الكنج في شرق الهند، وهي المنطقة التي شهدت أيضًا ميلاد سدهارتا جوتاما الذي أصبح البوذا.

كان للماهافيرا قواسم مشتركة مع بوذا أكثر من الجغرافيا، والتسلسل الزمني الذي يجمعهما، إذ كان هو الآخر أميرًا، ومستغرقاً بمشكلة المعاناة وأسبابها، كما تخلى عن حياة موسرة

للبحث عن التنوير. اتفق مع بوذا في أن الرغبة هي سبب المعاناة. يشعر الناس بالتعاسة لأنهم يتوقون إلى ما لا يمتلكونه، لكن ما أن يحصلوا على ما تلهفوا إليه حتى يشتاقوا إلى شيء آخر. يترتب على ذلك أنه بما أن الرغبة هي سبب المعاناة، فإن إطفاءها يمكن أن ينقذنا. الطريقة التي قام بها بإطفاء الرغبة أظهرت كم كانت شخصية ماهافيرا شخصية ثورية. قال إن التحرر من عجلة الانبعاث لا يمكن أن يتحقق إلّا بتجنب الشر، والقيام بالعمل الصالح. كان مثل بوذا محبًا لكتابة القوائم، فقام بتلخيص طريقته في الوصايا الخمس: لا تقتل، أو تضر أي كائن حي، لا تسرق، لا تكذب، لا تحيَ حياة الفجور، أو حياة غير منضبطة، لا تشتهِ شيئًا، أو ترغب فيه.

للوهلة الأولى لا يبدو أن هناك شيئًا جديدًا في هذه القواعد،

فالعديد من الأنظمة الأخرى تقدم القائمة ذاتها. لكن ما هو مميز في الديانة الجاينية هو العمق الذي تعطيه لوصية مهافيرا الأولى بعدم قتل، أو إيذاء الكائنات الأخرى. فالسمة الرئيسة لتعاليمه هي (أهيمسا)، أو اللاعنف، التي يجعلها سمة مطلقة وعالمية. فعبر اللاعنف المطلق فحسب يمكن للذين يبحثون عن الخلاص أن يغيروا الكارما التي تقيدهم إلى عجلة الانبعاث.

رهبان هذه الديانة وراهباتها لا يؤذون، أو يقتلون أي (كائن حي)، فهم لا يقتلون الحيوانات من أجل الطعام، ولا يصطادونها، أو يصطادون السمك. كما أنهم لا يضربون البعوض الذي يعضهم على وجناتهم، أو النحلة التى تقرصهم من رقبتهم، وإذا ما عثروا

على عنكبوت، أو أي حشرة أخرى غير مرغوب فيها في المنزل فإنهم لا يقومون بسحقها. إذا لم يرغبوا بوجودها، يلتقطونها بحرص كي لا يؤذوها، ثم يطلقونها بوقار في الهواء الطلق. كانوا يسيرون بتؤدة على الأرض المليئة بالمخلوقات الحيّة الصغيرة، كي لا يلحقوا الأذى بها. ويقوم الجاينيون بصنع مكنسة من الريش الناعم لينظفوا بها طريقهم خشية أن تطأ أقدامهم الثقيلة شيئًا فيه روح. وكان بعضهم يرتدي أقنعة يتنفس من خلالها خوفًا من استنشاق أي كائن حي عالق في الهواء. وانسحب تقديسهم واحترامهم لأشكال الحياة برمتها حتى إلى الخضروات، لأنهم يرون أن اقتلاعها من الأرض يقطع جذورها على نحو عنيف، لذا لا يأكلونها لأنها مخلوقات ذوات قيمة مثلها مثل البشر.

فإذا لم يأكلوا اللحوم، أو السمك، أو الخضار، فكيف

استطاع الجاينيون البقاء على قيد الحياة؟ بعضهم اختار بالفعل عدم القيام بذلك. فـ (الساليخانا) أو الانتحار جوعًا، كان أفضل مثال على ذلك، فهو علامة على إخماد رغبات النفس، وتحريرها النهائي من الكارما. لكن يجب أن نفكر في الأمر قليلاً لندرك أن الانتحار لم يكن من المرجح أن يتحول إلى ممارسة عالمية، حتى بين الجاينيين. تتمتع الأديان جميعها بمستويات مختلفة من الشدّة، من الحالات المثيرة المعروفة للمتعصبين إلى الشعائر الدينية العرضية التي تعوزها الحماسة. على الرغم من أن الجاينية واحدة من أكثر الديانات إثارة للجدل في التاريخ، فلها أيضًا مستويات مختلفة الحالات بين ممارسيها. فمعظم الجاينيين لم يجوّعوا أنفسهم حتى

الموت، بيد أن ما فعلوه كان متطرفًا بما فيه الكفاية. لقد عاشوا على الفاكهة، ولكن تلك التي سقطت على الأرض فحسب. كان الجاينيون آكلي فاكهة متطرفين، أمدوا أنفسهم بأسباب الحياة عن طريق تقييد أنفسهم بأكل ما تسقطه الريح من الشجر، لا غير، كي لا يضروا بأي شكل آخر من أشكال الحياة.

وبصرف النظر عن إيمان الجاينية بقدسية أشكال الحياة كافة، فإنها بالكاد تثقل نفسها بنظرية دينية، فلا وجود للإله، أو الخالق الأسمى في نظامها، ورفضت الممارسات القاسية للنظام الاجتماعي الطبقي. لكن طريقها إلى الخلاص كان يستند إلى خريطة دقيقة للكون، فهي تعتقد أن الكون يتكون من مجالين هائلين مرتبطين ببعضهما من منطقتهما الصغيرة المخصّرة. ولتكوين صورة عنه، تخيل ربط عقدة في منتصف بالونة منفوخة، وتحويلها إلى قسمين

متصلين بواسطة العقدة التي تبدو مثل خاصرة. في الديانة الجاينية تمثل العقدة في الوسط عالمنا، حيث تقضي الأرواح زمنها في عجلة الانبعاث. ومثلما ترى أن تناول الكثير من الطعام يجعل من أجسامهم ثقيلة يجرجرونها بصعوبة، اعتقدت أن السلوك السيّئ يثقل الروح، ويجعل من الصعب التخلص من عجلة الانبعاث. فالأرواح التي قامت بأعمال سيئة في الحياة ستولد في المرة القادمة على هيئة أدنى، قد تكون ثعبانًا، أو ضفدعًا، وربما حتى جزرةً، أو بصلة. والأرواح التي عاشت حياة محورها الشر حقًا تصبح ثقيلةً إلى الحد الذي يسقطها وزنها في طبقة الجحيم

السابعة، أي في القاع السفلي للجحيم الأكثر فظاعة في تعذيبه من الطبقة التي فوقه.

وبنفس القانون، تصبح الأرواح التي طهّرت نفسها من الخطيئة أخف وزنًا كلما زاد كفاحها صرامة. يمارس الجاينيون المتفانون في عبادتهم ما يسمى (بالزهد المتطرف)، وهي كلمة مشتقة من ألعاب القوى اليونانية التي تعني أن يتدرب المرء بصرامة بحيث يتفوق على الآخرين في هذا المجال. فكبار الرياضيين في الجاينية، يبذلون جهدهم ليتطهروا وتصبح أرواحهم خفيفة بما يكفي لتطفو أعلى وأعلى خلال السماوات العليا. وعندما يصلون إلى السماء السادسة والعشرين يكونون عندها قد وصلوا إلى حالة السكينة (النيرفانا)، وهي نهاية لكل كفاحهم، عندها يبقون خالدين في نعيم ساكن. إنه الخلاص أخيرًا!

جانب آخر مثير للاهتمام من هذه الديانة هو الطريقة التي وسعت بها كفاحها لتحقق انعدام الوزن في عالم الأفكار. فيمكن للأفكار السيئة، حالها حال الأفعال السيئة، أن تثقل كاهل الروح. وبلا شك يبين التأريخ أن الخلاف على الأفكار، بما في ذلك الأفكار الدينية، هو أحد الأسباب الرئيسة للعنف بين البشر. يطبق الجاينيون عقيدة أهميسا، أو اللاعنف على منهج الأفكار الذي قدموه للناس كما طبقوها على أجسادهم. فحتى في الحياة الفكرية، لم يكونوا يفكرون بأي فكرة مؤذية، أو عنيفة. لقد احترموا طرق البشر المختلفة في فهم الواقع وتجربته، مع إدراكهم أنه لا أحد قد فهمه فهمًا كاملاً من قبل.

دعوا هذه العقيدة بعقيدة الاحترام (أنيكانتافا). ولتفسيرها، رووا قصة عن ستة عميان دعوهم لوصف فيل عن طريق تلمس أجزاء مختلفة من جسمه. قال الرجل الأول الذي لمس الساق إن الفيل يشبه عمودًا كبيرًا. وتقدم الثاني، وشد الذيل، وقال ما هو إلّا حبل. ووضع الثالث يده على جذع الفيل وصاح إنه فرع شجرة. ومن تحسس الأذن ظن أن الفيل مروحة يد. أما الخامس الذي نقل يديه على بطنه فقد قال إن هذا ما هو إلّا جدار. واقترب السادس، ولمس الناب فقال إن الفيل مثل أنبوب صلب. أخبرهم معلمهم أنهم جميعًا على صواب في وصفهم للفيل، بيد أن كل منهم لم يدرك سوى جزء من الحقيقة، وليس كلها. يمثل مغزى هذه القصة حقيقة أن البشر كانوا جميعًا محدودين في فهمهم للواقع. قد لا يكونون عميانًا تمامًا عنه، لكنهم لا يستطيعون رؤيته إلّا من زاوية واحدة. فلا بأس بذلك طالما أنهم لا يدعون

أن وجهة نظرهم هي الصورة الكاملة، ويرغمون الآخرين على تبنيها لرؤية الأشياء من خلالها.

يرى الجانيون أن معرفتنا المحدودة كانت نتيجة الزيف الذي علقنا به في وجودنا المنهار، ولا يصل إلى المعرفة الكاملة إلّا من وصلوا إلى مرحلة التنوير. ومهما كان رأينا في النواحي الأخرى من هذه الديانة، فإن تشجيعها للتواضع الروحي يعد سمة نادرة في الدين. فالأديان تحب أن تعتقد أن كلمتها هي الكلمة العليا على الأشياء، وترفض فكرة أن جميعها أشبه بالمتسولين المكفوفين الذين يتجادلون بشأن شكل الفيل.

سافر ماهافيرا عبر الهند ليبشر برسالته، ويجذب الأتباع إليه. وعند موته بسبب التجويع الذاتي في عام 527 قبل الميلاد، في عمر السبعين عاما، بلغ أتباعه أربعة عشر ألف راهب، وستة وثلاثين ألف راهبة. ويمثل الرهبان والراهبات الرياضيين الحقيقيين للجاينية، إذ تدربوا تدريبًا قاسياً ليصلوا إلى خفة الكائن التي تحقق لهم السعادة القصوى (النيرفانا) في حياتهم الآنية. وجمعوا خطب ماهافيرا كلها حول اللاعنف، وتقديس أشكال الحياة كلها في كتابهم المقدس (الآجاما Agamas).

تنقسم معظم الأديان على طوائف مختلفة حالما يجري تأسيسها، وتدعي كل طائفة أنها النسخة الحقيقية للنبي، أو المعلم الأصلي. والديانة الجاينية ليست استثناءً؛ فقد انقسمت على طائفتين، بيد أن اختلافاتهما كانت معتدلة، وفي الواقع محببة حقًا. أصرت

إحدى الطائفتين، التي أطلقت على نفسها اسم (ديغامباراس) (التي تعني الاكتساء بالسماء)، على أنه لا ينبغي على الرهبان، والراهبات ارتداء أي ملابس. بينما سمحت لهم الطائفة الأخرى، (سفيتامباراس) (وتعني الاكتساء بالأبيض) بارتداء أردية بيض.

بالإضافة إلى رهبانها وراهباتها، ما يزال لدى الجاينية الملايين من الأتباع العاديين في الهند. على الرغم من أن رهبانها وراهباتها هم رياضيوها الحقيقيون، إلّا أن أفرادها العاديين يعيشون حياة بسيطة بقدر ما تسمح به مكانتهم في المجتمع، فهم لا يتوقعون الوصول إلى السماء السادسة والعشرين في مسار حياة واحدة من الكفاح، لكنهم يأملون في أن حياتهم

الحالية حياة التسامح، واللاعنف ستضمن لهم مكانة راهب، أو راهبة في الجولة القادمة، وسيصلون بعد تلك الحياة أخيرًا إلى السكينة (النيرفانا).

بالنظر إلى طبيعة الديانة الجاينية، فإنها لن تصبح دينًا جماعيًا أبدًا، على الرغم من كونها ديانة مؤثرة. فهي تقدم لنا اختلافًا مثيرًا للاهتمام، ففي الوقت الذي لا تستميل فيه الممارسات المتطرفة إلّا الأقلية، يمكن أن يكون لها تأثير في رأي الأغلبية لتلطيف مواقفها. لقد ساهم تفكير الجاينيين في قدسية كل ما فيه روح في الحركة النباتية بأشكالها المختلفة، وكان لعقيدة (أهيمسا)، أو اللاعنف تأثير كبير في السياسة، إذ أثرت في المهاتما غاندي، المحامي الذي قاد حملة الاستقلال عن الحكم البريطاني في الهند في النصف الأول من القرن العشرين، وأثرت في مارتن لوثر كينغ، الواعظ المسيحي الذي قاد حملة الحقوق المدنية للأميركيين

الأفارقة في الولايات المتحدة في النصف الثاني من هذا القرن.

وما زالت الجاينية تطرح أمامنا حقيقة أن الرغبة هي سبب الكثير من المعاناة الإنسانية، وأن سعادتنا ورضانا يكمنان في تعلم السيطرة عليها فحسب. قلة منا تريد اختيار طائفة (الاكتساء بالسماء)، أو تجويع النفس حتى الموت، لكننا نسعى وراء الاستبصار المستمد من هؤلاء الذين، فعلاً، قد يحثّوننا جميعًا على أن نعيش حياة أكثر بساطة بقليل.

أشرت في بداية هذا الكتاب إلى أنه سيكون من المستحيل اتباع مسار زمني صارم فِي تعقب ظهور الأديان المختلفة، كان ذلك

لأن المكان لا يقل أهمية عن الزمان في هذه القصة. فقد حدثت وقائع مختلفة في الوقت نفسه وفي أماكن مختلفة، لذلك علينا أن نتخذ مسارًا متعرجًا عبر التاريخ. في الفصل التالي، سوف نتراجع في الزمن إلى بضع مئات من السنين بعد غزو الآريين للهند، ونعرج إلى الغرب بدلاً من ذلك للنظر إلى أحد أهم الشخصيات في تاريخ الدين، وهو شخصية غامضة تدعى إبراهيم.

الفصل السابع



الهائم

(أور). إنها كلمة قصيرة من ثلاثة أحرف، حرفاها الأولان يُنطقان بتدوير الحرف (أوو)، وينطق حرف (ر) بالطريقة التى ينطقه بها الاسكتلنديون هي - أورررر. ذلكم هو المكان الذي ولدت فيه واحدة من أهم الشخصيات في تاريخ الدين نحو عام 1800 قبل الميلاد: الأب الجليل إبراهيم، الذي يدّعي اليهود والمسيحيون والمسلمون أنه الأب المؤسس لهم. تخيّل جدول ماء

صغيرًا ينضح من جبل بعيد ليتحول إلى ثلاثة أنهار هائلة على بعد أميال من الأرض في سهل واسع، وستفهم الفكرة. تقع أور في الجنوب الشرقي من بلاد ما بين النهرين، وهو الاسم اليوناني الذي يعني (بين نهرين)، أي نهر دجلة والفرات. توجد أور في البلد الذى نسميه الآن العراق.

وفقا للقصة التي وصلت إلينا في الكتاب المقدس في سفر التكوين، كان إبراهيم بن تارح، وله أخان، ناحور وهاران. هناك دليل تعليم قديم للكتاب المقدس باللغة العبرية يحتوي على المزيد من القصص عنهم، فهو يروي أنهم كانوا رعاة، يرعون الأغنام في المروج الخضراء في وادي الفرات. وكان لتارح عمل إضافي مربح، فهو ينحت تماثيل أو أصنامًا للآلهة التي يعبدها الناس في المنطقة.

لبلاد ما بين النهرين أربعة آلهة أعْلين: آنو إله السماء، وكي ربة الأرض، وإنليل إله الهواء، وإكي إله الماء، كما عبدوا الشمس والقمر. وهنا يجدر الانتباه إلى أن الأديان القديمة عبّرت تلقائيًا عن قوى الطبيعة بوصفها قوى مقدسة.

ومثل سكان الهند، أراد سكان بلاد ما بين النهرين أن

ينظروا إلى شيء أكبر وهم يعبدون الآلهة، وكان تارح سعيدًا لإجبارهم على شراء الأوثان من ورشته. في أحد الأيام تغيّب عن الورشة وكان إبراهيم مسؤولاً عن العمل، جاء رجل عجوز لشراء صنم. سأله إبراهيم (كم عمرك؟) فأجاب الرجل العجوز (سبعون). فرد إبراهيم (إذن فأنت غبي)، «لقد وُلدت قبل سبعة عقود، ومع ذلك تعبد صنمًا تم نحتُهُ في الورشة في الجزء الخلفي من هذا المتجر بالأمس فقط!». تفكر الرجل العجوز للحظة، ورفض الشراء، واسترد ماله وترك المتجر.

غضب أشقاؤه عندما سمعوا ما حدث، وحذروا والدهم من أن إبراهيم يُعرّض أعمال العائلة للخطر مع آرائه السّديدة.

لذا منع تارح إبراهيم من أن يكون في مقدمة المتجر وأمره بدلًا من ذلك أن يقوم بتلقي الهدايا التي يقدمها الزبائن إلى آلهتهم المفضلة في الحجرة التي كانت تعرض فيها. وفي يوم جاءت امرأة بهدية من الطعام لأحد الآلهة. وبدلًا من تقديم الطعام إلى الصنم كما جرت عليه العادة، سخر إبراهيم منها وقال: «لديه فم لا بأس به، لكنه لا يستطيع أن يأكل لا الوجبة التي أعددتها له ولا أن يقول شكرًا لك فيما بعد، ولديه يدان، لكنهما عاجزتان عن التقاط لقمة واحدة من الطعام الذي وضعته أمامه، وعلى الرغم من أن قدميه منحوتتان نحتًا رائعًا، لا يمكنه أن يخطو خطوة واحدة تجاهك. فيما يتعلق بي، أجد أن من صنعوه ومن يعبدونه أغبياء وبلا فائدة مثل الصنم نفسه».

كان هذا حديثًا خطيرًا لسببين، فتحدي الدين الراسخ

في مجتمع ما ليس أمرًا شائعًا على الإطلاق، لكن ما زاد الأمر سوءًا أن هذا النقد هدّد الاقتصاد المحلي أيضًا. فهذا المجتمع كان يعبد العديد من الآلهة، وصناعة تماثيل لها كانت صناعة مربحة. أوقع إبراهيم نفسه في ورطة. وكان أكثر الأشياء أمانا لفعله هو المغادرة. من هذه اللحظة أصبح هائمًا مسافرًا مسافات طويلة مع عائلته وقطعانهم، بيد أن التاريخ الديني هو من صنع رحلته الروحية.

تمثل قصة إبراهيم بداية التحول من الشرك إلى التوحيد، من العبادة المريحة للعديد من الآلهة إلى الالتزام الصارم بدين واحد. ما الذي دفع إبراهيم؟ لماذا كان غاضبًا جدًا من تلك

التماثيل الصغيرة غير الضارة في متجر والده؟ علينا أن نستخدم مخيلتنا للولوج إلى عقل إبراهيم، غير أن من السهل استنتاج جزء مما كان يحدث هناك. لقد راقب والده ينحت هذه التماثيل الصغيرة، وعرف المواد التي نُحِتَتْ منها. فكيف يمكن له أن يعدها أيَّ شيء آخر غير لعب يلهو بها الناس؟ لكن لماذا لم يهز كتفيه على مدى سذاجة الناس فحسب، ويمضي قُدُما؟ لماذا ثار غضبه لهذه الدرجة؟

ذلك لأنه كان نبيًا سمع صوت الله يتكلم معه في رأسه. حذّره الصوت من أن عبادة هذه الآلهة ليست مجرد لعبة يتسلى الناس بها ولا عمل توفره لصانعي التماثيل، إنها ترتكز على كذبة رهيبة وخطيرة. كان ثمة إله واحد فقط! لم يقتصر إبراهيم على ازدراء الأصنام وتماثيل الآلهة، وإنما كره المجتمع الذي عبدها،

لأنه منع أبناءَه من معرفة والدهم. ومثل والد سرق الغرباء أبناءَه، أراد استرجاعهم ومعاقبة الخاطفين.

هذه نقطة تحول مهمة في التأريخ الإنساني تستحق التوقف والتفكير فيها ثانيةً. من الواضح من تأريخنا أن البشر بارعون في كره بعضهم بعضًا. وعادة ما يصبح أولئك الذين يختلفون عنا بطريقة ما هدفًا لكراهيتنا. فالعرق، أو الطبقة، أو اللون، أو الجنس، أو السياسة، أو حتى لون الشعر يمكن أن يَحثّ سلوكًا بغيضًا فينا، ويمكن للدين أن يفعل الأمر نفسه. وفي الحقيقة، إن الكراهية الدينية على الأرجح هي الشكل الأكثر فتكًا من هذا المرض الذي يصيب الإنسان، لأنها تعطى لحقد الإنسان تبريرًا

إلهيًا. أن تكره الناس لأنك لا تحب آراءَهم شيء، وأن تقول إن الله يكرههم، ويريد القضاء عليهم شيء آخر. والأمر الجدير بالملاحظة هو كيف يمكن للإدانة الدينية المتشددة أن تضيف عنصرًا خطيرًا للعلاقات الإنسانية - كما ستذكرنا واقعة أخرى في قصة إبراهيم.

لم يأمر الصوت إبراهيم أن يكره الأصنام حسب، وإنما أمره بمغادرة بلد أبيه والهجرة إلى أرض أخرى ستصبح أمة عظيمة في الوقت المناسب. ويروي لنا سفر التكوين أن إبراهيم انطلق مع أسرته، وقطعانهم ومواشيهم، وسافر غربًا عبر الفرات حتى جاء إلى أرض كنعان. تقع كنعان، المعروفة اليوم بإسرائيل أو فلسطين، على الحافة الشرقية للبحر الكبير، الذي نسميه الآن البحر الأبيض المتوسط. لم يستقر إبراهيم على الساحل بل في

الداخل على طول سلسلة هضاب كلسية التي تشكل العمود الفقري للبلاد. وهناك ازدهرت عائلته مع قطعانهم وماشيتهم.

وفي يوم تحدث الصوت في رأس إبراهيم إليه مرة أخرى، وطلب منه أن يأخذ ابنه إسحاق إلى جبل محلي ويقدمه أضحية إلى الله. اعتاد إبراهيم على قتل الحيوانات وحرقها أضاحيَ لله، ولكن لم يسبق له أن أمر بقتل أحد أبنائه. لم يجرؤ على التشكيك بالأمر، نهض مبكرًا في صباح اليوم التالي، وربط كومة من الحطب فوق حماره، وانطلق مع ابنه واثنين من الشباب. عندما وصل إلى سفح الجبل أخبر الشابين أن يبقيا في الخلف ويحرسا الحمار. وقيّد كومة الحطب على ظهر إسحاق، وأوقد شعلة ملتهبة، ودَسّ سكينًا

حادًا في حزامه، وانطلقا إلى الجبل. وبينما كانا يسيران مجهدين على الطريق، كلم إسحاق أباه قائلاً: «لديك نار وسكين جاهزان للتضحية يا أبتاه، لكن أين الحيوان الذي ستذبحه؟ »، أجاب إبراهيم: «لا تقلق يا بني، سيوفر الله ما نحتاجه ».

وعندما وصلا المكان فوق الجبل حيث كان من المفترض أن يقدم ابنه قربانا رتّب إبراهيم بعض الأحجار ليعمل بديلاً مؤقتًا للمذبح وفرش الحطب فوقه. ثم أمسك ابنه المرتعش وربطه إلى الحطب ووجهه إلى الأسفل. أمسك بشعر إسحاق الطويل وسحب رأسه للخلف ليكشف عن رقبته ثم سحب السكين من حزامه وكان على وشك ذبح حنجرة ابنه حين دعاه الصوت في رأسه مرة أخرى.

وقال لإبراهيم (لا تذبح ابنك). إن استعدادك لقتله بناءً

على أمري يثبت أن ولاءك لي أقوى من عواطفك الإنسانية. لذلك سوف أحافظ على حياة ابنك. أنزل إبراهيم السكين وهو يرتعش متشنجًا. ثم وقعت عيناه على كبش عَلِقَ قرناه في شجيرة، وفي حالة من الارتياح ذبحه وقدمه قربانًا إلى الله على المذبح بدلًا من ابنه. لم يرووا لنا أبدًا ما كان موقف إسحق في هذا المشهد المرعب على جبل موريا، لكن ليس من الصعب تخيله.

نعلم أن التضحية بالبشر كانت تمارس في بعض الأديان المبكرة، وليس من الصعب أن نفهم كيف بدأت. إذا كان يُنظر إلى الآلهة على أنها حكام متقلبو المزاج يجب أن تكسبهم إلى جانبك، فيمكنك أن تعرف كيف يمكن للعقل البدائى أن يخلص إلى أن

تقديم البشر قرابين بين الحين والآخر، إضافة إلى إعطائهم أفضل الحيوانات، قد يجعلهم ينالون رضاهم. ربما تردد صدى بعيد لذلك التاريخ القاتم في قصة إبراهيم وإسحاق. ولكن لم تفسر الأديان التقليدية من اليهودية، والمسيحية، والإسلام القصة على هذا النحو، وهي نص أساسي في كل منها. فما الذي تمثله لهم غير أن الخضوع المطلق لإرادة الله يعلو على كل الروابط الدنيوية؟ إذا كنا سنحكم الآن بالجنون على رجل ادعى أن الله أخبره أن يقتل ابنه - حتى لو تراجع في اللحظة الأخيرة - فهذا لا يعني أن علينا أن نجزم أن الدين برمته حالة من الجنون. غير أنه سيكون من الحكمة وضع علامة استفهام أمام بعض ادعاءاته بينما نتابع قصصه عبر الزمن. فالخطر الذي لاحظناه هنا هو الميل لإعطاء قدر كبير من السلطة لصوت الله الذي يتكلم داخل العقل

البشري، وكراهية إبراهيم للأوثان دليل جيد هنا.

تابعنا تفكيره وهو ينبذ الأصنام لكونها من صنع البشر فكان من السخف أن تعامل على أنها مقدسة، لكن ألّا تكون (أفكارنا) عن الله اختراعات بشرية أيضًا؟ ربما لم نكن قد صنعناها بأيدينا من قطع الخشب والحجر، لكننا شكّلناها في أذهاننا من خلال الكلمات والأفكار. يجب أن يجعلنا ذلك نتوخى الحذر من الادعاءات حولها. فقد رأينا بالفعل مدى الخطورة التي يمكن أن يكون عليها بعضها، ففكرة الآلهة التي قد تطلب منا أن نضحي بأبنائنا من أجلها تبين أن الدين يمكن أن يكون عدوًا للمجتمع الإنساني. فاختبار الله لإبراهام يثبتُ، إذا لم يكن هناك

شيء آخر، أنه يمكن للبشر إقناع أنفسهم أن يفعلوا أي شيء تقريبًا إذا اعتقدوا أن الأمر قد جاء من (الأعلى). وقد جرى فعل كل شيء تقريبًا باسم الدين في وقت، أو في آخر.

لقد قلت إن قصة إبراهيم كانت نقطة تحوّل في تاريخ الدين، فقد حوّلت رجالاً ونساءً من الشرك إلى التوحيد وإلى فكرة الإله الواحد. وأظهرت أن الأديان لم تكن ثابتة أبدًا، فهي دائمة التطور والتغير. كان الدين صورة متحركة ولهذا السبب فإن إبراهيم شخصية مقنعة في تحوّله، وتغيير اتجاهاته ليس على وجه الأرض فحسب، بل في عقله أيضًا. فالقدرة على التحول وتغيير الاتجاه هي علامة من علامات البشر المثيرين للاهتمام جميعًا، وهي مفتاح من مفاتيح فهم الدين.

كان إبراهيم هائمًا، وبعد موته استمر أتباعه يهاجرون

كما يفعل الناس دائمًا للبحث عن حياة أفضل. تقول القصة عانت بعض الأجيال بعد وفاة إبراهيم من مجاعة كبرى حلّت بأرض كنعان ودفعت أبناء سلالته إلى السير على الطريق مرة أخرى. في هذه المرة ذهبوا جنوبًا عبر نهر عظيم آخر إلى مصر، حيث يبتدئ الفصل التالي من تاريخهم، وفيه سوف نتعرف على موسى.

الفصل الثامن



بين أعشاب النهر

اقترب إسحاق بن إبراهيم من الموت بأمر الصوت الذي تردد في رأس أبيه، ونجا ليصبح أبًا هو الآخر. سمع يعقوب بن إسحاق، مثل جده من قبله، صوت الله يخاطبه. أخبره أنه لم يعد يُدعى يعقوب، واسمه الجديد هو إسرائيل، بمعنى (الحكم لله). فدعا أبناءه الاثني عشر بأبناء إسرائيل أو بني إسرائيل. ومثله مثل جده إبراهيم، كان يعقوب، الذي يدعى إسرائيل الآن،

راعيًا متجولاً، قاد قطعانه من مكان إلى مكان بحثًا عن ماء، ومرعى أخضر. على مرّ السنين ازداد عدد بني إسرائيل ليكونوا قبيلةً قادرة على الصمود أمام القبائل الأخرى، والتنافس معها للحصول على أفضل المراعى والآبار الوفيرة المياه.

ولكن في الوقت الذي عمت فيه مجاعة كبيرة أرض كنعان، وذبلت الأعشاب وجفت الآبار، قرر بنو إسرائيل، كما فعل الناس منذ بداية الخليقة، أن من الأفضل لهم أن يجربوا حظهم في مكان آخر. فهاجروا جنوبًا إلى مصر، حيث كان نهر النيل يروي المراعي الخضر الخصبة لرعي ماشيتهم. رحّب المصريون بهم في البداية، وسمحوا لهم بالاستقرار في إقليم جوشن في شمال شرق البلاد، بالقرب من النيل وليس بعيدًا عن البحر. ازدهر بنو إسرائيل وازدادت أعدادهم في هذا المكان، واستقروا فيه، وفي ذاكرتهم احتقار إبراهيم للأصنام، أبقوا أنفسهم بمعزل عن الدين المحلي، وهو شكل جليّ من أشكال الشرك تُعبد الآلهة فيه على هيئة كلاب، وقطط، وتماسيح وحيوانات أُخَر.

وكما يحدث غالبًا مع الذين يرفضون الاندماج مع الأغلبية،

أخذت شعبية بني إسرائيل تتراجع تدريجيًا بين المصريين. وعندما كثرت أعدادهم وأزداد نجاحهم، تحول النفور الذي أثاروه إلى كراهية، ومن ثم تحولت الكراهية إلى اضطهاد وسخرة. وعندما فشلت هذه القسوة المنظمة في قمعهم، قررت السلطات المصرية اتباع سياسة تدمير منظمة. ومن أجل إجبار بنات إسرائيل على الزواج بشركاء مصريين لدمجهم في عموم السكان، أصدر الملك مرسومًا يقضي بقتل ذكور بني إسرائيل حديثي الولادة جميعًا. فقررت إحدى الأمهات أنه من الأفضل لها أن تعطي ابنها المولود حديثًا بدلاً من رؤيته يذبح، فوضعته في سلة مصنوعة بعناية لتقاوم الماء، وتركته بين القصب على ضفاف النيل في

مكان علمت أن ابنة الفرعون، الملك المصري، تستحم فيه. نجحت الخدعة. فعندما اقتربت ابنة الملك وجدت طفلاً يطفو بين أعشاب النهر، فتبنته ابنا لها وأعطته الاسم المصري موسى.

على الرغم من أن موسى كان يعيش حياة موسرة في القصر الملكي للفراعنة، إلّا أنه يدرك أنه كان إسرائيليًا وليس مصريًا. كان لديه إحساس متنامٍ أن مصيره يكمن مع العبيد وليس مع مضطهديهم الذين تبنوه، لذلك سيطر عليه الفضول لرؤية ما كان يحدث لهم. وفي أحد الأيام، قاده فضوله لمراقبة مجموعة منهم وهي تعمل. عندما رأى أحد الزعماء المصريين يضرب أحد أبناء إسرائيل، غضب غضبًا شديدًا لدرجة أنه قتله ودفنه في الرمال. شدّه الاهتمام مرة أخرى فذهب في اليوم التالي، لكن هذه المرة استفز غضبه مشهد إسرائيليين يتشاجران. سخر منه الرجل الذي

بدأ القتال عندما حاول التدخل بينهما، قائلاً: «افترض الآن أنك ستقتلني بالطريقة التي تخلصت بها من المصري أمس، وتخفيني في الرمال أيضًا! » عندها أدرك موسى أنه قد تم اكتشافه وأن تلك الكلمات ستصل قريبًا إلى القصر وتضعه في خطر، فهرب موسى إلى الصحراء حيث وفرت له عائلة من الرعاة المأوى.

هذا هو المكان الذي التقيناه فيه أول مرة، راكعًا أمام شجيرة شوكية، يستمع إلى صوت يتكلم معه بكلمات لا يريد أن يستمع إليها ويدعوه لمهمة خطيرة لا يريد أن يقوم بها. كان الصوت ذاته الذي أمر إبراهيم أن يخاطر بحياته من خلال شجب الآلهة التي يعبدها شعب بلاد ما بين النهرين. والصوت نفسه الذي

أمر إبراهيم أن يقدم ابنه إسحاق أضحية. وكان الصوت نفسه الذي أمر يعقوب بتغيير اسمه إلى إسرائيل أو (الحكم لله).

كانت هذه طريقة جديدة للتفكير في الآلهة. فقد كان من المقبول أن يكون لكل قبيلة ومجموعة من الناس آلهة خاصة بهم. ففكرة أن يسيطر إله واحد على مصير الإنسان، وربما حتى على التاريخ نفسه كانت فكرة جديدة ومخيفة. وعندما سأل موسى من كان يتكلم معه عن اسمه جاء الجواب أكثر إرباكا. كان الرد (أنا). كان من الصعب معرفة ما يعنيه ذلك بالضبط، بيد أنه يوحي أن الصوت كان مصدر الحياة برمتها، ومصدر الطاقة والمعنى وراء الوجود كله. أحس أولئك الذين تحدث إليهم أن التورط معه سيعرضهم للخطر.

ليس لأنه أعطاهم رأيًا في هذه المسألة أو تلك، بل لأنّه

خرج من العدم، ودوّى في أذهانهم مثل فكرة حتمية. أخبرهم أن هناك إلهًا (واحدًا) لا غير، ولا يمكن أن (يوجد) غيره. والآلهة الأخرى كلها كانت إبداعات بشرية، تشكلت إما عبر تخيلات الإنسان، أو صُنعت حرفيًا بيديه. هذه الآلهة المزعومة ما هي إلّا أكاذيب تلحق الضرر بروح الإنسان ولابد من التخلص منها. كان الإله الواحد والحق الوحيد الذي اختار بني إسرائيل ليعلنوا هذه الحقيقة للعالم. ولا عجب أن يشعر هؤلاء الذين جاءتهم هذه الرسالة بالخوف، فالعالم كان مليئًا بالآلهة مع حشود من المتعبدين المتحمسين والأعمال التجارية التى أسسوها لخدمتها.

فإهانة معتقدات الناس كانت سيئة بما فيه الكفاية؛ بيد أن تهديد السبل التي يكسبون بها عيشهم كان أسوأ.

لهذا السبب حاول موسى مقاومة مطالب الصوت. فقد نجح للتو في الهروب من مصر وحكامها، والآن يخبره الصوت في رأسه أن يعود وينظم تمردًا، وأن يقود بني إسرائيل الذين عرفهم سابقًا كرعاع جاحدين وجامحين، إلى بلد آخر خارج مصر. من يعرف أي نوع من الترحيب سيلقونه في الأرض الموعودة لهم، على افتراض أنه قدر لهم الوصول إلى هناك؟ لكن الصوت كان مصرًا فأطاعه موسى على مضض. ذهب إلى مصر ليواجه ابتلاءين. كان التحدي الأكبر هو إقناع بني إسرائيل أن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب أمره أن يقودهم من مصر إلى أرض جديدة، حيث ينحدرون من أجيال مضت. وقد وافقوا

متبرمين على اتباعه إذا استطاع إقناع فرعون بإطلاق سراحهم. فكيف كان ينوي القيام بذلك؟

كان أول ما فعله موسى هو مطالبة المصريين بإعطاء بني إسرائيل بضعة أيام لعبادة إلههم في الصحراء شمال جوشن. بيد أن المصريين الذين كانوا بالفعل يزدرون دين إسرائيل المتعالي والحصري، رفضوا السماح لهم بفرصة لخدمة إلههم الغيور. ثم تخبرنا القصة أن ما تبع ذلك كان حملة طويلة نظمها موسى حيث سلط إله إسرائيل فيها كارثة تلو الأخرى على المصريين. وبلغت ذروتها في الصدى المروع لذبح بني إسرائيل، تلك الكارثة جعلت موسى يندفع إلى بيت فرعون.

قال الصوت لموسى أن يأمر بني إسرائيل بالبقاء في منازلهم خلف أبواب مقفلة في ليلة حددها له. وكان على كل أسرة أن تضحي بحَمَلٍ وتضع دمه على عضادة أبوابها دليلاً على أنها أسرة إسرائيلية وليست مصرية. وفي منتصف تلك الليل جاب الرب في الأرض فقتل أول مولود لكل عائلة، وأول مولود من الماشية أيضًا، لكنه حين مر فوق البيوت المعلمة بالدم تركها سالمة. عندما جاء الصباح اخترقت صرخات رهيبة ذلك اليوم. لم يُترَك بيتٌ مصريّ لم يقتل فيه فرد أثناء الليل. فاستدعى فرعون موسى وقال: «ربحت، خذ شعبك إلى الصحراء لبضعة أيام ليخدموا إلهك، واتركنا لنحزن على موتانا». وكان الهروب العظيم.

قاد موسى بني إسرائيل مع قطعانهم في رحلة طويلة على مصب نهر خطير يعرف باسم بحر القصب (البحر الأحمر الآن)

بالقرب من شاطئ البحر الأبيض المتوسط. كان المد منحسرًا فعبروا بأمان إلى الجانب الآخر. إلّا أن المصريين في هذا الوقت، بدأوا يدركون أنهم قد خُدعوا، فلم يبتعد بنو إسرائيل في رحلة دينية قصيرة لبضعة أيام، فلو كانت هذه غايتهم، لما أخذوا قطعانهم وماشيتهم جميعها معهم. كلا، لقد كانوا يفرون إلى الأبد، وكانوا قد كسبوا بالفعل مسيرة يوم لهم. لاحقهم المصريون بمركباتهم، وحين وصلوا إلى مصب بحر القصب كان المد قد ارتفع مرة أخرى، فغمرتهم المياه، وغرقوا جميعًا. احتفل بنو إسرائيل بهذا على أنه فعل الرب. وفي النهاية كانوا بعيدين، أحرارًا، آمنين.

منذ ذلك الحين صار هذا اليوم حدثًا مميزًا في تاريخ اليهود يحتفلون فيه احتفالاً مهيبًا. يعود هذا الاحتفال السنوي الذي يطلق عليه بـ (عيد الفصح)، إلى الليلة التي مر بها (المدمر الإلهي) على بني إسرائيل، ونجّاهم بهروبهم من العبودية في مصر إلى أرضهم أرض الميعاد. في عشية العيد يسأل أطفال اليهود والديهم عن سبب اختلاف وجبة طعام عيد الفصح عن باقي الوجبات الأخرى التي يستمتعون بها.

لماذا يأكلون (الماتسا) وهو خبز فطير غير مختمر - بدلاً من الخبز العادي في هذه الليلة؟ فيقولون لهم إن ذلك لتذكيرهم أنه في عشية هروبهم من مصر لم يكن هناك وقت لانتظار اختمار العجين فأخذوا معهم الخبز غير المختمر. كان عليهم أن يخرجوا الخبز من الفرن تماما كما صنعوه. وعندما كانوا يسألون لماذا يجب أن يأكلوا الأعشاب المرة مع الوجبة بدلاً من الخضار المتنوعة في

هذه الليلة، فيردون إنها لتذكرهم بمرارة سنوات العبودية في مصر. ويغمسون الأعشاب مرة في الماء المالح ومرة في عجينة حلوة لتذكرهم بدموع العبيد من بني إسرائيل وقد تحولت إلى فرح وآلامهم إلى بهجة. وعندما يسألون لماذا يستند إلى المائدة في هذه الليلة يجيبون؛ كان الإنسان الحر الوحيد في مصر هو الذي يستند إلى المائدة، بينما كان على العبد أن يقف ليخدمه. الآن وهم أحرار يستطيعون، أيضًا، أن يستندوا!

لقد طرح الأطفال اليهود هذه الأسئلة في عيد الفصح لأكثر من 3300 عام. تتكرر فيها الأسئلة المطروحة نفسها والإجابات

المقدمة نفسها. إنهم أحرار الآن لذا يمكنهم الآن أن يستندوا إلى المائدة عندما يأكلون! الأمر المؤلم في هذه القصة هو أنه في مرات لا حصر لها في تاريخهم، وكلما طرح الأطفال اليهود هذه الأسئلة وسمعوا الإجابات التي أعلنت عن حريتهم، كانوا في قبضة الأسر من جديد. هذه هي السحابة التي ألقت بظلالها على هذه القصة وهي تنتقل عبر الزمن. لقد احتفلوا بفعل التحرر العظيم كونه لحظة حاسمة لشعب كان تأريخه تأريخ كبح واضطهاد.

بيد أن هذا التأريخ يعلم درسًا مهمًا حول كيفية عمل الدين. قد تعود القصص الدينية إلى الماضي، لكنها في الواقع تهدف إلى إعطاء الأمل في المستقبل. هكذا استخدم الشعب اليهودي هذه القصة، إذ نظر إلى الماضي وعدّ يوم (الخروج) تاريخًا لميلاده شعبًا. ولكن ما حدث بعد ذلك لم يكن احتفالاً بيوم الاستقلال بألعاب

نارية وولائم عامرة. كانت رحلة طويلة، بائسة عبر الصحراء
بحثًا عن مستقبل أفضل.

الفصل التاسع



الوصايا العشر

على الرغم من هروب بني إسرائيل من العبودية في مصر، بيد أن مشاكلهم بدأت للتو. فغرق الجيش المصري في بحر القصب قد منحهم الشجاعة، وموسى كان قد أقنعهم باتباعه إلى الصحراء. لكنهم لم يفهموا حقًا ما كان يتحدث عنه عندما تعلق الأمر بالله، فوجهة النظر السائدة في ذلك الوقت أن الآلهة، مثل فرق كرة القدم اليوم، عديمة القيمة. من الواضح أنك دعمت

رب البيت، لكن هذا لا يعني أن تحتقر الآخرين كلهم. كنت على علم أن عند الإله العديد من اللاعبين. عرف بنو إسرائيل أن هناك ما يميز الإله الذي تكلم مع موسى، لكن بالنسبة لهم لا يعني هذا عدم وجود آلهة أخرى. ما قصدوه أن ربهم كان الأفضل لأنه (يخصهم)!

لم يستغرقهم الأمر وقتًا طويلاً ليعرفوا أن موسى لم يرَ الأمور بهذه الطريقة. أخبرهم أنّه كان يقودهم إلى أرض تتدفق بالحليب والعسل، لكنّه لم يبدُ مستعجلاً لجلبهم إلى هناك. فبعد مغادرتهم مصر بمدة طويلة، وحين صلوا إلى سفح الجبل، طلب منهم أن ينتظروا هنا، بينما يذهب إلى القمة ليتلقى التعليمات من الله.

طالت غيبة موسى، حتى أن بني إسرائيل شعروا بالملل والضيق، لذا قرر المسؤولون عنهم إلهاءَهم بمهرجان ديني. صنعَ حرفيوهم عجل ثور ذهبيًا كبير الحجم، أحد رموز الله في دين مصر. قاموا بوضعه على منصة ودعوا بني إسرائيل إلى عبادته. ربما خالجهم الحنين فعلاً إلى مصر، أو ربما احتاجوا إلى الراحة بعد مشيهم الطويل المجهد عبر الصحراء لا غير. تحولت عبادة العجل الذهبي إلى حفلة رقص. فعلى قرع الطبول رقص

أبناء إسرائيل بحماس حول التمثال، وهم يصرخون بصخب، وبنشوة المعجبين في حفل موسيقى الروك.

عاد موسى فجأة إليهم واستشاط غضبًا، أوقف صخبهم، ودعاهم إلى الصمت. فالصوت الذي تكلم معه على الجبل أعاده بقائمة الوصايا العشر التي كان على بني إسرائيل أن يتبعوها الآن!

معظم الوصايا منطقية لأي مجتمع يسعى إلى التماسك: لا تقتلْ، لا تسرقْ، لا تَزن، لا تكذبْ، أذكر يوم السبت لتقدسه. وأمور منطقية من هذا القبيل. كانت الوصية الأولى منطقية أيضًا. فالرب الذي قادهم للخروج من مصر هو إلهم الوحيد،

(ولم يكونوا ليعبدوا سواه)، ورضوا به إلهًا واحدًا. إذ أن عليك أن تضع الوطن نصب عينيك.

ما أدهش بني إسرائيل كان الوصية الثانية، فهي تمنعهم من التصوير، ليس رسم صور الرب فحسب، ولكن أي شيء آخر. لا تماثيل! ولا فن! كان ذلك محيّرًا لهم. كان أمرًا طبيعيًا مثل التنفس للبشر أن يرسموا الحيوانات التي يصطادونها، أو الآلهة التي يعبدونها، حالهم حال أي طفل يمسك قطعة طباشير ويريد أن يرسم بها. فالصوت الذي تحدث إلى موسى كان مرتابًا للغاية من أي نوع من أنواع الفن، لكنه غضب عندما حاول البشر أن يستخدموا الفن ليعبروا عن لغز وجوده. ما الذي يكمن خلف غضب الله؟

ولكي نفهم هذه المسألة سيساعدنا الرجوع إلى مناقشتنا

للرموز، فقد لاحظنا كيف جرى ربط الناس بحقائق أكبر: كأن تمثل قطعة من القماش الملون بلدًا بأكمله. تعد الرموز من أهم الاختراعات المفيدة للإنسانية، وهي طريقة مختزلة للتعبير عن أفكار مجردة كبيرة مثل فكرة الأمة. وأصبحت - الرّموز - أكثر فائدة عندما تم اختراع الكتابة. فبالإمكان الآن ترجمة أي شيء إلى كلمات في كتاب يمكن أن تحمله بيدك. كان الخطأ يكمن في الخلط بين الكلمات وبين ما تمثله، وأن يتم التعامل معهما كأنهما شيء واحد. الأشياء ليست أبدا ما نقوله، فلا يمكنك شرب كلمة الماء، لأنّها رمز للماء، لا (الماء نفسه).

المشكلة هي أن المؤمنين غالبًا ما يعاملون الكلمات الدينية كما لو أن هذه القاعدة لا تنطبق عليها. كما لو كانت كلماتهم عن الله هي الله. ولم تكن كتبهم تحمل علامات من الحبر على الورق، وإنما الرب نفسه كان محشورًا بين الغلافين. لا عجب أنهم غالبًا ما ينتهي بهم الأمر إلى القتال مع بعضهم بشأن من كان عنده أفضل الكلمات، وأفضل الرموز التي تمثل الله. (لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما)، دوّى صوت الله في الوصية الثانية. لا يوجد أي نوع من أنواع الفن البشري، سواء أكان ذلك على شكل رسوم على الجدار أم كلمات في كتاب، يمكن أن تقترب من التعبير عن لغز الله.

نتج عن الوصية الثانية أهم رؤية ثاقبة اكتشفها البشر عن الله، وهدفها الحقيقي هو الدين. ليس نوع الفن الذي جعل

الناس يرقصون حول العجل الذهبي فحسب، والمقصود هو أنها تحذرنا من أنه لا يوجد نظام ديني يمكنه أن يفهم لغز الله، أو يحتويه. لكن هذا بالضبط ما سيستمر الكثيرون، في التأريخ، كما سنرى، على تبنّيه. فالوصية الثانية كانت بمثابة إنذار مبكر أن المنظمات التي ادعت أنها تتكلم باسم الله ستصبح أكبر خصومه، وأخطر الأوثان على الإطلاق. لكن الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً من بني إسرائيل ليفهموا المغزى.

بعد تلك الحفلة الراقصة في الصحراء حول العجل الذهبي، حان الوقت للمضي قُدُمًا. كانت هناك أرض الميعاد للحصول عليها. لقد أخذهم موسى على مرمى البصر منها. قال له صوت

الله أن يصعد جبلاً لرؤيتها من بعيد. وفي هذا المكان توفي موسى.
لذا كان على القائد يوشع أن يقود الغزو، بيد أنه لم يكن انتصارًا
سهلاً. فحتى بعد أن ثبّتوا أنفسهم في الأرض كان عليهم شنّ
حرب مستمرة ضد القبائل المحلية كافة ليصونوا أرضهم. لذلك
قرر أبناء إسرائيل أنهم بحاجة إلى ملك يقودهم في هذه الحرب
المستمرة، فالقبائل الأخرى لديها ملوك فلم لا يكون لهم ملك
أيضًا؟ فكان شاؤول أوّل ملوكهم، الذي قضى معظم عهده في
القتال للحفاظ على مكان إسرائيل في كنعان.

إحدى القبائل التي وقفت ضدهم كانت قبيلة الفلسطينيين،
وكان من بين جنودها الشرسين عملاق يدعى جالوت (جليات).
في أحد الأيام عندما اصطف الجيشان ضد بعضهما، تقدم جالوت
إلى الأمام لتحدي أي مقاتل من جيش شاؤول إلى قتال فردي،
فلم يتطوع أحد من الجانب الإسرائيلي، حتى تقدّم راع صبيّ إلى

الأمام لقبول التحدي. سخر الجميع منه، فكيف يمكّن لصبيّ مثله أن يتحدى مقاتلاً مدربًا مثل جالوت؟ وأجاب الصبي: «بالطريقة ذاتها التي حميت بها أغنام أبي من الذئاب». أسرع الصبيّ بمقلاعه لمواجهة العملاق، الذي اندفع نحوه وهو يزمجر. وعندما سحب جالوت ذراعه ليرمي رمحه، وضع راعي الغنم بهدوء حجرًا في مقلاعه، وأرجح القاذفة مرة واحدة، وقذف الحجر نحو الهدف. أصاب جالوت في صدغه وأطاح به، ثم استخدم الصبي سيف العملاق لقطع رأسه. فاز جيش شاؤول في المعركة، وحصلَ بنو إسرائيل على بطل جديدٍ اسمه داود.

عندما توفي شاؤول في المعركة، خلفه داود وأصبح الملك الذي ستعده إسرائيل يوماً مثلها الأعلى. حكم مدةَ ثلاثين عاما، قضى الكثير منها في المعارك. وكان ابنه سليمان من بنى الهيكل الأول لبني إسرائيل، حيث قدم الناس لله أفضل بهائمهم أضاحيَ، وأفضل المحاصيل في حقولهم، وتودّدوا إليه بإشعال البخور، فاختنق خلف سحبه. لقد قطعوا شوطًا طويلاً منذ أيام عبوديتهم في مصر. لم يعودوا، بعد الآن، تحالفًا مفككًا من قبائل جوّالة، بل باتوا أمة شرعيّة، لديهم ملكهم الخاص، ومعبدهم الرائع. لقد نجحوا في النهاية. إلّا أن الله لم يعتقد ذلك!

لذا بدأ الصوت الذي تكلم إلى موسى، يتكلم ثانية، فقد صمتَ أجيالاً، إلّا أنه دوّى، الآن، في أذهان جيل جديد من الأنبياء. أخبرهم الصوتُ كم كَرِهَ ما حوّلَهُ إليه بنو إسرائيل، فقد

تحول محررُهم إلى معبود جشع يشبه أحد الآلهة التي استبدلوها. لم يكن هذا ما أراده. أراد العدالة للفقراء، وأراد رعاية الأرامل والأيتام، وأن لا يخادعوا في ممتلكاتهم، وقبل كل شيء، أراد أن يستعيد بنو إسرائيل بساطة الحياة التي عرفوها في الصحراء عندما كان بعضهم يعتني بغيره. بيد أن الأمر سيستغرق فترة أخرى من العبودية في أرض غريبة حتى يفهوا في النهاية ما كان الله يحاول إخبارهم به طوال الوقت.

على الرغم من أنها باتت مملكة مستقلة، لكنها لم تكن آمنة على الإطلاق. فحتى بعد أن فازوا بمعاركهم ضد القبائل المحلية، وصارت أرض كنعان ملكًا لهم، كانوا يتعرضون لخطر

مستمر، لأن أرضهم الموعودة كانت ممرًا بين القوى العظمى

في الشمال والجنوب. كانوا يعرفون مصر التي تقع في الجنوب،

ولديهم تاريخ هناك، لكن الإمبراطورية الآشورية إلى الشمال في

بلاد ما بين النهرين كان لها التأثير الأكبر في حريتهم. فبعد مئات

السنين من (الخروج) الذي حرّرهم من مصر وقع بنو إسرائيل

مرة أخرى في أسر العبودية، إذ اجتاحهم الأشوريون وقمعوا

مملكتهم، وجرى ترحيل أكثر من 10.... منهم وإرسالهم إلى

المنفى في آشور شمال بابل. وكما تم تغيير فكرتهم عن الله من

خلال انتصاراتهم في كنعان، تغيرت، مجددًا، في خلال معاناتهم

في المنفى البابلي.

في البداية ظنوا أنهم فقدوا إلههم إلى الأبد. كان في الهيكل

الذي بناه سليمان لهم هناك في أورشليم القدس. بكوا على أنهار

بابل عندما تذكروه. وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله في بلد غريب؟

غير أن حزنهم أدى إلى ظهور إدراك جديد لله. لم يكن الله صنمًا عالقًا في الهيكل، ولم يكن عالقًا حتى في كنعان. الله موجود في كل مكان! كان معهم في بابل كما كان معهم في أورشليم، وفي مصر! في الواقع، كان الله معهم في الأوقات وفي الأمكنة كلها، تمامًا كما قال الأنبياء. يمكنهم أن يروا كل شيء الآن. لو أنهم أدركوا ما أخبرهم به الأنبياء فحسب! لكنهم سيعوضون عن ذلك الآن.

بدأوا في جمع القصص التي وصلت إليهم عن فعل الله في ماضيهم: قصص عن الصوت الذي تكلم إلى إبراهيم وإسحق

ويعقوب وموسى، وقصص عن هروبهم من مصر والاستيطان في أرض كنعان، وقصص عن كيفية تلقيهم دعوة ليعقدوا عهدًا أو اقترانًا مع إله واحد حقيقي سيكون معهم دائمًا، سواء في العبودية أم في الحرية، سواء في أراضيهم مع أنهارها وتلالها الحبيبة، أم في هذه الأرض التي كانت أنهارها ولغتها غريبة عليهم. هذه هي الأفكار التي راودتهم في منفاهم في بابل وهم يتفكرون في معنى تاريخهم. بدأ الله يتحدث إليهم مجددًا عبر الأنبياء الذين أرسلهم. وهذه المرة استمعوا إليه.

الفصل العاشر



الأنبياء

الأنبياء ليسوا عرّافين، بل مبشّرين. إنهم لا يتنبأون بالمستقبل بقدر ما يعرضون ما يسمعونه من الله، أو يعلنون عنه. سمع إبراهيم صوت الله يسخر من أصنام بلاد ما بين النهرين. وسمعه موسى يستدعيه ليصبح محررًا لشعب إسرائيل من مصر ويقودهم إلى أرض الميعاد. ولما استقر بنو إسرائيل في كنعان وحكمهم الملوك، لم يصمت صوت الله. لقد سمعه رجال بسطاء خرجوا من العدم،

وتحدوا أصحاب السلطة الذين لم يلتزموا بالقانون الذي أوصى الله به موسى على الجبل المقدس. كان الأنبياء متحدثين مقنعين يستخدمون القصص لإيصال رسالتهم، حتى أنهم جذبوا انتباه الملوك. إليكم قصة عن كيف تحدى النبى أعظم ملوك إسرائيل،

داود، الذي التقينا به آخر مرة، وهو يقتل جالوت العملاق بمقلاعٍ، وحجر.

تولى داود عرش إسرائيل نحو 1000 سنة قبل الميلاد. واختار تلة محصّنة تسمى جبل صهيون لبناء عاصمته أورشليم، أو مدينة السلام، وهي مدينة جميلة ما تزال تعد مقدسة للملايين اليوم. على الرغم من أن داود كان محاربًا عظيمًا، وزعيمًا له شخصية ملهمة، إلّا أنه كان بعيدًا عن الكمال. في أحد الأيام جاء نبي يدعى ناثان ليخبره عن اعتداء وقع مؤخرًا. فهناك رجل غني في الريف يملك الآلاف من الأغنام والماشية ويريد الاستيلاء على كل شيء بلا مقابل. كان أحد مستأجريه رجلاً فقيرًا لا يملك غير حَمَلٍ صغير يحبه مثل ابنته. عندما حضر ضيف غير متوقع إلى منزل الرجل الغني، فبدلا من أن يذبح أحد خرافه، ذبح

حملَ الرجل الفقير، وطهاه لضيفه.

عندما سمع الملك داود القصة وثبَ واقفًا على قدميه وطالب باسم الرجل: (من هو هذا الوحش؟)؛ فأجاب ناثان: (أنت هو الرجل). عرف ناثان أن داود قد نام مع بثشبع زوجة أوريا، الجندي المخلص في جيشه، في طريقه لشن حملة في ذلك الوقت، ولكي يبقي جريمته سرية، خطط داود لقتل أوريا في المعركة، ومن ثم يتزوج بثشبع بهدوء. وبسبب تحدي ناثان، اعترف داود بجريمته، وحاول أن يضع الأمور في نصابها. عرف الأنبياء سطوة القصص لجعل الناس يغيرون اتجاه حياتهم. لكنهم لم يبتدعوا قصصهم كلها لتعبر عن غضب الله. ففى بعض الأحيان، كانت

تقدم العزاء والأمل في المستقبل بالإضافة إلى التعنيف. وهذه واحدة من هذه القصص.

بعد نحو أربعمائة سنة من وفاة داود، عندما نُفِيَ بنو إسرائيل إلى بابل، وكانوا يجلسون في يأس يتذكرون أورشليم الحبيبة، جلب لهم أحد المنفيين رسالة كان قد تسلّمها من الله، اسمه حزقيال. في البداية قام بتأنيبهم على ماضيهم، فلم يُخرجهم الله من الأسر في مصر حتى انتهى بهم المطاف مثل باقي الأمم الأخرى التي طمحت إلى أن تكون غنية وناجحة لتتبجح على مسرح العالم، واستخدمت آلهتها لتساعدها على الوصول إلى غاياتها. فالدين في نظرهم لم يكن سوى فرع من فروع السياسة.

حسنًا، لم يكن إله إسرائيل صنمًا يمكن للسياسيين استغلاله في لعبة السلطة التي يمارسونها، كما أنهم لم يكونوا أمة مثل الباقين.

فما أريد لهم هو أن يكونوا أمة مقدسة، هدفها الوحيد على الأرض هو خدمة إلهها، بيد أنهم سمحوا لأنفسهم بالانجراف في لعبة القوى في المنطقة، فعاقبهم الله بنفيهم إلى بابل.

إن إلقاء حزقيال بتبعة منفى اليهود على خطاياهم أدخل فكرة أخرى مثيرة للاهتمام بتاريخ الدين. ففي كل مرة عانى فيها شعب إسرائيل من صراعات القوى في المنطقة التي كانوا يعيشون فيها، لم يلق الأنبياء باللوم على الجيوش التي سحقتهم، وإنما على عدم إخلاصهم لله. فتولدت فكرة لا تعزو حدوث الأشياء السيئة إلى الحظِّ العاثر، وإنما تعدها عقابًا على الخطايا. ولما كانت الأمور السيئة تحدث باستمرار لإسرائيل، كان الأنبياء

يعنّفونهم على الدوام، فذلك يحدث بسبب آثامهم. لكن مرت أوقات توقف فيها الرب عن تأنيبهم وبدأ يريحهم، فوصلتهم واحدة من أكثر رسائل المواساة تأثيرًا عبر حزقيال.

لم يسمع حزقيال الأصوات فحسب، وإنما راودته الرؤى. وتضمنت واحدة من رؤاه رسالة أمل لإسرائيل الأسيرة. كان يقف في رؤيته على تل ينظر إلى واد واسع مليء بالعظام الجافة. أوحى له الصوت أن يبشر اليهود بالعظام ويخبرهم أن أنفاسهم ستعود لهم، وستكتسي عظامهم باللحم وسيعيشون ثانية. فعل كما أوعز له، وعلى الفور، صدر صوت قعقعة العظام التي كانت تتجمع مع بعضها، وامتلأ الوادي بهياكل البشر العظمية. ومن ثم، نمت الأوتار واللحم والجلد فوق الهياكل العارية، وامتلأ الوادي بجثث الموتى. في النهاية، تنفست الجثث ونهضت. يشبه المشهد جيشًا عظيمًا من المحاربين المفعمين بالنشاط وقد

ملأوا الوادي. أخبر الصوت حزقيال أن هذه العظام تعود لبني إسرائيل الذين ظنوا أن حياتهم قد انتهت وأنهم ماتوا ودفنوا في بابل، لكن الله سرعان ما أعادهم إلى الحياة، وإلى أرضهم، أرض إسرائيل.

هذا بالضبط ما حدث. ففي عام 539 قبل الميلاد هزم الفرس البابليين، وأرسل الملك الفارسي كورش المنفيين إلى إسرائيل، وطلب منهم إعادة بناء الهيكل الذي حطمه نبوخذ نصر واستعادة تقاليدهم الدينية. وعلى مدى مائتي العام التالية تُركوا لتأدية طقوسهم الدينية بحرية. والآن أخيرا، بدأوا في

الارتقاء إلى معنى اسمهم: الحكم لله. فلم يروا أنفسهم أمة أخرى يقودها قادة من البشر حسب، بل مجتمعًا دينيًا يحكمه الله، (ثيوقراطي). فقاموا بإعادة بناء الهيكل الذي عُدّ رمزًا لوجود الله بينهم، وهو مركز وجودهم. جرى الانتهاء من بناء الهيكل للعبادة في عام 515 قبل الميلاد.

لم يعد لإسرائيل ملكٌ، فأضحى كبير كهنة الهيكل أهم شخصية في بلادهم، وكان ينظر إليه على أنه ممثل الله على الأرض. وخلال هذه العملية الطويلة من التأسيس، مات شيء كان جزءًا من تاريخهم منذ إبراهيم. فقد توقفت النبوة! الآن، بدلاً من أن يجلب أنبياء أحياء مفاجآت مستمرة من كلام الله إلى أبناء إسرائيل، تم وضع الكتب التي جمعت قصص تاريخهم الذي قاد وجهته الله والقوانين التي كانت تحكم حياتهم من الآن فصاعدًا.

ومن أهم هذه الكتب كانت الكتب الخمسة الأوَل من الكتاب المقدس، التي تسمى أسفار موسى الخمسة، أو اللفائف الخمس، وهي من ورق البردي، كان يكتب عليها الكتبة القدامى. ففي خلال فترة السلام هذه، بعد عودتهم من المنفى، التزم أخيرًا بنو إسرائيل بكتابة قصة علاقتهم الطويلة مع الله، وكيف تحولوا من شعب صوت، إلى أهل كتاب.

في السنوات الأوليات كان ثمة نهج تجريبي تجاه دين شعب إسرائيل، حتى أننا قد نصفه بدين فريد مستقل بذاته. لم يقد هذا النهجَ رجالُ دينٍ محترفون، بل هواةٌ موهوبون استمعوا إلى صوت الله يتحدث إليهم مباشرة. هكذا تبدأ الأديان كلها، فهي تنشأ

عندما يبدأ الذين يتمتعون بقدرات خاصة، ممن نطلق عليهم اسم الأنبياء، أو الحكماء، بسماع الأصوات ومشاهدة الرؤى، وبدورهم يخبرون الآخرين بما رأوه، وما سمعوه، ويستجيب، بإيمانٍ، أولئك الذين لم يروا الرؤى، أو سمعوا الأصوات لمّا أُخْبِروا بها. وتبدأ الهياكل الدينية بالتوسع.

ومع ازدياد توسع تفاصيل هذه الهياكل، برزت الحاجة إلى نوع جديد من القادة، وابتدأ الانتقال من حالة الهواية إلى الحرفية، واستدعت الحاجة إلى معلمين لتفسير القصص المقدسة التي تم ربطها معا، وكذلك إلى كهنة لرئاسة المهرجانات التي تحتفل بالأحداث المسجلة في الكتاب. فتوسعت الحاجة إلى المعابد لتتركز فيها هذه الأنشطة كلها، وعندما انتهت هذه العملية الطويلة، صار للعالم دين آخر، مكتمل يضاف إلى مجموعته.

ولكن ما يزال ثمة إحساس أن شيئا ما قد ضاع على طول الطريق، وهذا هو السبب في أن الأديان تنظر دائما إلى سنواتها الأوليات بشوق وندم. مثل شعور الأزواج الذين يعيشون معا بالملل ما أن يتلاشى شغف حبهم المبكر، فيتطلعون بشوق إلى الأيام التي كان فيها الحب يتدفق بانسيابية. هذا هو السبب في أن جميع الأديان تقضي الكثير من الوقت في النظر إلى أولى السنوات في محاولة لإحياء هذا الحب الملتهب الأول. إنها رحلة شاقة، لأن صوت الحبيب الإلهي قد صمت، وكل ما تبقى منه هو رسائله. أو يمكن أن يكون أولئك الذين سيطروا على الدين لم يرفعوا سماعة الهاتف عندما رنّ صوت الإله، لأنهم لا يريدون

له أن يربك النظام الذي يديرونه الآن بأنفسهم؟ هذا التوتر ليس بعيدًا عن وجه الدين المنظم، كما سيظهر هذا التاريخ، فقد بدأت إسرائيل بتوطيد كيانها بهذه الطريقة بعد عودتها من المنفى في بابل. تجمعت عظام الدين المتناثرة مرة أخرى، وتبع ذلك فترة مائتي عام وجدت فيها إسرائيل السلام الذي أمضته ألف عام في البحث عنه. في خلال هذا الوقت حكمت إسرائيل إمبراطوريات اختار قادتها ألّا يتدخلوا في دين رعاياهم. بيد أن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم.

في عام 333 قبل الميلاد، حكم الإمبراطور اليوناني الإسكندر الأكبر أجزاء كثيرة من العالم وبدأت دورة تغيير أخرى في إسرائيل. سمح الإسكندر لإسرائيل باتباع دينها، وترك الحال على ما هو عليه. لكن عندما توفي استولى قادة على أجزاء من إمبراطوريته

تعرف اليوم بأفغانستان، والعراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، واتبعوا أسلوبًا مختلفًا. قرروا فرض علامتهم الدينية الخاصة على رعاياهم، لذا كانت مسألة وقت فحسب قبل أن يتصادموا مع إله إسرائيل الغيور غيرة شرسة. والملك الذي بدأ القتال اسمه أنطيوخس الرابع، وبدافع من إحباط الملك، ذي الأصل اليوناني، في طموحه ليكون له دور فاعل في المنطقة، قرر أن ينتزع رعاياه اليهود من إلههم المستحوذ عليهم، ويفرض عليهم تعقيدات الدين اليوناني وثقافته.

في عام 167 قبل الميلاد قام بتحويل الهيكل في أورشليم القدس إلى ضريح للإله اليوناني زيوس، وأرسل منفذين في

جميع أنحاء إسرائيل لإجبار اليهود على تقديم القرابين له. عندما وصل أحدهم إلى قرية خارج أورشليم القدس تسمى مودين، أمر قسيس القرية، وهو رجل عجوز يدعى ماتياس، أن يمتثل لمرسوم الملك ويقدم الأضحية أو يموت، ردّ القس ماتاثياس بغرز سكين القرابين ليس في الخروف المعد للتضحية بل في المنّفذ نفسه، وجعل منه قربانًا.

ثم قام، هو، وأبناؤه بشن حرب استمرت ثلاث سنوات ضد ملكهم المستبد. فازوا بثلاث معارك ضده واستعادوا الهيكل المدنس. في 14 ديسمبر من عام 164 قبل الميلاد، بدأوا في تطهير الهيكل، وترميميه، وإعادة تكريسه للعبادة. استغرق الأمر ثمانية أيام، وهي فترة يحتفل فيها اليهود الآن بعيد يدعى عيد الأنوار، أو (حانوكا). يضيئون في كل يوم من أيام عيد الحانوكا شمعة موضوعة فوق الشمعدان المقدس ذي الأغصان التسعة (الذي

يسمونه المنارة) ليحيوا ذكرى استعادة الهيكل في أورشليم القدس بعد أن دنسه أنطيوخس.

توفي أنطيوخس في عام 163 وأصبحت الحياة أسهل بالنسبة لإسرائيل، فقد حافظت على استقلالها في وضع غير مستقر مدة مائة سنة أخرى حتى تسلمت روما الحكم في عام 63 قبل الميلاد. وبدأت لعبة النهاية.

الفصل الحادي عشر



النهاية

يمكن للأشياء السيئة أن تحدث للناس الصالحين. فآخر سفر من الكتاب المقدس المسيحي قسّم الأشياء السيئة على ما سمّاه بفرسان نهاية العالم الأربعة: الحرب، والمجاعة، والمرض، والموت. وقد مضى هؤلاء الأربعة سريعًا منذ البداية عبر التاريخ ولم يُظهروا أيَّ علامة من علامات التباطؤ. سيكون من الصعب على أي إنسان التعامل معهم، لكنهم يقدمون خيارًا خاصًا للمؤمنين

دينيًا. فإذا كنت لا تؤمن بأي معنى نهائي للوجود، فلن تكون المعاناة بالنسبة إليك غير حقيقة مُرّة عليك التعامل معها، أما إذا كنت تؤمن بالله، فعليك الإجابة عن الأسئلة الصعبة. لماذا سمح الله بالكثير من المعاناة في العالم؟ ولماذا يعاني الإنسان الصالح، في الغالب، ويسلم السيّئ من هذه المعاناة؟ فالأديان جميعًا لديها

إجاباتها عن هذه الأسئلة. وقد أجابت الديانة اليهودية مبكرًا عن هذا التساؤل قائلة إذا كانت إسرائيل تعاني، فذلك لأنها تُعاقب على خطاياها.

في هذا الفصل، سنفكر في معاناة إسرائيل بصفتها (شعبًا)، بدلاً من التفكير في معاناة أي فرد بصفة خاصة؛ ولسبب واضح للغاية. كان الله الواحد الحق قد دعا إسرائيل بشعبه المختار، وعروسه، وحبيبته. إذن لماذا تحولت العلاقة لتكون باهظة الثمن بهذا الشكل؟ ولماذا تسبب لهم بالكثير من المعاناة؟ أخبرهم النبي حزقيال أن السبب في ذلك هو أنهم فشلوا في فهم أن كونهم شعبَ الله المختار يعني أن يفصلوا أنفسهم عن الطرق التي تنهجها الأمم الأخرى وآلهتها. وبدلا من ذلك، قاموا بنسخ طرق هذه الأمم، واندمجوا بسياستها، حتى أنهم عبدوا الإله الحقيقي كما لو كان

معبودًا يطلب التملق والتضحية، بدلاً من العدل والقداسة. هذا هو السبب الذي انتهى بهم أسرى في بابل. بيد أنهم تعلموا الدرس بعد إطلاق سراحهم وعودتهم إلى أورشليم.

ولما عادوا إلى وطنهم إسرائيل مرة أخرى، أسسوا، أنفسُهم، أمةً هدفها، ومعنى حياتها الطهارةُ الدينية. كانوا يتبعون باهتمام بالغ التعليمات الموجودة في أسفار موسى الخمسة، التي تتخللها ممارسة الطقوس كل يوم ليبقى الله في بؤرة وعيهم. لقد تم تنظيم كل جانب من جوانب حياتهم لخدمته، بدءًا مما يمكن أن يأكلوه، إلى ما يمكن أن يلمسوه، والأشخاص الذين يمكن أن يتصلوا بهم. أصبحت إسرائيل دولة ثيوقراطية، دولة إلهية تحول الدين

فيها إلى هدف لوجودها كله، فتعلموا أخيرا كيف يعيشون بسلام مع ربهم، ومع أنفسهم.

زعزع هذا السلامُ الملكَ أنطيوخس، فبدأت معاناتهم مجددًا. لكن كان ثمة فرق هذه المرة. (فإخلاصهم) لله الآن كان هو السبب في بؤسهم، لذا فإن التفسير القديم لمعاناتهم بأنّها كانت عقابًا لم يعد حقيقيا، ولابد من العثور على تفسير جديد. ظهرت قصة أخرى في خضم الاضطهاد الذي مارسه أنطيوخس، إذ دخل عنصر إلى دين اليهودية كان له عواقب ليس على تاريخه الخاص فحسب، بل على تاريخ المسيحية، والإسلام عندما جاءا.

لقد رأينا بالفعل أن الأنبياء الذين كان لهم دورٌ فاعل في تاريخ إسرائيل لم يتنبأوا بـ (المستقبل)، بل أبلغوا عن غضب الله من (ماضي) إسرائيل. وفي خلال النضال ضد الملك أنطيوخس ظهرت شخصية جديدة، ادعت أنها ترى ما بعد الموت، وما بعد

التاريخ نفسه، وترى المستقبل الذي كان الله يخبئه لخدامه المعذبين. على عكس الأنبياء القدامى، لم يحتل مركز الصدارة ليعلن عما قاله له الصوت. بقي في الظل كجاسوس وسجل ما سمعه ورآه كتابة. ومثله مثل الجاسوس الذي يرسل تقريرًا من أرض العدو، قام بتشفير رسالته بحيث لا يستطيع إلّا من معه قراءتها. يطلق على هذه الطريقة في نقل المعلومات السرية من الله كلمة (رؤيوي)، وهي كلمة يونانية محظورة لها تعريف بسيط. إنها تعني كشف ما هو مخفي، بالطريقة التي يتم بها سحب الستارة المسرحية للكشف عما يحدث على المسرح. إن أفضل طريقة للتفكير

في الكُتّاب الرؤيويين هي أن نعدهم بمثابة وكلاء مشتركين في خطط الله للمواجهة النهائية ضد العدو. فهم من يتم إرسالهم ليهيئوا شعبه للغزو.

وأول وكيل رؤيوي أطلق على نفسه اسم دانيال، الذي وضع رسالته في كتاب قصير لا يفهمه سوى قرّائه اليهود. وضعه في بابل خلال فترة المنفى قبل مئات السنين، ولكن كان في الواقع حكاية مشفرة عن أعمال الاضطهاد التي مارسها الملك انطيوخس التي كانت تحدث في الوقت ذاته الذي كان يكتب فيه الكتاب. يتألف الكتاب من ست قصص، وحلمين. والقصة الأكثر شهرة تبرز دانيال نفسه، وكان من المفترض أن تُطمئن اليهود أنهم سوف ينجون من غضب مضطهدهم.

في القصة أصبح دانيال، وهو أحد اليهود المنفيين في بابل، وزيـرًا في الإمبراطورية الفارسية. كان محط إعجاب الملك

داريوس – بن كورش، الملك الذي سمح لليهود بالعودة إلى يهودا – ليس لإخلاصه لإلهه فحسب، بل لكفاءته. بيد أن سمعة دانيال أثارت غيرة الوزراء الآخرين فنصبوا له فخًا، متملقين للملك داريوس مقترحين عليه أن يُشرّعَ قانونًا في أنحاء الإمبراطورية كلها يحرّم فيه، مدة شهر واحد، الصلاة لأي إله آخر غير داريوس نفسه، وكل من يخرق القانون يعاقب برميه في عرين الأسود. أقر داريوس القانون، وفرك المتآمرون أيديهم غبطةً. كانوا يعلمون أن دانيال سيستمر في الصلاة إلى إله إسرائيل، مهما كانت النتيجة.

تسللوا إليه في البيت، ووجدوه يتلو صلواته، فأبلغوا الملك بذلك. غضب الملك عندما أدرك أنه وقع في فخهم، ولأنّه كان قد وقع على القانون فلم يرَ مخرجًا من معضلته، فأرسل دانيال بقلب حزين إلى عرين الأسود عقابًا له. إلّا أنه ظهر في صباح اليوم التالي، ولم يمسّه أيٌّ ضرر من ليلته مع الأسود. لقد عرف قرّاء دانيال أن هذه القصة لم تكن عن حدث وقع قبل ثلاثمائة عام في بابل. كانت حول ما كان يحدث في إسرائيل في أثناء ممارسات الاضطهاد التي يقوم بها الملك أنطيوخس لكونهم مخلصين لله. كان دانيال يخبرهم بأنّه على الرغم من أنه قد تم إلقاؤهم في عرين الأسود، فإنّ الله سينقذهم إن صمدوا. فهدف هذا الكتاب كان تعزيز مقاومتهم.

لكن ذلك لم يكن هدف دانيال الوحيد. لم يكن يريد أن

يريح إسرائيل في خضم معاناتها فحسب، وإنما أراد أن يعدّها لمعركة الله النهائية ضد عدوها. وعلى عكس الحكماء الهنود الذين رأوا الزمن كعجلة تدور إلى ما لا نهاية تصارع الروح للهروب منها إلى عدم باعثٍ على السعادة، رأى المفكرون اليهود الزمن كسهم أطلقهً الله ينتهي ما أن يصل إلى هدفه. بالنسبة لدانيال، كان الًزمن قريبًا هناك. ففي نهاية رحلة الزمن، سيتم أخيرًا تبرئة إسرائيل من معاناتها، وسينهض موتى العصور السحيقة من قبورهم لملاقاة خالقهم ليخضعوا لحكمه. هنا يقدم دانيال لإسرائيل للمرة الأولى فكرة الإيمان بالحياة بعد الموت، والحساب فِي الآخرة عندما تتم تسوية الحسابات كلها وفقا لقانون الله.

حتى هذه اللحظة من تاريخها، أبدت إسرائيل اهتمامًا قليلاً بالحياة بعد الموت. قد نواجه الله، ولكن عند الموت يكون زمن الناس قد انتهى وغادروا المشهد. بعدها تذهب الأرواح الراحلة إلى عالم سفلي مبهم يدعى عالم الموتى (شيول)، الذي كان مكانًا للنسيان لا يتم تذكّر حتى الله فيه. غيَّر كتاب دانيال كل ذلك، أخبرهم أنه في نهاية التاريخ سيظهر الله في الزمان، و«سيستيقظ أولئك الذين ينامون تحت تراب الأرض، بعضهم يذهب إلى حياة أبدية، وبعضهم إلى عارٍ وهوانٍ أبديَيْن».

كانت فكرة انبعاث الأموات فكرة جديدة على الديانة اليهودية، وستظل دائمًا فكرة مثيرة للجدل. وسيأتي زمن ينقسم فيه المعلمون اليهود على مؤمنين بها، وغير مؤمنين. لكنها كانت فكرة تتخذ وقعًا أسرع مع مرور الوقت. لم يكن دانيال يؤمن

بانبعاث الأفراد واحدًا تلو الآخر بعد موتهم، ولكنه يؤمن في ما يسمى (البعث العام). فسيرقد الجميع في قبورهم إلى أن يحدد الله نهاية للتاريخ، عندها سيقومون في الوقت نفسه لمواجهة يوم الحساب، ودانيال لم يكن يعتقد أنه سيطول وقت انتظارهم.

كان دانيال يمتلك فكرة كبيرة أخرى، فلكي يظهر لهم أن النهاية كانت قريبة، سيرسل الله عميلاً سريًا خاصًا جدًا يدعى (المسيح) لإعدادهم للهجوم الأخير. تعني كلمة المسيح (الممسوح). ففي الماضي، عندما عيّن اليهود ملكًا ليقودهم، مسحوا رأسه بالزيت علامة على أنه خادم الله. كان دانيال يقول لإسرائيل إن الزمن وآلامه سينتهيان قريبًا، والعلامة التى تشير

إلى أن نهاية العالم قد اقتربت هي وصول المسيح. لكنه لن يأتي من الفضاء الخارجي، ولن يهبط من السماء، بل سيكون أحد الذين يعيش وسطهم، وسيتم الكشف عنه، وستعرف هويته. فربما كان هنا بالفعل – لذلك أبق عينيك مفتوحتين! بهذه الطريقة أعطى دانيال الأمل لإسرائيل فترةً من وقتٍ تنتهي فيه معاناتهم، ويمسح الله الدموع من عيونهم. لذلك بدأوا يترقبون المسيح وينتظرونه. لكنه لم يصل أبدا، وازدادت الأمور سوءًا.

إن التعسف الذي مارسه الملك أنطيوخس كان يسيرًا هيّنًا مقارنة بما حدث عندما استولى الرومان على فلسطين في 63 قبل الميلاد. فبعد 150 عامًا من الاضطرابات المتواصلة التي تخللتها فترات من الحروب المفتوحة، قبل أن تحل النهاية في الآخر. كان الهيكل في أورشليم من جديد بمثابة مانعة الصواعق، فهو أغلى

عند اليهود من حياتهم، إذ يحافظ على رمز الرب الذي دعاهم للخروج من مصر قبل أكثر من ألف سنة مضت. لكن شغف اليهود العنيف بإلاههم حيَّر حكامهم الجدد، الرومان، فالآلهة بالنسبة للرومان كانت عديمة القيمة، ولم يأخذها العقلاء على محمل الجد، فماذا عن هذا الإله الذي دفع اليهود إلى هذا التفاني الانتحاري؟

وفقا للأسطورة، حين غزا الجنرال الروماني بومبي أورشليم في عام 63 قبل الميلاد قرر البحث عن إله اليهود في هيكله. كان مبنى الهيكل عبارة عن سلسلة من الردهات الكبيرة التي تتعاظم قداستها. توغل بومبى في هذه الردهات حتى وصل إلى الحرم

المسمى قدس الأقداس، كان هذا الجزء هو الأكثر قداسة في الهيكل الذي لا يُسمح إلّا للكاهن الأكبر بالدخول إليه. تقدّم بومبى بكل إجلال إلى قدس الأقداس، متوقعًا النظر إلى إله إسرائيل، بيد أنه كان خاليًا. لا شيء هناك!

لأن اليهود كانوا يعلمون أنه لا شيء هناك، أو لا يوجد من يمكن أن يمثّل الصوت الذي لازمهم قرونًا. فقد توغلت الوصية الثانية عميقًا في نفوسهم، وبنوا هذا المعبد الرائع بحجارته المنقوشة وسلسلة ردهاته الجميلة. لقد أحبوا هذا المعبد وكانوا سيحزنون على خسارته عبر تاريخهم، على الرغم من أن داخله كان (خاليًا)! ابتعد بومبي وقد أربكه لغز ديانةٍ رمزُ إلاهها حجرةٌ فارغة.

على مدى القرن القادم تحولت حيرة الرومان إلى غضب لأنهم وجدوا أنه من المستحيل استيعاب طرق هذا الشعب

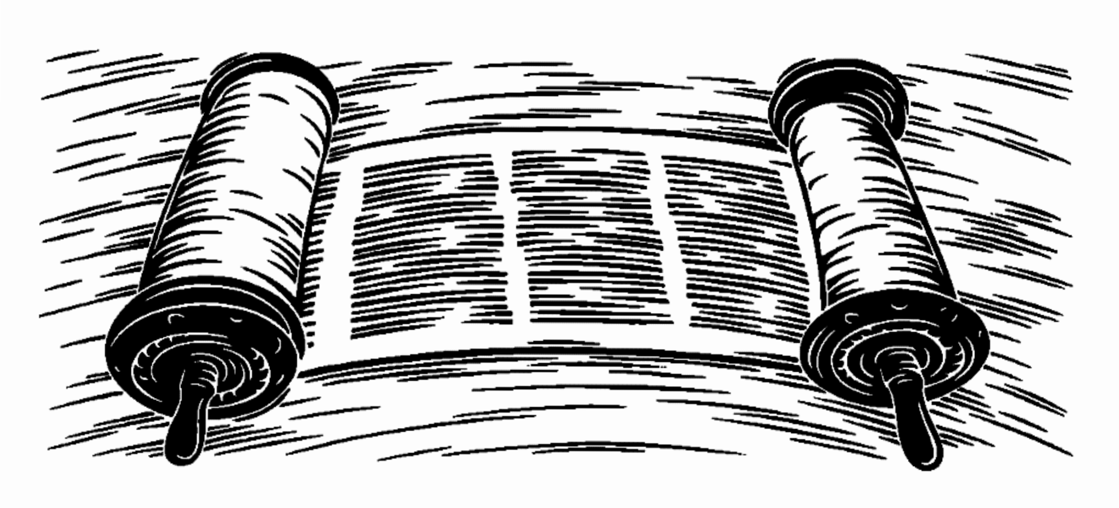
العنيد وإلهه المراوغ. لذا قرر الرومان القضاء عليهم بالكامل، ففي عام 70م، وتحت قيادة جنرال يدعى تيتوس، قاموا بسحق أورشليم القدس بوحشية، ودمروا الهيكل الذي استمر اليهود في توسيعه، وزخرفته بشكل كبير منذ زيارة بومبي قبل 140 سنة. وأخيرًا انتهى الأمر، هكذا فكر تيتوس: لقد دمرتهم!

لكنهم كانوا في منأى عن التدمير. فعلى الرغم من أن اليهود قد تفرقوا في كل زاوية من زوايا الأرض، وعاشوا في منفى طويل آخر، وفقدوا كل شيء، إلّا أنهم احتفظوا بأكثر ما يهمهم: وهو إلههم. كانوا يعلمون أن أي مبنى من الحجر يمكن أن يضم هذا

الإله. كانوا أيضًا يرتابون من أولئك الذين اعتقدوا أن بإمكانهم احتواء الله في بنية الكلمات. وفي الوقت الذي تحملوا فيه هذا المنفى الجديد، وانتظروا قدوم المسيح، قاموا بتطوير تقليدٍ يعارض أي محاولة لتعريف الله من منظور إنساني.

وظهرت شخصية جديدة مهمة، ساخطة على الساحة، وهي شخصية المهرطق. والهراطقة هم أشخاص مرتبكون يطرحون أسئلة محيّرة، ويتحدون تفكير الأغلبية، ولديهم الكثير مما يعلموننا به، وقد وجدنا الأكثر شهرة منهم وسط الكتاب المقدس اليهودي.

الفصل الثاني عشر



المهرطق

عندما أراد الرئيس الأمريكي جون ف. كينيدي تقليص عدد القنابل النووية في العالم؛ لأنه اعتقد أنها حولته إلى مكان أكثر خطورة، واجه الكثير من المعارضة. وكان أشدّ نقاده تعنتًا برأيه الفيزيائي النووي الذي آمن أنه كلما امتلكت أمريكا المزيد من القنابل كانت أكثر أمانًا. وحين سُئل الرئيس بشأن هذا، أشار إلى أن أي شخص لديه قناعة تامة بشأن ما، وخاصة إذا

كان هذا الشخص خبيرًا، فلا بد من أن يصدم من لديه عقل متفتح. واستطرد قائلاً إن هذا هو ميزة وجود العقل المغلق.

فيما يخص العقل المغلق، فإن النضال الوحيد المتبقي في الحياة هو أن يخوض معركة فرض وجهات نظره على الآخرين.

والاسم التقني لهذا النوع من اليقين هو (الأرثوذكسية)، المشتق

من الكلمة اليونانية التي تعني المعتقد الحقيقي، أو التِزام طَرِيق الصواب. فشخص مثل الرئيس كينيدي عارض وجهة النظر الأرثوذكسية بشأن القنبلة النووية، يعدّ شخصًا مهرطقًا، وآراؤه هي بمثابة (هرطقة). هذه الكلمة هي الأخرى مشتقة من اليونانية وتعني الشخص الذي يخالف العقيدة المتبعة. تنتشر العقيدة الأرثوذكسية والهرطقات في كل مكان في الحياة الإنسانية، لكن وجودهما يكون أقوى في الدين بوجه خاص. إن مراقبة كليهما على أرض الواقع تساعدنا على فهم سبب اختلاف الأديان الدائم مع بعضها، وتتحول أحيانًا إلى خلافات عنيفة داخل الدين نفسه.

معظم الأديان تبدأ بالهرطقات: يستجيب النبي لصوت داخلي يتحدى الرأي السائد، وعلى هذا النحو سخر إبراهيم من الآلهة في متجر والده. لكن ما يحدث عادة بعد ذلك هو

الانقسام الذي ينطلق منه المهرطق، فيبدأ دين جديد، أو ينشأ فرع منافس للدين القديم. في بعض الأحيان يفوز المهرطقون بالحجة، وتغدو أفكارهم عقيدة أرثدوكسية جديدة في الحياة. أما أن يبقى العقل المغلق مغلقًا، ويذهب الإلهام الجديد إلى مكان آخر، أو أنه ينفتح بما يكفي ليسمح باستيعاب الرؤية الجديدة.

تعايش اليهود مع هذه العملية أفضل من أتباع الديانات التوحيدية الأخرى. فمنذ البداية كانت الحجة، والاختلاف في الرأي أمرين محوريين في حياتهم. الجدل، بطبيعة الحال، موجود في الأديان جميعًا، لكن معظمها يغلق النقاش بأسرع ما يمكن، ويفرض اتجاهًا على الجميع أن يقبله، أو يخرج منه. فهم يحبون

الأشياء منظمة. لكن الدين اليهودي لم يكن أبدًا هكذا. كان يعلم أنه لا يوجد أمر في الدين لا يمكن المجادلة فيه، ويعتقد أنه من الأفضل الاستمرار في الجدل، بدلًا من قفل عقولهم في صندوق حديد، وإلقاء المفتاح. وفي صميم الكتاب المقدس لليهودية نجد مهرطقًا يدعى أيوب دافع عن قضيته ضد الأرثوذكسية اليوم.

كانت قصة أيوب معروفة منذ فترة طويلة بوصفها حكاية شعبية، لكن في أثناء المنفى في بابل، عمل شاعر مجهول عليها، واستخدمها وسيلة لاكتشاف مشكلة المعاناة. ربما كان لليهود حاجة أكبر من أي جنس آخر لمعالجة هذه المشكلة. فقد تم محو دول وشعوب أخرى من التاريخ بفعل ما قامت به الإمبراطوريات العظيمة؛ ولكن، في الأقل، انتهتْ معاناتها، أما اليهود فلم يبدُ، أبدًا، أن ثمة نهاية لمعاناتهم. لقد انتهوا بوصفهم أمة في عام 70م،

وتُرِكوا بلا أرض يسمونها وطنًا، لقد انتهوا إلى تاريخ من التشرد، والرفض في كل مكان ذهبوا إليه، ولم يشعروا بأمانٍ أبدًا في أي مكان ذهبوا إليه، ولفترة طويلة ظلت حقائبهم مُوَضَّبة، وجاهزة للنزوح، والمنفى القادمَيْن.

لقد فقدوا الأرض والمعبد، لكنهم احتفظوا بكتابهم الذي أصبح البيتَ الروحي لهم، الذي يمكن أن يدسوه في حقائبهم ما أن يُطردوا مجددًا. وحتى لو أخذ منهم الكتاب فقد حملوا جوهره في ذاكرتهم متمثلاً ببضعة أبيات من أسفار موسى الخمسة التي يعرفونها جميعا عن ظهر قلب. لقد أطلقوا عليها اسم صلاة الشيما، وهو اسم مشتق من الكلمة العبرية (يسمع) أو (ينصت)،

«اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. فالتُحِبَّ الربّ إلهكَ من كلِ قلبِك، ومن كلِ نفسِك، ومن كل قوتِك». على وفق التقليد اليهودي القديم، تلا النبي دانيال صلاة الشيما في عرين الأسد، وظهر سالمًا. لقد شجعت قصة دانيال إسرائيل في لحظات الخطر العظيم. لكن ما الذي يمكن أن يشجع اليهود الآن وهم يُسحَقون بين فكي الأسود؟ لماذا صارت المعاناة حياة إسرائيل؟

هذا هو السؤال الذي أجاب عنه سفرُ أيوب. لكن لم يكن لدى أيوب إجابة واثقة عن السؤال الذي طرحه الناس منذ قرون، جُل ما فعله هو تدمير الرؤية الأرثوذكسية التي تعزو عقاب الله للذنوب التي اقترفوها، وهي لحظة كبيرة في تاريخ الدين، إذ يقدم لنا رجلاً بسيطًا يعرف الفكرة الخاطئة عندما يراها، على الرغم من أن دينه يقول له إنه لا يمكن أن يكون مخطئًا، لأن الله

يقول إنها صحيحة. لذا يسأل نفسه: هل يمكن لله أن يحول الخطأ حقيقة لمجرد القول إنه كذلك؟ كلا، الخطأ هو الخطأ مهما يقُل الله، أو مهما يقُله الكهنة لي إنه كلام الله. أعلم أن تفسيرهم هو تفسير خاطئ، وسأقول ذلك حتى لو أطبقت السموات عليّ. فأيوب هو المهرطق الذي يقف في منتصف الكتاب المقدس، ويتحدى تعاليمه الخاصة.

عندما نفتح سفر أيوب يُقال لنا إنه رجل صالح، ومستقيم وصادف أن يكون فاحش الثراء، إضافة إلى أن له سبعة أبناء وثلاث بنات يعشقهم، ويمتلك سبعة آلاف من الأغنام، وثلاثة آلاف جمل، وخمسمائة من الثيران، وخمسمائة من إناث الحمير،

وعنده عددٌ من الخدم، والعقارات لا يعد، ولا يحصى. وبقيمة عملة ذلك الزمان والمكان كان ثريًا لأبعد الحدود.

ولكن في غضون أيام قليلة سُلِبَ منه كل شيء، إذ سرقت ماشيته، وقتل خدمه، وأطفاله، وابتلي، هو نفسه، بمرض جلدي رهيب. تُرِك جالسًا في مكب للنفايات، وهو يحك جسده بقطعة من الفخار المكسور. معاناته مطلقة. تقول له زوجته إن عليه أن يلعن الله، ويموت، لكن أيوب، مع معاناته، كلها كان يردد: «عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَعُرْيَانًا أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ. الرَّبُّ أَعْطَى، وَالرَّبُّ أَخَذَ، فَلْيَكُنِ اسْمُ الرَّب مُبارَكًا».

في المشهد التالي يقترب ثلاثة أصدقاء من أيوب يقولون إنهم قد أتوا لمواساته، لكنهم في الحقيقة أرادوا استجوابه. هم نوع من المؤمنين الذين لديهم إجابة عن كل شيء، حتى عن موجة الخسارة العارمة التي اجتاحت أيوب. يجتمع إليفاز التيماني،

وبِلدد الشوحيُّ، وصوفَر النعماتي أمام صديقهم المنكوب ويبدأون استجوابهم القاسي. يعيدون قول الأشياء نفسها مرارًا وتكرارًا، لكن بسخط متصاعد، وإليفاز التيماني هو من بدأ أولاً التفسير الرسمي لحالة أيوب.

يقول إيلفاز إن الأبرياء يبقون أحياء للأبد، في حين يحصد الأشرار حصاد الألم. إنك تجني حصادًا من الألم، لذا أخبرنا، ما الذي فعلته ليقع عبء هذا البؤس كله على أكتافك؟ رفض أيوب قبول منطق اتهامهم هذا. فمهما كان سبب هجمة إلهه

عليه، لا يمكن أن تكون خطاياه قد جلبت هذه المصائب على رأسه، فهو يعرف أنه رجل مستقيم لم يفعل شيئًا ليستحق ذلك.

لم يقترب أصدقاء أيوب منه بعقل متفتح، فلم يخطر ببالهم أبدًا أن النظرية الرسمية قد تكون خاطئة. لو أرادوا أن يضعوا باعتبارهم هذا الاحتمال، فإن كل شيء في عالمهم الديني سوف ينهار، لذا كان التمسك بالاتجاه المتبع أفضل من الوقوع في الشك. لكن أيوب تمسك بقصته، ولابد من أن تكون العقيدة خاطئة، لأنه يعلم أنه لم يفعل شيئًا يستحق الخراب الذي قضى على عائلته وثروته.

رجل عادي أُقحِم في وضع غير عادي، وبدلا من الخضوع للاتهامات الموجهة إليه، يجد أيوب الشجاعة للطعن في نظرية وحشية. فحتى إذا كان من المستحيل إثبات براءته في هذه

الحياة - فإثبات ما هو سلبي أمر مستحيل دومًا - فهو يؤمن أنه بعد موته سوف يبرئ الله سمعته: «أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ وَلِيِّي حَيٌّ، وَالآخِرَ عَلَى الأَرْضِ يَقُومُ وَبَعْدَ أَنْ يُفْنَى جِلْدِي هذَا، وَبِدُونِ جَسَدِي أَرَى اللهَ. الذي أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر. إلى ذلك تتوقُ كليتاي في جوفي». (أيوب 19: 25 - 27).

لم يتعين على أيوب أن ينتظر الموت للحصول على براءته. فالله نفسه قد ظهر، وأدان أولئك الذين حاولوا اتهام أيوب بالإساءة إليه. قال الرب لأليفاز التيماني: «قَدِ احْتَمَى غَضَبِي عَلَيْكَ وَعَلَى كِلاَ صَاحِبَيْكَ، لأَنَّكُمْ لَمْ تَقُولُوا فِيَّ الصَّوَابَ كَعَبْدِي أَيُّوبَ». إنه

الهرطقي الذي حظيَ بمباركة الله، وليس المعلمين الأرثوذكس الذين يوردون حجج منهجهم العام تكرارًا، ومراراَ.

لكن حتى الله لم يكن مسموحًا له في القصة أن يتحدّى التعاليم الأرثودكسية! وقد عبَّر كاتب حديث عن استيائه من موافقة الآلهة على هرطقة أيوب، فلَفَق نهاية سعيدة للنص. يعطي الله أيوب (ضعف ما كان لديه من قبل)، وبذلك يعيد النظرية القديمة التي تقول إن الأخيار يُكافَأون، والأشرار يُعاقبون على أعمالهم في هذه الحياة. تكمن عبقرية القصة في أنها تتيح لنا رؤية الهرطقة، والأرثوذكسية في مواجهة بعضهما. وليُحكم كل منا عقله.

عندما نتمعن في هذه القصة، يجدر بنا العودة إلى الوصية الثانية التي رفضت الأوثان، وحذرت بني إسرائيل من التفكير

في أن بإمكانهم أن يُعلّبوا الله في صناديق صغيرة، أنيقة ويعرضوه في السوق الدينية. بيد أن هذا ما يفعله الدين المنظم في العادة، بأن يقيد الله في المعتقدات الأرثوذكسية، ويحاول فرضها على الآخرين. هذا ما قام به المواسون لأيوب. فبدلا من الجلوس إلى جانبه في يأسه، ومشاركته حيرته في مصابه، أخبروه حرفيًا كيف رعتهُ يد الله في حالته، وأصروا على أن يقبل تفسيرهم هذا. يجب معتنقو الأرثذوكسية الدينية المتقدمون في علومها القيام بذلك؛ أن يملوا على الناس، بالضبط، ما يفكرون فيه، وأن يفسروا لهم ما تعني الأشياء، وكيف أن ليد الله دورًا في وضعهم. إن إخضاعك لسيل من التفسيرات الذي تقوم به بعض الديانات

يشبه أن تجد نفسك، وأنت في رحلة طويلة بالحافلة عالقًا جنب أحد الثرثارين القهريين، وهو يصرّ على تفريغ هواجسه عليك طوال الليل.

إليفاز التيماني، وبِلدد الشوحيُّ، وصوفَر النعماتي هم من المتعصبين الدينيين الكلاسيكيين الذين يعتقدون أنهم حصلوا على كل شيء مسجلاً، ولا يحبون شيئًا أكثر من تشغيل الشريط لأي شخص يلتقون به. إن الشيء العظيم في سفر أيوب هو أنه لا يخاف أن يصيبنا الملل القاتل، ونحن نستمع إليهم، ليوضح وجهة نظره. لا تكن على يقين من أنك تعرف ما هو الله، أو ما ينوي فعله، هذه هي رسالته.

تعايش اليهود مع هذا النوع من عدم اليقين على نحو أفضل من معظم المؤمنين الآخرين، ولم يحاولوا أن يفرضوا إلاههم على

الآخرين. إنهم مشغولون جدا في الجدال معه بأنفسهم، وبتوفير متسع من الوقت لذلك، ومايزالون مستمرين على الجدال.

لكن علينا الآن أن نتركهم لمواصلة جدالهم الطويل مع الله بينما ننتقل إلى النظر في دين آخر، وهو الزرادشتية، الذي سيعيدنا إلى بلاد فارس في زمن بوذا نحو عام 600 قبل الميلاد. لكن علينا، أوّلاً، أن نتوقف في الهند.

الفصل الثالث عشر



المعركة الأخيرة

على قمة تلال مالابار جنوب مدينة مومباي على الساحل الغربي للهند، قد تقع أعين السيّاح عبر منظارهم على برج حجري غامض يرتفع فوق الأشجار. لكن محظور عليهم تسلق التل لزيارة البرج، إلّا إذا استخدموا طائرة من دون طيار لتصويره، فسيرون سقفًا مسطّحًا محاطًا بجدار منخفض، ينقسم السقف على ثلاث دوائر متحدة المركز. قد تكتشف الكاميرا طيورًا آكلة الجيف على

السطح، وهي منهكة في التهام الجثث التي ألقيت هناك بترتيب خاص، الرجال في الدائرة الأولى، والنساء في الدائرة الثانية، وأجساد الأطفال الصغيرة في الدائرة الثالثة.

إن ما نراه من هذه الطائرة لا ينم عن عملٍ لامبال يستخف بالموتى، بل هو عمل مقدس عميق، طقس جنازة قديم يتبعه

البارسيون (من اتباع الديانة الزرادشتية)، أصغر طائفة دينية في الهند. يعتقد البارسيون أن الجثث نجسة، فإذا دفنوها فسيلوثون الأرض التي استقبلتهم، وإذا أحرقوها فسيلوثون النار التي تلتهمهم. كما أنهم يؤمنون بالرفق بحيوانات القمامة التي تساعد على تنظيف الأرض، لذا يبنون أبراج (الصمت) التي يعرضون بها موتاهم إلى حرارة الشمس اللافحة، والمناقير الحادة للغربان والنسور. ما أن توضع الجثث فوق البرج، فلن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى يتم تجريد اللحم عن أجسادها، تاركًا الهياكل العظمية تبيّضها الشمس، ومن ثم يجري تجميعها في غرفة العظام وسط البرج، حيث تتحول ببطء إلى غبار يتخلل التربة التي سيجرفها البحر. وهكذا يصبح الجسم الذي يفقده الإنسان في الموت هبة الحياة المستمرة للحيوانات التي تتغذى عليها. كل

شيء يعود إلى الطبيعة. لا شيء يضيع.

على الرغم من أن البارسيين الذين يبنون أبراج الصمت هذه كانوا في الهند عدة قرون، فهم، أصلاً، جاءوا من بلاد فارس، كما يوحي اسمهم. وفارس اسم اطلقه اليونانيون على إيران، وهي أرض تقع إلى الشمال الغربي من الهند. يتبع البارسيون دينًا يدعى الزرادشتية الذي نشأ في إيران في الفترة نفسها تقريبًا الذي نفيت فيه إسرائيل في بابل في القرن السادس قبل الميلاد. بخلاف البارسيين الموجودين في الهند، لم يبق الكثير من الزرادشتيين في العالم اليوم، ولكن دينهم له تأثير عميق في الأديان الأخرى، بما في ذلك اليهودية. وبما أن الديانتين المسيحية والإسلام تعود

أصولهما إلى اليهودية، وهما الديانتان الأكثر انتشارًا في العالم.
يمكن وصف زرادشت مؤسس الزرادشتية بوصفه واحدًا من أكثر الشخصيات الدينية تأثيرًا في التاريخ. لسنا متأكدين من تاريخ ولادته في وقت لم يكن يحتفظ فيه إلّا بسجلات قليلة، لكن من المرجح أن زرادشت قد ولد في عام 628 قبل الميلاد وتوفي في عام 551 قبل الميلاد، وقتل على يد كاهن خصم له.

إن حقيقة زرادشت الكاهن الذي قُتل على يد كاهن آخر، تذكرنا مرة أخرى بواحدة من أقوى خصائص الدين: وهي قدرته على الخلاف العنيف. هذا لأن المصدر المطلق للدين هو مكان لا يمكننا أن نستكشفه بالطريقة ذاتها التي يمكننا بها قياس مساحة جزيرة نائية لتسوية النزاع فيها. فمصدر الدين خارج الأرض، في واقع يتجاوز واقعنا هذا، يكشف الأنبياء لنا عن

أسراره ومن يدّعون أنهم استحوذوا على ألغازه، فهم يعلنون للعالم ما أملته عليهم الأصوات التي سمعوها، ويبلغون عن ولادة دين جديد. لكن بما أن كل دين جديد يُعد اعتداءً على عبادة قديمة، فليس من المستغرب أن يجتمع كهنة الدين القديم ضد أنبياء الدين الجديد. هذا هو سبب قول أحد أعظم الشخصيات في التاريخ الديني أن على الأنبياء أن يعانوا ويموتوا دائمًا من أجل رؤيتهم. كان زرادشت كاهنًا لدين قديم أصبح نبيًا لدين جديد، لذلك كان لا بد من أن يقع في ورطة.

من أسهل الخلافات الدينية التي يمكن فهمها، تلك التي تنشب بين المشركين والموحدين، بين أولئك الذين يعتقدون أن

الكون يعج بالآلهة، والذين يؤمنون بوجود إله واحد فقط. كان إبراهيم أول موحّد، وزرادشت كان لديه الحق في الوقوف إلى جانبه، لكن ما شاهده في رؤياه، وسمعه من أصوات كان أكثر تعقيدًا بكثير من أي شيء تم الكشف عنه لإبراهيم، لأنه، ومثل العديد من أصحاب الرؤى الدينيين، كان زرادشت مستغرقًا في المشاكل.

قد ينظم التوحيد فوضى ملايين الآلهة المتنافسة، لكنه يأتي مع صعوبات خاصة به. وكما رأينا، كانت الصعوبة التي تعاني منها إسرائيل هي مشكلة المعاناة: فلِمَ اختارهم الله ليبلوهم بكل هذا الألم والحزن المستمر؟ بيد أن صعوبة زرادشت كانت أعمق، وأكثر عالمية. فقد تساءل الذين كابدوا المعاناة عن سبب حلول الأشياء السيئة في الصالحين. فأراد زرادشت أن يتعمق أكثر،

ويكتشف كيف دخل الخير، والشر العالم في المقام الأول. ففيما يخص البشر، كانت الحياة معركة من أجل البقاء، ليس فقط ضد عناصر الطبيعة، بل ضد نوعهم هم، فكثير منهم كان قاسيًا ولامباليًا تجاه الألم الذي ألحقه برفاقه. ما هو منبع هذا الشر؟ وهل سيتم تعويض الذين تحملوه في يوم ما؟ وهل سيعاقب من تسبب به على الإطلاق؟

تلك كانت الأسئلة التي انتزعت زرادشت بقوة من حياة الطمأنينة التي كان يعيشها كاهنًا لدين قديم متعدد الآلهة في فارس. ومثل العديد من الباحثين الروحيين الذين سبقوه، دفعته هذه الأسئلة إلى قضاء سنوات في التأمل منعزلاً يفكر في

طبيعة الشر. ثم جاءه الحل، في سلسلة من الرؤى كشفت له أن الصراع بين الخير والشر هو أقدم من التاريخ البشري، وجذوره موجودة في صميم قلب الله! كان هناك، فعلاً، إله واحد أعلى، سماه (الرب الحكيم)، أو (أهورا مازدا)، لكنه اكتشف التعقيد الذي يكتنف حياة الله الواحد. ففي البداية كان (الرب الحكيم) قد أنجب توأمين غير متطابقين، ما سمح لكل منهما باختيار طريقه الخاص. اختار أحدهما الخير، واختار الآخر الشر. اختار الأوّل الحقيقة، واختار الثاني الكذب. وهكذا أصبح العالم - وكل فرد داخله - ساحة معركة درامية بين الخير والشر، وتحارب الأبناء فيما بينهم، كل يحاول أن يكسبنا إلى جانبه. ومثل أبناء الرب الحكيم، يجب علينا أيضًا أن نقرر، من جانبنا، أيَّ طريق سنسير فيه.

وحقيقةً، لم يحلّ المشكلة التي يواجهها زرادشت إعادتُهُ

الصراع بين الخير والشر إلى حياة الله. فالتفسير الكامل يلزم الرب الحكيم أن يقول لِمَ اختار خلق الشر في المقام الأول ووضع أبنائه تحت رحمته؟ ولكن ما فعله زرادشت بقدرة هائلة أنه صوّر، بطريقة درامية، الوضع الذي وجدنا أنفسنا عالقين فيه. ومثل روائي بارع، وصف زرادشت حياة الإنسان على أنها سلسلة من الصراعات. فصراعاتنا الأخلاقية تتلاءم مع لغة الحرب. نحن (نكافح) ضد الإدمان، و(نتصدى) للمغريات. فحتى فكرة الروح الحقيقية للشر يمكن أن تكون منطقية، فثمة أفكار يمكن أن تصيب العقل البشري كالفيروس وتحثّه على اقتراف

أفعال رهيبة، والعنصرية هي المثال الأكثر وضوحا إلى جانب العديد من الأمثلة الأخرى.

لكن زرادشت كان أكثر من مجرد كاتب مسرحي يعكس التجربة الإنسانية. ومثل النبي دانيال، كان الرؤيوي الذي رأى ما وراء التاريخ وصولاً للزمن الذي يضع فيه الله نهاية لقصة العالم. تحتاج الكتب الجيدة إلى فصل أخير تربط فيه الأطراف السائبة معًا، ويتم التوصل فيه إلى حلّ مُرْضٍ. هذا الحافز موجود بقوة في الأديان التي ترى التاريخ كسهمٍ لا دائرة: قصة لها بداية، ووسط، ونهاية، وليست عجلة تدور بلا نهاية.

لم يعتقد زرادشت أن الخير والشر سيقعان أسيرَي الخلافات إلى الأبد. سيكون هناك حساب الآخرة. والرب الحكيم خلق الخير والشر بطريقة تمنحنا حرية اختيار مصائرنا، والوقت المناسب لتحقيقها، ولم يكن لا مباليًا بخياراتنا. كانت مأساة أولئك الذين

اختاروا الشر أنهم لم ينظروا بعيدًا بما فيه الكفاية حتى يروا عواقب أفعالهم، فكل اختيار ساعد في تكوين شخصياتهم، وفي الآخرة سيتم الحكم على نوع الشخص الذي صنعوه بأنفسهم. عند الموت، تعبر كل روح جسر (تشينفات) أو جسر يوم الحساب إلى المصير الذي أعدته لنفسها. كان الجسر ضيقا مثل شفرة الحلاقة. على الجانب البعيد توجد الجنة، ولكن تحتها تكمن الجحيم. ما يحدث أن الروح التي أثقلت نفسها بالشر يسحبها وزنها الثقيل من الجسر إلى الجحيم، أو تعبر بسهولة الروح بخفتها المفعمة بالخير، وهى ترقص إلى الجنة.

حتى هذا لم يكن العنصر الأكثر درامية في رؤية زرادشت للنهاية. كان من الضروري حل مشكلة وجود الشر نفسه، فهو الشر عينه الذي سحب الأرواح من الجسر المؤدي إلى الجنة. جاءت فكرة الحل لزرادشت في ما يدعى (التحول الأخير للخلق)، عندما قام الرب الحكيم في النهاية بتدمير التوأم الشرير، مبدأ الشر. وبهذا سيتجدد العالم ويسود أخيرًا الخير والعدالة، وسيظهر المنقذ، الذي يطلق عليه اسم السوشيانت، أو الشخص الذي يجلب الخير، ومن خلال تمثيله سيهزم الشر في نهاية المطاف، وسيتبعه تجديد العالم.

فضلًا عن كون تعاليم زرادشت مضيئة ومخيفة، فإن تأثيرها كان غامرًا، كما أدخلت عددًا من الأفكار الجديدة إلى الدين في العالم. إنها الديانة التي تطلعنا، لأول مرة، على فكرة الانبعاث

فرادى إما نحو سعادة الفردوس، أو عذاب الجحيم. وهي الديانة التي كشفت لنا، لأول، مرة فكرة المعركة الكبرى في نهاية الزمان التي يرسل فيها الله المنقذ ليقضيَ على الشر، ويقيم عالماَ من البِّر والعدالة. لقد لاحظنا بالفعل كيف أن النبي دانيال أدخل هذه الأفكار نفسها ليستفيد منها في محاولاته لمواساة إسرائيل في معاناتها، وهي الأفكار التي ربما التقطها اليهود في خلال منفاهم في بلاد فارس. ذلك يذكرنا أن الأديان ليست معزولة أحدها عن الآخر، وكثيرًا ما تتبادل الاستفادة فيما بينها باستمرار.

لاقى زرادشت المعارضة، لكنه أيضًا حظي بالموافقة والنجاح، وجرى جمع تعاليمه في كتاب الزرداشتيين المقدس ويدعى

(الأفستا). وبدأت عملية تحويل الهرطقة إلى الأرثوذكسية. كان الزرادشتيون لا يثقون دائمًا بالمجاز، لكنهم كانوا يمتلكون رمزًا خاصًا يمثل الرب الحكيم، وهو النار. أبقوا النار المقدسة مشتعلة في معابدهم، وهذا هو السبب في وصفهم، خطأً، بعبدة النار. كان مؤكّدًا أنّ النار مقدسة لديهم، ولكن بوصفها رمزًا فحسب لحياة الرب الحكيم الأبدية. ونصحوا أتباعهم بممارسة الأفكار الجيدة، والكلمات الطيبة والأعمال الحسنة في حياتهم لأنها ستساعد أرواحهم على أن تعبر سريعًا جسر تشينفات عندما يموتون، ويتم نشر جثثهم على سطح أبراج الصمت هديةً إلى الطيور في السماء. ما يزال بالإمكان العثور على أبراج الصمت على قمم التلال الإيرانية، نصبًا تذكارية من الماضي، كانت تمثل، مرّةً، الديانة الرئيسة للبلاد. لكن الديانة الزرادشتية عانت من القانون نفسه الذي جعلها تحل محل العقيدة السابقة،

وجاء الزمن الذي باتت فيه نهايتها وشيكة. لقد عاشت على مدى قرون في إيران، أرض مولدها، ولكن قبل 1300 عام، تم استبدالها بدين جديد، صارم يدعى الإسلام. وفي هذا الوقت، قام الزرادشتيون برحلة طويلة إلى الهند حيث تمتعوا بالحرية مرة أخرى بإشعال النار المقدسة، وبناء أبراجهم الصامتة، والتفكير بأفكار جيدة، والتحدث بكلمات طيبة، وأداء الأعمال الصالحة. وعلى الرغم من قلة عددهم، مكثوا هناك.

قبل البدء في فصل جديد، أريد العودة إلى بعض من الأرضية التى قمنا بتغطيتها لنستخلص بعض الاستنتاجات مما تعلمناه.

وأفضل مكان للبدء به هو نسخة الديانة الجاينية لحكاية العميان، والفيلة الرمزية. مضمون رسالة هذه الحكاية أن البشر، بسبب رؤيتهم المحدودة، غير قادرين على امتلاك معرفة كاملة بالحقيقة المطلقة، لذا يجب أن يكونوا متواضعين بشأن الادعاءات الدينية التي يقدمونها.

وعلى الرغم من هذا التحذير، نادرًا ما يشك أنبياء الدين وحكماؤُهُ فيما يخص معتقداتهم، لأنهم (رأوا)، و(سمعوا) ما يكمن وراء الحجاب المعلق بين البشر، والحقيقة المطلقة. لقد وضعت، بوعي، فواصل مقلوبة حول الفعلين (رأوا) و(سمعوا) لتذكرنا أن علينًا أن نقرر بأنفسنا كيف نتعامل مع الادعاءات التي قدموها بشأن تجاربهم، لأنهم، جميعًا، رأوا أشياء مختلفة، أو رأوا الأشياء نفسها بطريقة مختلفة!

رأى حكماء الهندوس دوران عجلة الكارما (الاعمال التي تقرر مصير الإنسان في الآخرة)، والبعث والدوران اللانهائي للزمن نفسه. وأصبحت هذه الأفكار هي العقائد الأساسية للدين الهندي.

رأى الأنبياء اليهود الإله الواحد الحقيقي الذي سيرسل، عندما يحين الأوان، المسيح المنتظر ليضع نهاية للتاريخ، وهو الأمل الذي يدعم العديد من اليهود المؤمنين حتى يومنا هذا.

وشهد زرادشت نزاعًا أخيرًا بين الخير والشر في نهاية الزمان، الذي سينتصر فيه الخير.

على الرغم من أن كلّاً منا يفسرها بطريقة مختلفة، إلّا أن مؤسسي هذه الأديان كانوا أكثر اهتمامًا بما رأوه في الجانب الآخر من التاريخ مما يحدث الآن.

ولكن عندما نصل إلى الصين في محطتنا التالية، سنكتشف أن حكماءها كانوا مهتمين بالطريقة الأفضل لعيش هذه الحياة أكثر من اهتمامهم بما ينتظرهم في المرحلة التالية. لذا دعونا الآن نتجه شرقًا على طول واحد من أقدم الطرق التجارية وأطولها في العالم، طريق الحرير، لمعرفة المزيد. سوف يحملنا كل الطريق إلى الصين وسنلقي نظرة مثيرة للاهتمام على حركة تدعى الكونفوشيوسية.

الفصل الرابع عشر



الدين الوضعي

يمتد طريق الحرير على طول الحدود الشمالية للهند دخولاً إلى الصين، وقد جرى تدشينه نحو عام 206 قبل الميلاد، عندما أرسل إمبراطور صيني التجار إلى الغرب لبيع الحرير، أهم صادرات البلد، لشعوب الهند. مع مرور الزمن، امتد طريق الحرير مسافة أربعة آلاف ميل إلى شواطئ البحر المتوسط على حافة أوروبا، وشقت قوافل راكبي الخيول طريقها على طول

الطريق، وأحضروا الحرير، والبضائع الأخرى إلى الغرب، وعادوا إلى الشرق محملين بالصوف والمنسوجات. لكن الأمر لم يكن يقتصر على الحرير وغيره من السلع التي كانت تحمل على طول هذا الطريق الشهير، فقد فسح المجال لتبادل الأفكار، ودخول الأديان كذلك. فقد أدخل التجار البوذية إلى الصين

من الهند التي رسخّتْ وجودَها واحدةً من الأديان الصينية الرئيسة الثلاثة.

بيد أن الصين كان لديها نهجها الخاص في الدين، وأفضل كلمة لوصفه هو أنه نهج (عملي)، وهي كلمة يونانية أخرى ذات دلالة واضحة، تعني الفعل أو العمل، وقد أُشتقتْ منها الكلمة الإنجليزية (عملي). إنها تعني الممارسة بدلاً من النظرية، وأن تفعل الصواب خير من أن تؤمن به.

حتى الشرك المبكر بالله في الصين كان عمليًا، وواقعيًا، فقد مثَّلت آلهاتُ الصين قوى الطبيعة، أو تقلبات الطقس. وفي احتفالاتهم، كان الصينيون يدعون آلهتهم ليباركوهم بظروف مواتية، ويبعدوا عنهم أي شر يضر بهم. إلههم الأكبر، إله الآلهة في السماء، أرسل المطر الذي سقى حقول المحاصيل التي أمدتهم

بأسباب الحياة. ولكن أينما وجد المطر وجدت الفيضانات، وكان الإله المسؤول عن الفيضانات هو (غونغ غونغ). وحين تحدث الفيضانات يحل في بعض الأحيان الجفاف، وكانت (با) إلهة الجفاف. فما الذي كان أكثر أهمية للبشر غير الغذاء الذي يديم بقاءَهم في الحياة؟ وأقام إله الدخن (هو جي) احتفالاً يقدر فيه أهمية أعشاب الغلال التي نمت في حقولهم.

إن الحفاظ على هذه القوى جميعها في حالة توازن يبدو منطقيًا، وهو الشيء العملي الذي يجب القيام به. لم يكن الدين يتمحور حول تصديق الأشياء، وإنما يعنى في جوهره فعل الأشياء. لقد

كانت الطريقة العقلانية للتحكم بقوى الطبيعة من أجل توفير كل ما ينفع المجتمع البشري.

بالإضافة إلى محاولة التحكم بآلهة الطبيعة، كان الصينيون يعرضون تماثيل تمثل الأرواح الشريرة التي حاولوا عدم التعرض لها مثل: الشياطين، والجنيات، ومصاصي الدماء، والتماثيل، والغيلان، والتنانين. واخترعوا الألعاب النارية لإخافتها، وإلى يومنا هذا يحب الصينيون عروض الصواريخ والألعاب النارية المثيرة.

قد يكون للصينيين طريقتهم العملية في الرد على هذه القوى الخارقة للطبيعة، لكن لم يكن ثمة ما هو جديد في إيمانهم بتعدد الآلهة. فلم تكن آلهتهم غير تخيلات مبتذلة للجنس البشري منذ الماضي السحيق، راودت عقولاً تأملت بدهشة الكون الذي

وجدت أنفسها فيه. وعندما نأتي إلى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، نرى أن نهج الصين العملي في الحياة يحقق وضوحًا واتجاهًا جديدين.

في الوقت الذي كان فيه البوذيون، والجاينيون يُبدون رد فعل ضد ديانة الهند، كان اليهود المنفيون يعيدون التفكير في طبيعة إلههم في بابل، بينما نجد حالة مزاجية مختلفة وسط مفكري الصين. إنه (هذا) العالم الذي استخدم الحكماء الصينيون عقولَهم المبدعة فيه، وليس العالم الآخر، الذي سيأتي بعد. وأكثر هؤلاء الحكماء أهمية كان رجلاً يدعى كونفوشيوس.

الفيلسوف والمعلم الصّينيّ كونفوشيوس، الذي كان اسمه عند الولادة كونغ كيو، أو كونغ فوتزو، هو مفكر مسؤول عن إحدى الولايات التي قسمتها الصين في ذلك الوقت. نحن لا نعرف إلّا الخطوط العريضة عن حياته، لكن في كتاباته نلتقي بعقل حكيم سَمْح كان له بالغ الأثر في الصين مع استمراره فيها فترة طويلة بعد وفاته. وُلد في عام 551 قبل الميلاد في فترة كانت الفوضى فيها تعم الصين، وقت احتدم الصراع بين قادة الولايات الصينيّة المتنافسة في حرب مستمرة مع بعضها. ومثلما يكافح سياسيو القرن الواحد والعشرين ومفكروه لإيجاد حلول للمشاكل التي تحدق بالإنسانية اليوم، قدم حكام عصرهم الحلول للصعوبات التي تواجه الصين. ولم تكن الحلول المقترحة مختلفة كثيرًا عمّا نسمعه من سياسيينا اليوم. حاربْ العنف بالعنف،

والنار بالنار، اضربْ العدو بأقوى من ضربته إيّانا، اصنعْ أكبر عدد من البنادق والقنابل الفتاكة، واعثرْ على زعماء أكثر تشددًا للسيطرة على الأشرار. عادة ما كانت الإستراتيجيات السياسية على مر التاريخ تُقرأ مثل سيناريو أحدث فيلم من أفلام هوليوود حقق نجاحًا مبهرًا.

كان اتجاه كونفوشيوس مختلفًا. أخبر أمراء الحرب أن رفاهية الشعب ينبغي أن تكون هدفهم وغايتهم. ولتحقيق ذلك، عليهم اختيار وزراء تم تدريبهم على الأخلاقيات ليكونوا ماهرين في التعامل مع الخلافات الإنسانية من دون اللجوء إلى العنف. استمع الزعماء إلى حكمة كونفوشيوس وانحنوا لها،

وتمتموا بموافقتهم. بيد أن لا أحد كان مستعدًا لوضع أفكاره موضع التنفيذ. امتلك كونفوشيوس الصبر فضلاً عن الحكمة، وأمضى بقية حياته يشرح أفكاره لتلاميذه، آملاً أن يأتيَ، في يوم، حاكمٌ مستنيرٌ ليطبقها على أرض الواقع. توفي كونفوشيوس في عام 479 قبل الميلاد، ولم تعش أفكاره إلّا لأن تلاميذه قد سجلوا تعاليمه في كتب، لمن سيأتي زمنهم لاحقًا. فنحو عام 100 قبل الميلاد ظهر إمبراطور وضع أفكار كونفوشيوس موضع التنفيذ وأصبحت هي الفلسفة السائدة في الصين حتى تمت الإطاحة بالنظام الإمبراطوري عام 1912. وحتى في الصين الشيوعية اليوم، ما تزال المبادئ الكونفوشيوسية تُحكم سيطرتها.

تتجسد الفكرة الرئيسة لكونفوشيوس في النزعة الفردية الصارمة المعارضة للمجتمع، أو جماعة المنعزلين الذين يضعون أنفسهم في مواجهة المجتمع والقيود التي يفرضها. فمنذ لحظة

ولادتنا نحن محتجزون في شبكة من العلاقات، التي لن نتمكن من البقاء من دونها. ما هو جيد للمجتمع جيد للفرد، حتى لو كان يعني في بعض الأحيان إنكار رغبات الفرد الخاصة. فالحياة علائقية. المجتمع هو جسدٌ جميعُنا أعضاء فيه، ولا يمكن للأطراف المنفردة البقاء على قيد الحياة إذا انفصلت عنه.

والتعاطف هي الرابط الذي يجمعنا جميعًا، ويعني (الإحساس بمعاناة الآخرين). يحاول الأشخاص المتعاطفون الشعور بما يمر الآخرون به ورؤية الأشياء من زاويتهم. وقد استخدم كونفوشيوس أحد أقدم التعبيرات الذى يعرف بالقاعدة الذهبية، باتجاهيْها

الإيجابي والسلبي معا (عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك)، أو (لا تعامل الآخرين بما لا تحب أن يعاملوك به).

والكلمة التي استخدمها كونفوشيوس لالتقاط روح الفهم والتعاطف هذه تجاه الآخرين هي كلمة (رن). وتوافقًا مع المبدأ الصيني التداولي من الأفضل فهم مبدأ (الرن) عمليًا بدلًا من فهمه من الناحية النظرية. فإذا كنت تضحي بحياتك لإنقاذ شخص آخر، فأنت تمارس (الرن)، وإذا كنت في طريقي إلى المتجر لشراء أحد الأجهزة الذي كنت أجمع ثمنه منذ شهور لأحصل عليه ومن ثم أقدم نقودي بدلًا من ذلك إلى لاجئ بلا مأوى، فأنا أمارس (الرن). يعد مبدأ (الرن) أنبل سلوك يمكن للإنسان أن يقوم به، وهو تفضيل الإنسان الآخرين على نفسه. هذه هي الروح التي أراد كونفوشيوس أن يتحلى بها

السياسيون والقادة، فقد أرادهم أن يركزوا على رفاهية شعبهم، وليس على طموحاتهم الشخصية. كما أمل في أن يتمتع المواطنون العاديون بروح السماحة ذاتها في طريقة الحكم على القادة الذين يكافحون ليحكموا حكمًا عادلاً في الأوقات الصعبة.

يُعلم المنهج الكونفوشيوسي المتمركز حول إدارة الخلاف والصراع البشري، الصبر وتقدير الآخرين وكذلك التعاطف. لهذا السبب، يرتبط هذا المبدأ عمليًا بدماثةٍ ذات نمط معين. فالدماثة والصبر هما ميزاتا عقل يدرك مدى تعقيد العلاقات الإنسانية والاهتمام اللازم للتعامل معها. حتى يومنا هذا، تبدو

اللياقة في التفاعلات بين الناس حاضرة أكثر في العقل الشرقي الذي يتسم بالصبر من العقل الغربي المتسرع.

لكن ألَا تُفهم الكونفوشيوسية بصورة أفضل بوصفها فلسفةً وليس دينًا؟ إن تحديد الفرق بين هذين المصطلحين سيعيننا على تحديد المسألة. تعني (الفلسفة)، وهي كلمة يونانية أخرى مفيدة، حب الحكمة بأشكالها كافة. والشكل المعروف بالفلسفة الأخلاقية هو دراسة لأفضل طريقة أو أكثرها حكمة للعيش في هذا العالم. في حين أن الدين يهتم أكثر بما يقع وراء هذا العالم (في البعيد هناك). فكيف سيكون الأمر بالنسبة لنا عندما تنتهي حياتنا؟

هذه ليست الأسئلة التي يهتم بها مذهب الكونفوشيوسية، فهو يركز طاقاته على إدارة الحياة على الأرض لصالح المجتمع

البشري، وليس لكسب مزايا أو تفادي عقوبات في الحياة الآخرة التي ستأتي. يجب أن تعاش الحياة بطريقة جيدة لذاتها لا لكونها تمهيدًا لما قد يحدث لنا بعد الموت فحسب.

ومع ذلك، هناك جانب في الكونفوشيوسية يعيدها إلى المجال الديني: منهجها في الموت وتبجيلها للأسلاف. لكن هذا يمكن أن يُفهم أيضًا على أنه امتداد للفلسفة التي ترى البشر مترابطين فيما بينهم في المجتمع، ولا يمكن حتى للموت أن يقطع الرَوابط فيما بينهم. لهذا السبب في المجتمعات الكونفوشيوسية، يبكي الناسُ الموتى بكاءً مرًا ويُحْيُونَ ذكراهم باستمرار. تختلف فترات الحداد بعد الوفاة، فبالنسبة لأبناء المتوفى يمكن أن تستمر لأكثر

من عامين، يتوقفون في خلالها عن العمل، أو ممارسة الجنس، أو أكل أي طعام ما عدا البسيط منه، أو ارتداء الملابس الأنيقة، أو إمتاع أنفسهم بوجه عام.

لكن كونفوشيوس، أهتم كثيرًا بتكريم الأسلاف بدلًا من الحداد على فقدانهم. فبالنسبة له لا يتوقف الموتى عن الوجود، ونحن لا نفقد الاتصال بهم. ربما غادروا المشهد هنا وذهبوا إلى العالم الآخر، لكنهم احتفظوا بوجود مستمر في حياتنا. ولا يعني بُعْدُهم عن العين بُعْدَهم عن القلب. هذا هو السبب في أن عطلة الربيع الكونفوشيوسية المفضلة كانت المهرجان الصريح والمشرق، الذي تقوم فيه العائلات بزيارة قبور أسلافهم للتواصل معهم والتمتع مجددًا بصحبتهم. اللطف والاحترام للجميع - حتى للموتى - هما السمتان المميزتان للكونفشيوسية. لكنها لم تكن الديانة السائدة الوحيدة أبدًا في الصين، فقد كانت واحدة من

ثلاثة مناهج منسجمة في الحياة، والاثنان الآخران هما الطاوية والبوذية. في الفصل الآتي سنبحث الطاوية ونلقي نظرة أخرى على البوذية لمعرفة ما حدث لها عندما وصلت أخيرًا إلى الصين فى القرن الأول الميلادى.

الفصل الخامس عشر



الطريق الذي نسلكه

قد تكون الكونفوشيوسية سهلة الفهم إلّا أن فهمها مهمة جادة، لا يكتنفها الكثير من المتعة. أما الطاوية، التقليد الصيني الآخر، فالأمر معكوس تمامًا، فهي صعبة على الفهم لكن ما أن تستوعبها حتى تجدها ممتعة. ومثل حُكماء الديانات الأخرى، اكتشف مؤسسو الديانة الطاوية أمرًا ما، ولكن يبقى المكان الذي وجدوه فيه هو ما جعلهم مختلفين. رأى الحكماء الهندوس أن

الحياة التي نعيشها في هذا العالم وهْمٌ لا بد من تبديده إذا أردنا تحقيق الخلاص. كما رأى أنبياء اليهود أن لله غاية في وضع نهاية للعالم يومًا ما وفي محاسبة أهل الأرض على أعمالهم في أثناء حياتهم التى عاشوها فيها. إن هاتين الديانتين، تعدّان العالم والمكان

اللذيْن يعيش البشر فيهما من المشاكل التي ينبغي حلها، لذا راحتا تبحثان عن الإجابات.

كان الطاويون مختلفين، فالعالم هو الذي كانوا يتطلعون إليه عن كثب. أحبوا ما رأوه فيه، وأثرت فيهم وحدته وتكامله، وطريقة ترابطه مع بعضه، باستثناء الجانب الإنساني منه! لم يكن الإنسان منسجماً مع الكون بسبب عقله المتحفظ الذي يفصله عن إيقاعاته الطبيعية.

فالسلام يكمن في استعادة الانسجام مع الطبيعة والعيش وفقًا لإيقاعها. بيد أن الطريقة التي عبروا فيها عن هذا الأمر جعلت من الصعب على بعضهم اتباعها. فقد دعوا البشر إلى العيش وفقا لفلسفة (الطاو) عن الكون، لكنهم لم يشرحوا ماهية هذه الفلسفة. وما زاد الأمر صعوبة أنهم أخبروا الناس

بعدم استطاعتهم تعلم الطاو ما لم يكونوا أصلاُ يعرفون ما هي. وتفاقمت صعوبة الأمر عندما قالوا إن من عرف الطاو لم يتحدث عن ذلك، وأن من تحدثوا عنه لم يفقهوه. عند قراءة هذا، ربما كنت ستفكر مليًا لمعرفة ما الطاو؟ ومثل أي شخص تريد الأشياء أن تكون واضحة لك، وتريد فهم ما يجري، وعقلك هو من يطالب بها. غير أن الطاوية ستزيد من هياجك وهي تبتسم لك بلطف من دون أن تقول أي شيء!

من المهم أن نتذكر أوقاتًا مرت في حياتنا كنا نعمل فيها في أمر ما على مضض ما جعل إنجازه أمرًا مستحيلاً. لكن ما أن نتخلى عن التصارع معه حتى نجده يتحقق. خير مثال على ذلك

اللحظة التي تبدأ فيها بالعوم في حمام السباحة المرة الأولى، أو تجد في وقت ما بعد ظهيرة صيفية توازنك، وتدرك أنك كنت في الواقع تستقل دراجتك على طول الشارع. (فالتوازن) هو المفتاح، ومن يتمتعون به فعلاً وحدهم من يعرفونه. يمكننا أن نسميه حركة الطاو الدائرية. تريدنا الديانة الطاوية أن نجد هذا التوازن نفسه في طريقة عيشنا وأن نربطه، ليس فقط بالآخرين وإنما بالكون كله.

كان الرجل الذي يقف وراء هذا النهج في الحياة هو المعاصر الأكبر سنًا لكونفوشيوس ويدعى لاوزي أو لاو تسي. ولد نحو عام 600 قبل الميلاد، ويقال إنه عمل في مكتبة أحد الأباطرة الصينيين عندما طُلب منه تفسيرًا لطريقته للحياة، فأنتج واحدًا من أقصر النصوص وأكثرها احترامًا في تاريخ الدين أو الفلسفة،

وأطلق عليه اسم (لاو تزو) أو (كتاب الطريق). وكانت أهم أفكاره هي (التوازن) و(التكامل). رأى لاو تسي أن لكل شيء في الطبيعة نقيضه المكمل له، ودعا هذه الأضداد يانغ وين. كل ين لها يانغ الخاص بها، وكل يانغ له الين الخاص به. ولجعل الفرق واضحًا، رسم الطاويون دائرة يقسمها منحنى على قسمين متساويين، أحدهما أبيض والآخر أسود. وكل نصف مميز منهما يحتوي على نقطة نقيضة، نقطة سوداء في النصف الأبيض ونقطة بيضاء في النصف الأسود، وذلك ينصحنا بأن نجد أنفسنا في الآخر: الأبيض في الأسود، والأسود في الأبيض، المؤنث في المذكر والمذكر في المؤنث، الصديق في العدو، والعدو في الصديق،

ديني يتداخل في دينك كما هو دينك في ديني. لا يختلف هذا عما يقوله كونفوشيوس عن تخيل أنفسنا في مكان الآخر، لكن لاو تسي وضع لمسة مبهجة عليها، فهو لا يريدنا أن (نتقبل) التنوع حسب، وإنما يريدنا أن (نستمتع) به أيضًا. العالم هو أوركسترا من مئات الآلات المختلفة التي تعمل معًا لتنتج موسيقى جميلة. التوازن، التوقيت، التناغم: تلك هي سمات الديانة الطاوية.

لاحظ لاو تسي أن ثمة طريقة أخرى يفقد البشر بها التوازن وهي حاجتهم للسيطرة على الآخرين. فبدلاً من أن يتركوا الآخرين يعيشون على وفق إيقاعهم الخاص، نراهم يتدخلون في شؤونهم باستمرار. المثال الأبرز هو الشخص الذي يعد طريقه هو الطريق الوحيد للقيام بأي شيء، من ملء غسالة الصحون إلى إدارة البلاد. هؤلاء الناس يكونون في حالة من الغضب المستمر

لأن الواقع لا يتوافق مع النمط الذي يريدون فرضه عليه. من هنا طلب منهم لاو تسي الاسترخاء، والتعلم من حياة النبات.

لا أحد يُملي على النباتات كيف تتصرف، فهي تتبع طبيعتها. فلم لا يستطيع البشر فعل الشيء نفسه؟ ولماذا لا يستطيعون التوقف عن تحريك الأشياء، وأن يدعوها تتدفق-لوحدها؟ وصف لاو تسي نهجه في الحياة بـ (وو وي)، أي أن تقوم بالفعل عبر الامتناع عن القيام به، وترك الأمور تجري على هواها. كان يكره الأدوار، واللوائح، والطريقة التي يحشد بها المنظمون القهريون الجميع داخل حيزهم في دائرة الحياة بدلاً من الاحتفاء باختلافهم.

المصطلح الذي يطلق على من يتبنى هذا النهج في الحياة هو (الفوضوي)، وهي كلمة يونانية أخرى تعني من هو ضد الحكومة. بالنسبة للطاوي، لا يتعلق الأمر بالمعارضة المطلقة للحكومة، وإنما بالرغبة في تحقيق التوازن والتكافؤ فيها. كما يتعلق الأمر بالحذر من الدور المهيمن لصانعي القانون في المجتمع، ورفض الطريقة التي يحاولون بها إكراه الجميع ليكونوا في الكتلة عينها. وعكس الفوضوي هو (الشرعوي)، أي من يؤمن أن القانون هو الطريقة الوحيدة للسيطرة على الطبيعة البشرية. فما أن يتحول أمر إلى مشكلة تواجه المجتمع حتى يصرخ الشرعوي صرخته الدائمة: احظروه! امنعوه!

على خلاف كونفوشيوس الذي كان يريد التحكم بالطبيعة البشرية لخير المجتمع ككل، أراد لاو تسي منح الفرد أكبر قدر

ممكن من الحرية داخل المجتمع. نهج منافسة إزاء الحياة، إنه الين واليانغ مرة أخرى، كل منها لديه شيء يمكن التحدث عنه.

ولأن الشرعويين هم منظمو التاريخ العظماء ونادرًا ما يأخذون يوم إجازة، لذا عادة ما تكون لهم اليد العليا في الدين والمجتمع ويشرعون في فرض إرادتهم على الآخرين، وإذا اضطروا فسيشنون حربًا حتى يتمكنوا من الوصول إلى مآربهم. يكره لاو تسي الحرب التي تدمر الوئام بين البشر، فربما لو استمع إليه الناس لأضحى العالم أكثر متعة، ولقلت الحروب فيه.

يمكنك تعلم الكثير من الطاوية من دون أن تقبل أفكارها الدينية الصريحة، لكن سيكون من الخطأ أن نتجاهل وجودها.

استمرت الطاوية في التطور بعد وفاة لاو تسي في عام 524 قبل الميلاد، فإلى جانب الانخراط في تعلم مبادئها يتكشف للمتعلم أن لها آلهة متعددة. فقد كان يعتقد أن آلهتها العليا، والمعروفة باسم (الوجهاء السماويون)، خُلقت بصورة عفوية عندما ظهر العالم إلى الوجود. عقدت هذه الآلهة العليا محاكمة في السماء، تسندها آلهة أقل درجة من أهل السماء، بالإضافة إلى الآلهة التي جاءت مع الكون، ويمكن للبشر أنفسهم أن يضحوا من الآلهة أو من (الخالدين). ولكي يصلوا إلى حالة الخلود فعليهم أن يتطهروا من نقائصهم عبر نظام تأمل وقمع للرغبات يشبه برنامج بوذا لتحقيق الخلاص من عجلة الانبعاث. فالفرق أن الطاويين كانوا يؤمنون بالكون، ويؤمنون أن انتصار الروح لن يختفيَ مثل قطرة المطر في محيط من السعادة القصوى (النيرفانا) وإنما

سيحقق الوصول إلى الخلود الشخصي في هيئة إله. ومن السمات الأخرى التي ميزت الطاوية عن الديانات الأخرى المكانة التي أعطتها للنساء. فضلاً عن وجود الآلهة كان لديها كهنة من النساء وعالمات أدّيْنَ دورًا مهمًا في تاريخها. والتزامًا بفلسفتها الخاصة، عاشت الطاوية على وفق مبدأ الين المؤنث بالإضافة إلى مبدأ اليانغ المذكر.

أُسِسَت الكونفوشيوسية والطاوية في الصين، لكن دينها الثالث، وهو البوذية جاء إليها من الهند. فبعد أن تجلت لبوذا لحظة الحقيقة تحت شجرة التين البرية، انتشرت تعاليمه في أنحاء الهند وجنوب شرق آسيا والصين وكوريا واليابان وبلدان

أخرى. وما إن توسعت هذه الديانة، حتى انقسمت على طوائف مختلفة تعتمد على تأويلات متنافسة لكلمات بوذا. بقيت (بوذية الثيرافادا) ملتزمة بصرامة الحركة الأصلية. لذا، كان أسرع طريق للخلاص هو أن تغدوَ راهبًا. ويعرف هذا الأمر باسم (بوذية المركبة الصغيرة)، إنها سيارة سباق في طريق استنارة الشخص الموهوب. أما (الماهايانا)، أو (بوذية المركبة الكبيرة) فهي حافلة للناس العاديين الذين كان عليهم أن يأخذوا وقتهم.

لم تكن السرعة هي الفارق الوحيد بينهما. لقد لاحظنا بالفعل الانقسام الكبير في الدين بين أولئك الذين يحبون الصور وأولئك الذين يكرهونها. بوذا رفضها، لكن الدين الشعبي أحب أن ينظر إلى شيء أمامه، وأي صورة يمكن للبوذيين أن يبجلوها أكثر من صورة بوذا نفسه؟ من هنا أصبحت تماثيل بوذا التي غالبًا

ما تكون رائعة الجمال، العنصر الغالب في المعابد البوذية خصوصًا في تقاليد بوذية ماهايانا (شعبة من البوذية تقول بوجود الله). كانت هذه الطائفة من البوذية التي دخلت إلى الصين على طول طريق الحرير في القرنين الأول والثاني الميلاديَيْن، فتَجذّرت فيها وغيرّت الدين الصيني وتغيرت به.

استمر الصينيون على توجههم العملي في مقاربتهم للدين، فلم يمانعوا من دمج أفضل أجزاء التقاليد المختلفة، كما أنهم لم يعودوا متعلقين بالالتزام الصارم بالدين الواحد. لذلك عندما التقت البوذية بالطاوية، تغير كلاهما عن طريق اللقاء الذي كانت إحدى نتائجه (بوذية زن)، وهو الاسم المشتق من

المصطلح الصيني المستخدم للتأمل. أتذكر كم كان من الصعب استيعاب (الطاو)؟ اقترض الزن منهجها المستفز ذاك.

كيف أجد السلام وأنهي هذا التوق كله؟ علمني، أخبرني كيف يفسر الكتاب المقدس حالتي، وكيف أتحرر منها.

زفير... شهيق... زفير... شهيق

ماذا؟

اجلس ساكنًا، بلا حركة... عُدّ أنفاسك... زفير...

شهيق... زفير... شهيق
لقد لجأت إليكم لتحلوا مشاكلي فتعطيني تمرينًا للتنفس!
أنا بحاجة إلى أمر آخر، شيء يُمكّنني من التخلص مما يدور في ذهني.
حسنا. تمعن في زهرة الأقحوان...

ماذا؟

يتمتع الزن بمرح الطاوية ذاته، يمكن للثقافات التي تهيمن

عليها العقلانية أن تتعلم الكثير منه.

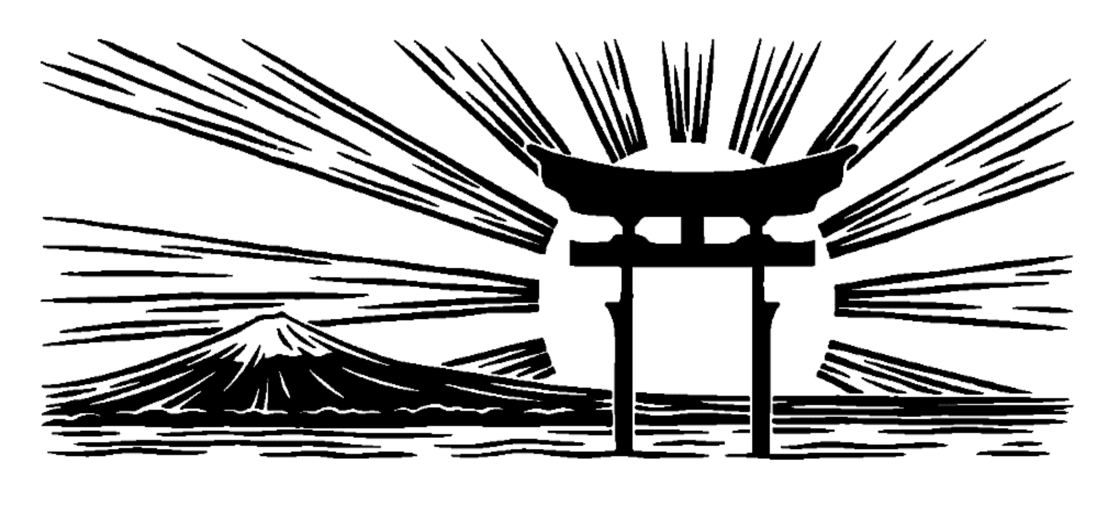
ثمة طائفة ثالثة ظهرت في البوذية كان لها تأثير عميق في أحد أكثر البلدان غموضًا على وجه الأرض. إنها (البوذية التانتراوية) التي قدمت عونًا مكثفًا للمعلم في مسعاه إلى الاستنارة، وهذا الشكل من البوذية هو الذي تجذّر في التبت، ووُجِد على الجانب الآخر من جبال الهيمالايا، جنوب غرب الصين. تقع التبت في أكثر منطقة يصعب الوصول إليها على وجه الأرض. سميت التبت بـ (سقف العالم) لأنها تتكون من الجبال الضخمة والهضاب

الهائلة، وشجع مكانها النائي طائفة من طوائف البوذية إلى تحويل البلاد برمتها إلى دير واسع. وتحت قيادة الرهبان المعلّمين الذين يسمون باللامات، تحولت التبت إلى أمة تتمحور حول أنظمة قيم البوذية الروحانية.

وقد استخدم اللامات التبتيون أحد تقاليد البوذية استخدامًا مميزًا، فما أن يصل الراهب إلى مرحلة التنوير حتى يمكنه التخلي عن تذكرته إلى السعادة القصوى (النيرفانا)، ويتطوع للعودة إلى الأرض في هيئة (بوذا حي) ليساعد الآخرين في العثور على الخلاص. وقد سمحت التقاليد التبتية لبعض الكهنة عالي المستوى باختيار الحيوات التي يتناسخون فيها، ولكن كان لابد من البحث عن الحياة التي اختاروها خليفة لهم. وعند وفاة اللاما، يمكن أن يستغرق البحث عن بديله سنوات عديدة، وما أن يتم تحديده بعد اجتياز عدد من الاختبارات، حتى يعلن عن تناسخ

اللاما وتثبيته في أحد الأديرة. وأشهر سلالات الخلافة في وقتنا الحاضر هي الدالاي لاما، الذي أصبح وجهه المبتسم مألوفا في الغرب منذ هروبه من التبت بعد غزو الصين لها في الخمسينات. وهو التناسخ الثالث عشر لأول دلاي لاما وقد يكون الأخير. هذا لا يعني أن زمن البوذية قد انتهى في التبت، فالدين لديه وسيلة لينجو من مضطهديه، إنه السندان الذي أضعف العديد من المطارق. لكن البوذية لم تتوقف عندما وصلت إلى الصين، بل استمرت في التحرك نحو الشرق حتى وصلت إلى اليابان، حيث التقت ديننا القادم، وهو الشنتو.

الفصل السادس عشر



عندما تحرك الطين في البحر

عندما تحدثت عن التبت في الفصل السابق، وصفتها بأنها بعيدة ولا يمكن الوصول إليها. كان حديثي عنها ذاك يتصف باللامبالاة، وقد حذرتنا حكاية العميان والفيل أن لا نفترض أن العالم هو ما تراه أعيننا المجردة. في رأيي قد أجد التبت بعيدة، بيد أنها تعد الموطن للتبتيين، واسكتلندا هي البعيدة عنهم. كنت على وشك ارتكاب الخطأ نفسه بشأن اليابان التي كانت تقع على

البحر بعيدًا عن الصين. فالصينيون الذين هم أقرب جيران لليابانيين، لم يزوروهم حتى عام 600م. من المغري التفكير أن اليابان بلد انعزل عن بقية العالم، لكن لِمَ لا نفكر أن العالم هو المعزول عنها؟ لم يعرف شعب اليابان، فترة طويلة، وجودَ عالم مفصول عنه، بل ظنوا أن اليابان هى العالم، ولم تكن تمثل

عالمهم فحسب، وإنما كانت دينهم، لقد أحبوا اليابان كثيرًا! لذا لكي نفهم دين اليابان لابد من أن نحاول فهم كيف شعر اليابانيون تجاه أرضهم.

تعد كلمة (اليابان) بحد ذاتها هبةً. وجاءت التسمية من محاولة أوروبية لنطق الكلمة الصينية للبلاد. أطلق عليها السكان الأصليون اسم (نيبون)، أو (بلاد الشمس المشرقة)، وهو وصف مناسب. فحين توجهوا رؤوسكم باتجاه الشرق، فلن تروا غير الفراغ المتلألئ للمحيط الهادي الذي تشرق الشمس منه كل يوم لتصب أشعتها على جزر يبلغ عددها 6,852 في الأرخبيل الياباني. لذا فمن المدهش أن الشمس لعبت دورًا كبيرًا في قصة الخلق النيبونية. جميع الأديان لديها قصص عن الخلق، تقدم نصوصها التي تفسر كيف ظهر العالم للوجود. لقد حان الوقت

للنظر في بعضها، واستخلاص بعض الاستنتاجات قبل العودة إلى اليابان.

للهند قصص عديدة عن الخلق. ادعت إحداها أنه قبل أن يوجد الزمن ويتكوّن العالم، كان هناك كائن ضخم يدعى بوروشا الذي انفجر، ومن أجزائه المتناثرة ظهر كل شيء للوجود، بما في ذلك أدق تفاصيل نظام الطبقات الهندوسية.

ذكر سكان بلاد ما بين النهرين، مسقط رأس إبراهيم، أنّه، بداية الخليقة، كان هناك عملاقان؛ أبسو، أو الماء الحلو وتيامات، أو الماء المالح تزوجا وأنجبا آلهة أخرى ووحوش البحر. وعندما كان البحر يغمر أحيانًا الأراضي الجافة، تتأجج رغبة

شريكته تيامات في السيطرة على كل شيء، فعارضتها أسرتها، وحال انتصارهم عليها شطروا جسدها إلى نصفين صنع منهما السماء والأرض. فأُعِدَّت السماءُ للآلهة، ولخدمتهم اخترع البشر مساكن الخدم أسفل الأرض وأقاموا فيها.

ولدى مصر، أيضًا، قصصٌ مشابهة كانت تتعلق بدور الماء الكبير: في البداية لم يكن هناك سوى البحر، ثم حدث وبدأ الفيضان يأخذ بالانحسار، فارتفع التل فوق السطح. في إحدى الروايات ظهر إله الشمس رع في المشهد لخلق آلهة أخرى وإقامة الأرض. وفي نص آخر نجد إله الأرض بتاح هو من ظهر أولاً وجعل الحياة تدب في كل شيء.

إذا اتجهنا شمالاً إلى الدول الإسكندنافية، فإننا نجد موضوعة الماء ذاتها في بداية الخليقة: كان هناك هاوية العدم، مليئة بالماء، ومن ثم تجمدت المياه، وبعدها بدأت في الذوبان. ومن الماء

الذائب ظهر عملاق يدعى يمير، الذي خرج من باطن إبطيه رجل وامرأة. وبينما كان كل هذا يحدث، لعقت بقرة سطح جليد كان رقيقًا بما يكفي ليخرج منه فجأة عملاق آخر، ومن هذا العملاق انحدر الإله أودين. وكما يحدث عادة في مسيرة هذه الآلهة، فتحت أبواب الجحيم على مصاريعها. قتل أودين وإخوانُهُ يمير وصنعوا من جسده الأرض، ومن جمجمته صنعوا السموات، ومن دمه البحر. تحولت عظامه إلى جبال، وانبثقت الأشجار من شعره. وثمة تفاصيل أخرى، لكن أتصور أنكم فهمتم الصورة الكلية.

بعد كل هذه الفوضى، من المفيد أن نتحول إلى قصة الخلق في التوراة، التي يرجع تاريخها إلى نحو 900 سنة قبل الميلاد. هناك نصّان في سفر التكوين، كلاهما توحيديّ بصورة حازمة، وفي كل منهما نجد سمات البحر. إنها (أعماق البحر) التي تفكّرَ اللهُ بأمرها، ومنها خلق كل شيء في الوجود. لقد أتم خلقه هذا في ستة أيام واستراح في اليوم السابع. عدم القيام بأي شيء في اليوم السابع، بحد ذاته، كان عملاً مبدعًا جعل من يوم السبت يوم راحة للجميع.

تظهر القصة اليابانية، في الوقت نفسه تقريبًا، الذي ظهر فيه سفر التكوين، والبحر فيها مرة أخرى صاحب الدور الأكبر. في البداية لم يكن هناك سوى البحر. ثم استخدم الإله إزاناجي والإلهة إيزانامي رمحًا طويلاً لتحريك الطين في قاع البحر، ومن

الطين تشكّلت العديد من جزر اليابان. ثم أنجب الزوجان الإلهيان ثلاثة أبناء، آلهة الشمس وإخوتها، وإله القمر، وإله العاصفة. كان لآلهة الشمس أبناء وأصبح حفيدها أول إمبراطور لنيبون.

يجدر بنا أن نفكر لوهلة في هذه القصص، لأنها تطلعنا على الكثير عن الكيفية التي يعمل فيها الدين. هل هي حقيقية أم مزيفة؟ هذا يعتمد على ما تعتقده في الغرض منه. هل تذكر القصة التي رواها النبي ناثان للملك ديفيد؟ هل كانت حقيقية أم مزيفة؟ في الواقع كانت مزيفة. فلم يكن هناك رجل غني سرق خروف رجل فقير. لكن من الناحية الأخلاقية كان ذلك حقيقيًا، إذ جرى تأليف القصة لجعل داود يفكر في ما فعله،

وقد نجح الأمر. امتلكت القصة حقيقة الفن، لا حقيقة العلم. فالعلم يهتم بالحقائق، بطريقة عمل الأشياء، بينما يهتم الفن أن يكشف لنا حقيقة حياتنا. هذا هو السبب في أن القصة يمكن أن تبكيك عندما ترى نفسك فيها، وتكتشف أن هذا هو أنت! الدين هو فن لا علم، لذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه عن قصة الخلق لا يكون عما إذا كانت القصة حقيقية أم مزيفة، ولكن ماذا تعني، وماذا تحاول إخبارنا – وهو فرق لن يستوعبه كثير من المتدينين أبدًا. وكما سنرى، فإن بعضهم يتصرف بطريقة يبدو سخيفًا فيها حين يحاول إثبات أن قصة الخلق في الكتاب المقدس هي عمل علمي لا عمل فني.

لم تكن أي من قصص الخلق التي تفحصناها حقيقية من الناحية الواقعية، لكن جميعها كان يحمل معنى ما. فالكتاب

المقدس يعد من أسهل الكتب التي يمكن فهمها، حتى لو كنت لا تتفق معه: إن الكون لم يصنع نفسه، فقد خلقه الله. وأما قصص بلاد ما بين النهرين والقصص الاسكندنافية عن الصراع الأصلي فتعكس استمرار العنف والقسوة في العالم.

ولدت هذه القصص من العقل البشري. والسؤال الذي يطرح نفسه هل الله هو الذي ألهمنا إياها، أم نحن من ألفها بالكامل. ومهما كانت إجابة السؤال، فالقصص مثيرة للاهتمام في حد ذاتها. وربما تحمل أجزاء منها ذكريات منذ زمن بعيد: انفجارٌ كان بداية لكل تغيير، ومحيطٌ منح الحياة لكل مخلوق. أوعزت قصة الخلق التى قدمها العلم الحديث بداية الكون إلى

الانفجار الكبير قبل نحو أربعة عشر مليار سنة. وأفضل تخمين وضعته بشأن الطريقة التي بدأت فيها الحياة على كوكبنا هو أنها بدأت قبل نحو ثلاثة مليارات ونصف المليار سنة. كانت البحار التي غطت الأرض اليافعة عبارة عن خليط من المواد الكيميائية الناتجة من البراكين المتفجرة، ومن تفاعلات هذه المواد ظهرت أشكال الحياة الأولى. بعد مرور مليارات السنين دخلنا المشهد بتؤدة. هل تسربت ذكريات الأرض عن تاريخها الخاص إلى أذهان هؤلاء الفنانين الذين أنعموا النظر في الزمن للعثور على معنى الأشياء؟ هذا ليس مستحيلاً بالنسبة لي. قد يكون ذلك لأن الكون كله يبدو في منتهى الغرابة، وأي شيء تقريبًا يمكن تخيله.

الشيء المحبب في قصة الخلق النيبونية هو أنه عندما كانت

الآلهة تحرك الطين في قاع المحيط فإنها لم تصنع عالمًا، بل صنعت اليابان! أو صنعت عالمًا تألف من اليابان لا غير. هكذا شرحوا الحب الذي شعروا به تجاه جزرهم الجميلة. بيد أنه لا يسع شعوب الجزر إلّا أن تنطوي على نفسها، فهي أقل انفتاحًا على حركة المرور التي تتدفق على الحدود البرية، لذا نادرًا ما تأثرت دوافعهم الدينية بآلهة البلدان المجاورة، وما نعرفه عن الدين الياباني المبكر يؤكد ذلك. وإذا تذكرنا أن اليابان لم يتم غزوها أبدًا حتى عام 1945 في نهاية الحرب العالمية الثانية، فلن نفاجأ باكتشاف أن اليابانيين لم يحبوا بلادهم حباَ عاطفيًا حسب، بل

كانوا يعتقدون أنها كانت بلادًا فريدة من نوعها، وربما اعتقدوا في الماضي السحيق أنه لا يوجد شيء آخر غيرها.

لم تكن اليابان البلد الذي أوجدته الآلهة حسب، بل كانت مكان إقامتها الذي اختارته، ومكان سكنها. اعتقدت الديانات الأخرى أنه على الرغم من أن بإمكان الآلهة (زيارة) الأرض، إلّا أن مكان إقامتها الرئيس كان بعيدًا جدًا عنا في مجال خاص يسمى السماء. أما لليابانيين فكانت جزرهم الجميلة هي ذلك المجال الخاص، فهي السماء والأرض معا. كانت السماء على الأرض، والأرض في السماء. نظرت بعض الأديان إلى الجسد البشري على أنه مكان مادي تسكن فيه الروح الخالدة. بهذه الطريقة فكر اليابانيون بأرضهم، فجزر اليابان كانت التعبير المادي عن الأرواح المقدسة المسماة (كامي) المنتشرة في كل مكان في الطبيعة. فقد سكنت الحيوانات، وأقامت في جبال اليابان،

التي يعد جبل فوجي من أجملها وأكثرها قداسة، وتم العثور عليها في النباتات والأنهار.

لقد ذكرت أن هذا كان دينهم، غير أن ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا. فهو يوحي أن له استقلاليته التي يتفرد بها، وأنه معتقد يحملونه في رؤوسهم. فمن الخطأ تمامًا أن تصف إدراكك كينونتَك على أنه دين، وهو أمر (تعتنقه) أو (تعتقده) عن نفسك، عوضًا عن معرفة (من تكون). كان اليابانيون يعون أن ذواتهم مغمورة في شبكة وجود عظيمة، تضم الأرض، وتضمهم، والأرواح

التي أعطت الحياة لكل شيء. لم يكن هذا أمرًا (آمنوا به)، وإنما كانت الطبيعة التي جُبلوا عليها.

والاسم التقني لهذا الموقف في الحياة هو (الروحانية)، وهي لا تختلف كثيرًا عن النظرية الحديثة المسماة (غايا) التي لا تنظر إلى الكوكب مكانًا يمكن للإنسان أن ينهبه ويستغله، بل كائنًا حيًا يجب العناية به بالعاطفة نفسها التي نكنها لعائلاتنا ولأصدقائنا. هذا يعني أن الطبيعة حية وتمتلك روحًا وأهميةً حالها حال الإنسان. شعر اليابانيون بهذا في قلوبهم، فلم يقل لهم أحد أنها ضرورة دينية (أن) يحبوا بهذه الطريقة، ولم يقل لهم أن عليهم (أن يصدقوا) أن العالم كان هكذا، ولم يشاهدوا أياما خاصة احتفلت باكتشافهم لطبيعة الأرض. لم يكن لديهم (معتقدات) حول هذا الموضوع. إنه حب خالص لروح الأرض،

عبروا عنه بالأضرحة التي أقاموها في أماكن جميلة، فكل مزار له بوابة مميزة مصنوعة من قائمتين وعارضتين متقاطعتين. ينتشر أكثر من مائة ألف ضريح من هذه الأضرحة في اليابان اليوم، وما يزال اليابانيون يكنون لها الاعتزاز.

ولم تطلق حتى تسمية على طريقة استجابتهم للعالم حتى جاء الصينيون إلى اليابان نحو عام 600. لم يأت الصينيون غزاةً أو إنجيليين، وإنما جلبوا الديانات الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية معهم التي سرعان ما ترسخ جميعها في اليابان. ربما كان ذلك لأن الصينيين أحبوا تصنيف المعتقدات والممارسات التي يقعون عليها، أو ربما قرر اليابانيون أنهم بحاجة إلى اسم يؤطر

الحب الذي شعروا به تجاه أرضهم المفعمة بالروح من أجل تمييزها عن الأديان الجديدة التي ترسخت وسطهم. لذلك أطلقوا عليه اسم (الشنتو). أول جزء (الشن) يعني (الآلهة) و(تو) مشتقة من المصطلح الطاوي المستخدم للمسار أو الطريق. طاو شن، طريق الآلهة، الشنتو. ولو استخدموا كلمة (الحب) لكانت ستكون معبرة بالقدر نفسه.

ليس عليك أن تصدق أن الآلهة قد خلقت جزر نيبون من الطين البدائي لكي تعجب بديانة الشنتو. إنها تنظر من خلال العالم إلى شيء أعمق، وأحيانا تعبر عما تراه في لوحات مؤثرة مرهفة الحسّ. ففي الغالب كلّ ما تحتاجه، للاحتفاء بحبها العالم، ثلاثةُ أبيات من قصيدة تدعى الهايكو:

أخوض عابرًا مياه نهر صيف

أي مسرة

والصنادل فى يدى!

الفصل السابع عشر



عندما يتمحور الدين حول الفرد

خدم الدين العديد من الأغراض في تاريخ البشرية. وقبل أن يقدم العلم الحديث روايته عن الخلق، وضع أصحاب الرؤى الدينية أوصافهم التي أخذنا عينة موجزة عن بعضها. فضلا عن محاولته وصف (الطريقة) التي خلق فيها العالم، حاول الدين أيضًا أن يفسر (لِمَ) نُظِّم العالم على النحو الذي هو عليه. أما إذا سئل عن السبب الذي جعل البشر هم الأنواع السائدة

على الكوكب وفعلوا ما أحبوه فيه، فإن الكتاب المقدس يجيب أن ذلك من ترتيب الله له. لقد جعلنا الله مسؤولين عن الأرض وقال لنا أن نُخضعها لنا، ونسيطر عليها. وإن تساءل أحد لماذا جرى تقسيم الإنسانية على مجموعات مصنَّفة وفقا للون بشرتها،

ردّت الكتب المقدسة الهندوسية أن الحكمة الكامنة وراء الكون قد نسّقت الأشياء بهذه الطريقة لغرض ما. إنه الكارما.

لم تقل هذه الإجابات إن هذه هي طبيعة الأمور، وعليك أن تعتاد عليها، بل قدمت لنا الطريقة التي نُظم العالم بها ممهورة بختم موافقة إلهية. هكذا كان الله يخطط. هذا هو السبب في أن الدين كان بارعًا للغاية في إقناع الناس بقبول نصيبهم في الحياة بغض النظر عن مدى البؤس الذي يعانون منه، وخاصةً أنه أعطاهم أيضًا الأمل في الحصول على ما هو أفضل في حياة الآخرة، أو في الجولة القادمة في هذه الحياة.

الدين بارع أيضًا في جعل الناس يتقبلون القواعد والأنظمة التي يفرضها عليهم المجتمع. إذا أردت أن يعيش البشر في انسجام مع بعضهم، فسيحتاجون إلى مجموعة من الأعراف متفق عليها،

ألَا وهي (الأخلاق)، مثل لا تكذب، لا تسرق، لا تقتل. فأي مجتمع يتسم بالذكاء سيحمي نفسه بمحظورات مثل هذه. أما الجرعة الدينية فستضيف ثقلاً إلى القواعد بالقول إنها لم تكن اختراعًا بشريًا، بل كانت أمرًا إلهيًا. فلم يكن الإسرائيليون في البرية من حلموا بالوصايا العشر، لقد فرضها الله عليهم. هكذا، فأحد الأدوار الكبيرة الأخرى التي يمارسها الدين في التأريخ هو أن يكون وصيًا على الأخلاق.

الآن يجب أن نلقي نظرة على تطورٍ أخذ الدين في اتجاه أكثر خصوصية. فضلاً عن كون الدين نشاطًا جماعيًا، ووسيلة للتحكم في (المجتمع الإنساني)، قام الدين بتقديم خلاص

شخصي للأفراد. تأتي كلمة (الخلاص) من المصطلح اللاتيني الذي يعني الصحة، إنه تذكير بأن البشر غالبًا ما يصابون بحالة من المرض والقلق، ولا يشعرون أنهم بصحة جيدة، أو بسعادة، أو راحة مع أنفسهم في هذه الحياة، ينتابهم القلق بشأن الآتي الذي ينتظرهم. وعندما اتخذ الدين منعطفًا أكثر شخصية، كان قادرًا على منح الحيواتِ المضطربة السّلامَ، وشبَّه المؤمنون هذه التجربة بمن يموت ويولد مرة أخرى، أو من يصاب بالعمى ويرى النور ثانية، أو من يصاب بالشلل ويمشي من جديد. يبدو أن التقاء الديانات المختلفة مع بعضها البعض للمرة الأولى قد دفع إلى هذا التطور.

وعلى عكس ما هو متوقع، كان الجنود الرومان هم من أعطوا الدين دفعةً قوية. فبحلول عام 30 قبل الميلاد غزا الرومان الإمبراطوريتين الفارسية واليونانية. فمن الناحية السياسية كان

الرومان، هم، المنتصرين، بيد أنهم تشبعوا كثيرًا بثقافة الدول التي استولوا عليها، لدرجة كان من الصعب في النهاية تحديد من كان الفائز الحقيقي في بعض الأحيان. كان الرومان مأخوذين بالأساطير التي اكتشفوها بين مواضيعهم اليونانية والفارسية لدرجة أنهم تبنوها بطريقة كان لها تأثير كبير في مستقبل الدين. ومثلما كيّفتْ الصين البوذية لطريقتها في عمل الأشياء، كذلك فعل الرومان تمامًا مع الأساطير اليونانية. كان الرومان أناسًا عمليين، ورجال أفعال. لذا أخذوا هذه الأساطير القديمة وحولوها إلى ما نسميه الآن لعب الأدوار. وعن طريق تمثيل

الأدوار في القصص، تغيرت حياتهم. لم تكن مجرد حالة إيمان بالأساطير التي انتقوها من الدين اليوناني، وإنما حالة منحتهم خبرات عاطفية، أو نفسية كانت ذات أهمية لهم.

ولكن من الخطأ الاعتقاد أن اليونانيين كانوا (يتبعون) دينًا بالطريقة التي يتبع فيها اليهود دين اليهودية، أو الفرس الزرادشتية. فهم قريبو الشبه باليابانيين في إيمانهم بديانة الشنتو من أي ديانة أخرى. وبلا ريب، هم كانوا مشركين، ولكن آلهتهم كانت جزءًا من المناظر الطبيعية مثل جبالهم وبحارهم والشمس التي أشرقت عليهم. تقوم الآلهة بعملها مثل الطقس، ومثله يمكن أن تكون الآلهة لطيفة، أو عنيفة. ذاك هو الحال الذي كانوا عليه. كان لديهم إله أعلى يدعى زيوس، إله السماء، وكان له أخان، بوسيدون، إله البحر، وهاديس، إله العالم السفلي،

مكان الموتى. وهناك المئات من الآلهة الأخرى، بعضها يرتبط بإيقاعات الطبيعة. لكن واحدة من قصص المغامرات الإلهية في مكتبتهم الضخمة تحولت إلى أساس لعبادة هامة في الإمبراطورية الرومانية كان لها تأثير بعيد المدى.

بدأت القصة بمثابة أسطورة طبيعية، وما أن حصل عليها الرومان حتى حوّلوها إلى ما نسميه (الدين الغامض)؛ مجموعة من الطقوس والممارسات السرية التي تثير خبرات عاطفية عميقة في أتباعه. في القصة اليونانية، كان هاديس، إله العالم السفلي، يائسًا في البحث عن زوجة تشاركه مملكته الموحشة. لذا اختطف بيرسيفون ابنة ديميتر، إلهة الفاكهة والمحاصيل

والنباتات ما ترك ديميتر محطمة جدًا لفقدان ابنتها لدرجة أنها غرقت في حزن العميق، وأهملت واجباتها. ونتيجة لذلك، تلفت المحاصيل، واختفت الفاكهة من الأشجار، وصارت الإنسانية مهددة بالمجاعة والموت. تدخّل زيوس لإنقاذ الموقف وعقد صفقة أعطت كل طرف في النزاع نصف ما يريده. حُكم على بيرسيفون بقضاء نصف العام على الأرض، والنصف الآخر في العالم السفلي مع زوجها الممل. عندما انتهى الصيف وهبطت إلى هاديس لتقضي مدتها هناك، حزنت والدة ديميتر مرة أخرى على غيابها. ضرب الشتاء الأرض، وماتت الأشياء التي تنمو كلها، وقعت الأوراق، وسقطت الأشجار، وأصبحت عارية والحقول جرداء. ولكن ما أن حل الربيع وصعدت بيرسيفون إلى الأرض مرة أخرى، حتى فرحت أمها عند عودتها وعادت

الحياة إلى كل شيء.

هذا مثل رائع يبين كيف يمكن للأسطورة التي جرى تأليفها في استخدام أفعال الطبيعة للتعبير عن تقلبات الدهر في حياة الإنسان. فالوجود الإنساني له أيضًا إيقاعاته من الخسارة والانتعاش، والفشل، والنجاح، والموت، والانبعاث. جاءت فكرة الإله المتوفى الذي يقوم من الموت لتلائم حاجة عميقة في النفس البشرية، وأصبحت هذه القصة والطقوس التي مورست للتعبير عن معناها، واحدة من أهم الأديان الغامضة في الإمبراطورية الرومانية. تعنى كلمة (الغموض) في اليونانية

لتصمت أو لِتُبقِ شفتيك مغلقتين، لأن أعضاء الطائفة الدينية قد أقسموا على سرية هذه الطقوس والاحتفالات التي يقيمونها.

نشأت العبادة في مدينة اليوسيس بالقرب من أثينا نحو عام 1400 قبل الميلاد في يوم عيد احتفلوا به بهدية الآلهة ديميتر من ثمار الأرض. لكن في الإمبراطورية الرومانية كان الشكل الشعائري لهذه العبادة، التي عرفت آنذاك باسم الطائفة الإليوسية، يركز على التجربة الروحية (للفرد) المأخوذ من لغز موت الآلهة وبعثها من جديد. يقوم الشخص الذي ينضم إلى هذه الطائفة بمشاركة الإلهة فيعانى من شتاء موتها، وربيع بعثها مرة أخرى، ويجري هذا عبر مراسيم تتَشَبّه بِتجربة النزول إلى الظلمات قبل أن تعود إلى نور نهار حياة جديدة، والهدف منها إثارة العواطف. لم يكن أمرًا (تعلموه)، وإنما (أحسوا) به، وتغيّروا في خضم تجربته.

عليك أن تتذكر أن كل هذا كان يحدث داخل العقل البشري. ونعرف كم هو غريب هذا العقل، فهو يضم الجنة والجحيم، والطول والعمق، والظلمة والنور. كان كهنة الطائفة الإليوسية خبراء في العقل البشري، يعرفون كيف يقودون أتباعهم عبر تقلبات الحياة إلى مرج الخلاص المضاء بنور الشمس.

لم تكن الآلهة اليونانية مثل ديميتر وبيرسيفون وحدها من وجد وظائف جديدة في الأديان الغامضة للإمبراطورية الرومانية، فقد أضحى إله زرادشتاني قديم من بلاد فارس يدعى ميثرا مركزًا لعبادة رومانية أخرى. ولد ميثرا في كهف، وهو إله الشمس الذي قتل الثور المقدس، ومن دمه تشكلت

الأرض ومخلوقاتها. وقد وجد الجنود الرومان قصة ميثرا صدفة أثناء مغامراتهم العسكرية في الشرق. كانوا يحبون موضوع الدم والسيف، وأعجبتهم الشجاعة التي تطلبها نحر ثور بمفرده، وأعجبتهم أيضًا فكرة أن القتل وسفك الدماء التي برعوا فيها يمكن أن تؤدي إلى ظهور نوع جديد من الحياة أفضل للآخرين. لذلك تبنوا الأسطورة لأغراضهم الخاصة، وأضحت هي عبادتهم الغامضة المفضلة.

كانت الميثرائية ديانة أكثر دموية من الطائفة الإليوسية، بيد أن مواضيعها لم تكن تختلف كثيرًا، فهي الأخرى احتفلت بالموت بوصفه بوابة لحياة جديدة، وطقوسها تقام تحت الأرض، ومحملة بشحنة عاطفية قوية. هم أيضًا (أحسوا) بها ولم (يتعلموها). فالكهوف والمغارات كانت أماكن مخيفة على أي حال، لذا فإن

إرسال فرد إلى أحدها سيكون له تأثير صادم في أتباع الطائفة.

واجه الجندي الروماني الموت كل يوم، فبلا شك سيؤمن بالعبادة التي تصور له الموت بطريقة درامية على أنه تضحيةً، وأن ثمة حياة ستتدفق منه بعد ذلك. الديانة الميثرائية كانت شأنًا خاصًا بالرجال فحسب، وهذا جانب آخر من جاذبيتها في مجتمع مفتول العضلات مثل الجيش الروماني. فالمجتمعات السرية بطقوسها الخفية، ولغاتها الخاصة تجعل أعضاءَها يشعرون بالخصوصية، وتجعلهم ينقطعون عن الآخرين. وثمة شيء يبدو أنه يستهوي نوعًا معينًا من الرجال، هو الانتماء إلى نادٍ خاص، وفرت الميثرائية هذا كله لهم بقدر عال.

كان ظهور هذه الطقوس الغامضة في الإمبراطورية الرومانية نقطة تحول في التاريخ الديني. فقبل ذلك، كان الدين، أساسًا، نشاطًا جماعيًا مرتبطًا بالهوية المشتركة. أما اليهود، فدينهم كان بحكم الولادة وهو دعوة الله لهم كونهم شعبًا مختارًا، وغالبًا ما جذب التزامهم الأخلاقي المتعاطفين من الخارج، لكنّ الأميّين (وهو الاسم الذي أطلقه الكتاب المقدس على الشعوب من غير العبرانيين)، أو الأجانب لم يستطيعوا تغيير حدث ولادتهم. كانت الهندوسية هي الأخرى ديانة تكتسب بالولادة، وصولاً إلى الطائفة التي وجدت نفسك ملتزمًا بها. حتى الآن كانت البوذية الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة. لقد تحدت مصير المجموعة، وقدمت نصها عن الخلاص للأفراد. وبمثل هذا الوقت في آسيا كانت في طريقها إلى أن تصبح دينًا (عالميًا)، دينًا لأي شخص،

وفي أي مكان، وفي أي وقت.

الأمر المثير للاهتمام هو أن الأديان التي تقدم المساعدة للأفراد من المرجح، وفي الغالب، تنمو وتصبح عالمية، لأن العالم مليء بالأفراد الذين يبحثون عن الخلاص. وقد أظهرت الطوائف الغامضة هذا الاتجاه في العمل، و(تطوع) الأفراد للانضمام إليها. وقد بدأ ذلك بتحويل فكرة الدين من كونه هوية جماعية، إلى فكرة التحول الشخصي. وقد أوجدت الأساليب التي استخدمتها الطوائف لإعطاء أتباعها التجربة العاطفية للخلاص، نمطًا ستحذو حذوه الأديان التى ستأتِي في ما بعد.

إن فكرة الإله الذي مات وبعث مرة أخرى لمست وترًا في الطبيعة البشرية، خصوصًا إذا منحتهم فرصة القيام من قبورهم.

سيستغرق الأمر بضعة قرون قبل أن تصل هذه الاتجاهات لأسمى وسائل التعبير في تاريخ الدين. لكن المشهد كان يُعّد لظهور أكبر ديانة شعبية سائدة في العالم. عندما كانت المسيحية في أوج نجاحها، أطلقت على نفسها اسم (الكاثوليكية)، التي تعني في اليونانية (عالمي). ويتمثل الإيمان الذي قامت عليه الكاثوليكية في موت إلهها وبعثه، وسنكتشف في الفصول التالية كيف تحول ما بدأته طائفة يهودية صغيرة في القرن الأول إلى أول دين عالمي حقيقي - الكنيسة الكاثوليكية - وكيف اكتسب تلك التسمية لنفسه.

الفصل الثامن عشر



المتحولون إلى الدين الجديد

المتحول هو شخصية نمطية أخرى في دراما الدين. (التحويل) يعني التحول إلى الجانب الآخر، في الاتجاه المعاكس. معظم الناس يغيرون آراءهم على مر السنين، لكن عادة ما يكون التغيير عمليةً تدريجية، انتقالاً بطيئًا، على خلاف التحول الديني الذي نادرًا ما يكون على هذا النحو. يمكن أن يتغير (المتحولون) في غمضة عين، ينعطفون، ويغيرون آراءَهم بسرعة. إنه قرار مفاجئ للغاية

حتى أنهم يقولون بعد ذلك كأننا ولدنا من جديد.

التشبيه بالولادة هو تشبيه مُوَفّق لأن ذلك يذكرنا بأن نمو الطفل يستغرق وقتًا، بغض النظر عن مدى سرعة الولادة. وقد تكون (لحظة) التحول مفاجئة، لكنها في الواقع غالبًا ما تكون ذروة عملية استمرت سنوات. أرواح المتحولين مشتتة، يصارعون

ضد أمر لا يستطيعون الاعتراف بانجذابهم إليه، وإذا انصاعوا له، فستسير حياتهم في اتجاه لا يرغبون فيه. لذلك يقاتلون، في بعض الأحيان حرفيًا، ضد الأمر عينه الذي يتوقون إلى الخضوع له.

من بين العديد من المتحولين إلى المسيحية الذين تغيّرت حياتهم بالكامل تأثرًا بما حدث لهم، وكان أشهرهم، يهودي يدعى شاؤول مضى ليصبح مسيحيًا اسمه بولس. كان تحوله معروفًا لدرجة أنه دخل إلى اللغة رمزًا للتغيير المفاجئ في العقل. عندما نريد وصف لحظة تتحول فيها الحياة إلى الاتجاه المعاكس، فلابد من أن نتحدث عن تجربة (طريق دمشق)، ففي طريقه إليها، استسلم شاؤول في النهاية إلى المسيحية، الدين الذي قضى سنواته في اضطهاد أتباعه.

لا نعرف بالضبط متى ولد شاؤول، ولكن على ما يعتقد

أنه كان في بداية العصر المسيحي في العام الثاني. وتأريخ وفاته الدقيق أيضًا غير مؤكد، لكنّ تقليدًا موثوقًا به يخبرنا أنه استشهد بسبب معتقداته في روما بين عامي 62 و65، ونعرف أنه ولد في طرسوس، في إقليم سيليكيا الروماني الذي هو جنوب شرق تركيا الآن. قيل لنا إنه يهودي ورث الجنسية الرومانية من والده، وربما كان اسمه الروماني بول، وكان صانع خيام، ورجلًا مثقفًا يتحدث اليونانية بطلاقة ويكتبها. رسائله إلى الكنائس التي عثرنا عليها هي أقدم وثائق مسيحية لدينا، يبدو أنه تلقى جزءًا من تعليمه في أورشليم القدس على يد معلم مهم يدعى غماليل الذي يخبرنا أنه كان فريسيّاً.

بغض النظر عن مدى التوحد الذي يدعونه، فإن الأديان كلها ما هي إلّا ائتلافات مكونة من مجاميع مختلفة، كل يؤمن بطريقة مختلفة، وأحيانًا بطريقة في (غاية) الاختلاف. ولم تكن اليهودية في زمن شاؤول استثناءً، فالتقسيم الأكثر شيوعًا في الدين كان بين المحافظين والتقدميين. المحافظون يعلمون أن دينهم قد جاء به أنبياء سمعوا صوت الله، وأوصلوه إلى الإنسانية، بيد أنهم يحددون الإيمان بالمرحلة الأولى من الوحي الأصلي. أما التقدميون فأرادوا تقبل التطورات الجديدة ومزاعم نزول الوحي والمكاشفة التي ظهرت في ما بعد. في الديانة اليهودية للقرن الأول، تمثلت هذه النزعات المتناقضة بـ (الصدوقيين)، الحزب المحافظ، و(الفريسيين)، الحزب التقدمي وهو الحزب الذي ينتمي إليه شاؤول.

كان الفرق الأكبر بينهما هو الإيمان بالحياة بعد الموت، وهو موضوع لم يُذكَر في اليهودية المبكرة. فما اكتشفه النبي إبراهيم هو أنه لم يكن هناك سوى إله واحد، أما اكتشاف موسى فتمثل في اختيار الله لليهود بوصفهم شعبه المختار وحراس قانونه. كان هذا هو الجوهر الأصلي لليهودية الذي تمسك به الصدوقيون بصرامة. لم يثق الفريسيون في بعض الأفكار التي قال اليهود أنهم انتقوها أثناء أسرهم في بابل، مثل الاعتقاد بقيامة الموتى والثواب والعقاب للمبعوثين. ثمة مفهوم آخر أخذه اليهود من بابل، وكانوا يفكرون في رفضه هو الإيمان بالملائكة، فقد زعموا أن الملائكة وسطاء بين الله والجنس البشري. وصفتْ الملائكة

بأنها (مخلوقات ذكية روحانية)، أو عقول بلا أجساد، استخدمها الله لنقل رسائله لأبنائه على الأرض، وقد عدّها الصدوقيون فكرة أخرى وردت إليهم لا ضرورة لها. فلم يكن الله بحاجة إلى رسل ليوصل كلماته، فهو موجود فعلاً في كل مكان، وأقرب إلى الإنسان من أنفاسه.

هذه ليست الطريقة التي رأى فيها الفريسيون الأشياء. كانوا تقدّميين يرفضون قبول فكرة أن الله قد توقف عن تعليم أبنائه أسرار وجوده ونواياه للعالم. لم يعتقدوا أن الله استهلك المعرفة كلها التي أراد أن ينقلها لعباده منذ مئات السنين. ألم يكن هو الله الحي، القادر على دعوة أنبياء جدد لتعليم حقائق جديدة لخلقه؟ ألم يخبرهم النبي دانيال أن الله قد جعل الملاك ميخائيل مسؤولاً عن إسرائيل، وأنهم بعد أن مروا بفترة من المحن لم يشهدوا مثلها

من قبل، سيتم إنقاذهم وسيقوم الموتى من قبورهم، إلى حياة أبدية، أو إلى عار أبدي؟ وألم تكن المعاناة التي عاشوها تحت الحكم الروماني تناسب وصف دانيال؟ ألم يأمل الجميع بالنهاية التي وعد بها دانيال، وبمجيء المسيح الذي سيحقق هذا كله؟

لقد كان وقت الاضطرابات السياسية والدينية في إسرائيل، وأورشليم القدس مزدحمًا بمجموعات تبحث عن الشخص الذي سيجلب العصر المسيحي. لكن خطرًا ثلاثيًا كان يواجه أيَّ مدعٍ أنه الشخص المنشود ويهلّل له الناس بوصفه المنتظر الذي أتى. حكمت إسرائيل مجموعة متبرمة من المسؤولين الرومان الذين كانوا في حالة تأهب لأقل إشارة للتمرد. وبقدر تعلق الأمر بهم

كان المسيح اسمًا وهميًا يستخدمه المتمرد ضد الحكم الروماني، لذا عرفوا كيف يتعاملون مع المتمردين.

أما الكهنة الذين يديرون المعبد فكانوا أيضًا يشكلون خطرًا على من يزعم أنه المسيح. ربما عدّهم الرومان متمردين سياسيين، لكن الكهنة رأوهم كفارًا يتحدون سلطتهم الحصرية لتحديد إرادة الله، وكانوا يعرفون كيف يتعاملون مع التجديف.

كان أفراد العائلة المالكة المعروفة هيرودس، الذين سلمهم الرومان مسؤولية الأقاليم الأربعة التي قسموا فيها إسرائيل، يشكلون خطرًا أيضًا على من ادعى أنه المسيح. شكّل هؤلاء المدّعون تهديدًا لموقع هذه العوائل المالكة الصغيرة المتشبثة ببقايا قوتها، وكانوا يعرفون كيف يتعاملون مع أي شخص يهدد أسلوب حياتهم.

في أحد أعياد الفصح اليهودي صلب الرومان مدعياً مسيحيّاً

اسمه يسوع لكونه متمردًا، بموافقة رئيس الكهنة الذي أدانه بتهمة التجديف، وبدعم من حاكم الجليل هيرودتس أنتيباس، أصبح هذا المسيحي مصدر إزعاج له، وغير مرغوب فيه. لكن المشكلة لم تنته بصلب الرجل الذي دعوه بيسوع المسيح. فهنا دخل شاؤول القصة.

لم يصمت أتباع يسوع حيال ما جرى بعد وفاته. أصبحوا أكثر جرأة، وقالوا إن لديهم دليلاً على أنه كان المسيح الذي أرسله الله لإعداد إسرائيل لمجيء النهاية. بعد موته، ظهر لهم في مناسبات، وأماكن مختلفة، وأخبرهم أن يبقوا متكاتفين،

وينتظروا العودة النهائية. أغضب هذا الكهنة الذين اعتقدوا أنهم قد تخلصوا من هذا الإزعاج الخطير مرة واحدة، وإلى الأبد. فقاموا بتجنيد شاؤول الفريسي في الفرع الخاص بشرطة المعبد وأمروه بمطاردة هؤلاء (المسيحيين) المزعومين، والقبض عليهم قبل أن يتسببوا في المزيد من المشاكل. كان شاؤول بحاجة ماسة إلى الوظيفة فأقدم عليها بلهفة ما أن حصل عليها.

لدينا وصف له من ذلك الزمن؛ كان صغيرًا، وأصلعَ، ومقوس الرجلين. وقد اعترف بنفسه أن هيئته كانت متواضعة، لكن شيئًا مختلفًا كان يميزه، موجود هناك في عينيه، وهو الشغف، ونظرة الباحث. كان يحترق بطاقة لا تهدأ، وتمكُّنٍ من الجدل! هذا هو الرجل الذي ارتدى الآن شارة صياد المسيحيين. لكن تذكر، أنه كان فريسيّاً. لم يعتقد الصدوقيون أن أي إنسان يمكن

أن يقوم من بين الأموات، لذا رفضوا ادعاءات المسيحيين وعدُّوها هراءً. كان منطقهم واضحًا: لا يمكن لأي إنسان أن ينهض من الموت؛ يسوع كان إنسانا، لذلك لم يقم يسوع من الأموات.

لم تكن هذه الطريقة التي تناول فيها الفريسيون الجدل. فهم آمنوا أن الله سيقيم الموتى يومًا من أجل حساب يوم القيامة، ولكن لم يصدقوا أنه قام بالفعل ببعث يسوع حيًا. ولم يصدق شاؤول ذلك أيضًا، لهذا السبب تعقب الكفار الذين آمنوا به. ولكن أكان ثمة شك ما يعتمل في داخله؟ ألهذا السبب كان عنيفًا؟ أكان وهو يجوب أنحاء البلاد كلها مطاردًا المسيحيين يهرب من نفسه؟

كل ما فعله هو الاستمرار على ملاحقتهم. وقد سمع عن وجود مسبق لأتباع يسوع في دمشق، على بعد مائة ميل شمال أورشليم القدس. من أين سيصلون بعد ذلك؟ حصل على إذن من رئيس الكهنة لمطاردتهم. وبينما كان يسير على الطريق المؤدي إلى دمشق، بغتة أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض. ثم سمع صوتًا يسأله (شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني؟). فقال: (من أنتَ يا سيد؟)، فرد عليه: أنا يسوعُ الذي أنتَ تَضطهدهُ. ثم طلب منه الصوت النهوض والدخول إلى دمشق حيث سيقال له ماذا ينبغي أن يفعل. نهض شاؤول عن الأرض، وكان وهو مفتوح العينين لا يُبصر أحدًا. لا ترفض فكرة إصابته بالعمى على أنها كذبة خرافية. تذكر ما يمكن للعقل البشري القيام به. هناك قول مأثور: لا يوجد من هو أعمى ممن لا يريد أن يرى.

كان عمى شاؤول من أعراض رفضه الطويل للاعتراف بحقيقة ما عرفه الآن. قاده مساعدوه إلى دمشق، ووجدوا غرفة له. بقيَ هناك ثلاثة أيام، أعمى، مرتبكًا، لا يستطيع أن يأكل أو يشرب، في انتظار معرفة ما الذي سيحدث بعد ذلك. جاء أحد تلاميذ يسوع من دمشق يدعى حنانيا إلى شاؤول في مسكنه في شارع مستقيم، ورعاه. استعاد بصره وفعل شيئًا خطيرًا على الفور: ذهب إلى الكنيس المحلي وأعلن للمتعبدين أن يسوع هو ابن الله، المسيح الذي كانوا يبحثون عنه. أخبرهم أنه كان يعلم ذلك، لأن يسوع قد ظهر له.

تخيل تأثير هذا على اتباع يسوع. يدّعي مضطهدهم الآن أنه واحد منهم، أكان هذا خداعًا؟ وهل ذهب شاؤول متخفيًا ليخترق حركتهم، وليتعرف، عن قرب، على أعضائها ويدينهم؟ كانوا متوترين بسبب متحولهم الجديد هذا.

لم يكن شاؤول نفسه واثقًا مما سيفعله بعد ذلك. ما قرّره كان نابعًا من طبيعته، فبدلاً من اللجوء إلى قادة الكنيسة لمعرفة معتقداتهم ولطلب قبولهم له، ذهب بنفسه إلى الجزيرة العربية ليصلي ويفكر بشأن ما حدث له. كان يعتقد أنه لا يحتاج لأحد أن يعلمه العقيدة المسيحية، فقد أعطاه يسوع كل ما يحتاج إليه في ظهوره على طريق دمشق. كانت قيامة يسوع (هي) الرسالة: افهم مضمونها، وسيكون العالم كله أمامك.

استغرق الأمر ثلاث سنوات قبل أن يصل شاؤول، الذي

يدعى الآن بولس، إلى القدس للقاء قادة حركة يسوع، أو، كما كان يسميهم، القادة (الآخرون) للحركة. لأنه كان يدعي الآن أنه رسول (مرسل) من يسوع ليعلن رسالته. ومن الأفضل أن يعتادوا على الأمر.

فكر الرسل الآخرون، أليس من الغريب أن هذا المدعي الذي لم يلتقِ المسيح مطلقًا، ولا يعرف شيئًا عن حياته الأرضية، يعلن ههنا عن قيامته؟ (نحن) من عرفه، على الرغم من أنه حيّرنا. لم نسمع أبدًا من يتكلم بالطريقة التي تكلم فيها. يا ترى، هل كان المسيح؟ تبعناه لنعرف ذلك. بيد أن الأمر لم يسر كما كنا نتوقعه. إذن من كان هذا الرجل المسمى (يسوع)؟ وماذا حدث له حقًا؟

الفصل التاسع عشر



المسيح

أول ما ينبغي معرفته عن يسوع المسيح هو أن المسيح ليس لقبًا. فكلمة (Christos) هي الترجمة اليونانية لكلمة المسيح في اللغة العبرية. لقد كان هو يسوع المسيح، عدا أن الجميع لم يكونوا متفقين عليه، حتى اسمه بات مصدرًا للجدل لحقه بعد وفاته. عندما صلبه الرومان أبقوا اللعبة مستمرة معه فوق صليبه، إذ قاموا بتثبيت علامة ساخرة: (ملك اليهود)! فهو لم يكن سوى

مزحةٍ لهم، يهوديٍّ مجنونٍ آخر يحاول تغيير العالم.

منذ البداية أثار جدل الناس بشأنه: من أين أتى، ومن كان والداه، ومن ظن نفسه، وماذا حدث له بعد موته؟ ما زال هذا الجدل مستمرًا. مليارات الكلمات كُتبت عنه، أقدمها في الكتاب المقدس المسيحى، أو العهد الجديد. سمىّ جديدًا لتمييزه عن

الكتاب المقدس اليهودي أو العهد القديم. هذا التمييز هو دليل على الكيفية التي رآه فيها حواريّوه الأوائل. بالنسبة لهم لم يأت ليبدأ دينًا جديدًا، بل ليتمم الديانة القديمة لليهود، إذ دعا الله إبراهيم وموسى لإقامة الميثاق، أو العهد الأول.

والآن دعا يسوع لإقامة عهد جديد وإتمامه في العصر المسيحي.

لكي نعرف عنه ينبغي الرجوع إلى العهد الجديد. ولسوء الحظ فإن الطريقة التي جرى تنظيمه فيها كانت مضللة. فهو يبتدئ بأربعة كتب تسمى الأناجيل، وهي كلمة تعني الأخبار السارة، وهي بالترتيب: (الأخبار السارة) وفقا لماثيو، ومرقص، ولوقا، ويوحنا. ثم ظهر كتاب يدعى (أعمال الرسل) متبوعًا بالكثير من الرسائل، كتب معظمها بولس المتحول الذي ذُكِر في الفصل السابق. قد تتساءلون: لماذا لم أبدأ الفصل السابق،

بماثيو، وهو يعدّ أول نص مكتوب في الكتاب المقدس؟

لأنه ليس الأول. إن أول، أو أقدم ما يمكن أن نكون متأكدين منه هو رسالة كتبها بولس إلى المسيحيين المتحولين في مدينة كورنث اليونانية نحو عام 55م، وبعد خمسٍ وعشرين سنة من موت يسوع. لا يظهر فيها أي اهتمام (بحياة) يسوع، بل يركز على ما حدث له بعد وفاته فحسب. كانت دلالة رسالته الضمنية هي أن موته لم يُنْهِهِ، بل أوصله إلى حياة جديدة في ملكوت الله كان قادرًا فيها أن يتصل بأولئك الذين تركهم وراءه على الأرض. أدرج بولس مئات الأشخاص الذين ظهر يسوع لهم بعد وفاته، وسرد بما فِي ذلك تجربته الخاصة على الطريق إلى دمشق.

والحال إن أول ما يخبرنا به العهد الجديد عن يسوع هو أن موته لم يُزِلْهُ من التاريخ. فالظواهر أثبتت أن موته لم يكن نهاية له، بالأحرى كان بداية لوعد الله بعصر جديد، واللحظة الاستهلالية في حملته لإقامة نظام جديد في العالم. ولن يكون الموت، أيضًا، نهاية لحواريي يسوع، فإذا ماتوا فإنهم سيحصلون على الحياة بعد الموت، وقد لا يكونون مضطرين للموت. فقد أثبتت قيامة يسوع أن الله كان يتحرك في النهاية. والمملكة المثالية التي وصفها يسوع كانت على وشك أن تُقام على الأرض، وأن كل شيء سيتغير، حتى الموت!

تعد تلك الرسالة من بولس إلى أهل كورنثوس في عام 55م بمثابة أول علامة نحصل عليها عن يسوع تغطي ما حدث بعد وفاته فحسب. ولمعرفة حياته، علينا أن نذهب إلى الأناجيل التي ظهرت في وقت لاحق. فقد ظهر إنجيل مرقص لأول مرة

في أواخر ستينيات، أو أوائل سبعينيات القرن الأول الميلادي، وتبعه إنجيلا ماثيو ولوقا بين عامي 80 و90م، وجاء الجزء الأخير من الإنجيل على يد يوحنا عام 100م. هذه التواريخ جديرة بالملاحظة، فكلما ابتعدتَ زمنيًا عن حياة نبي أضفي على القصة مزيدٌ من المبالغة، والتنميق. وهذا ما حدث ليسوع. لا أريد الدخول في جدل حول كيف، وأين ولد، وكيف بُعِث من الموت، أو في جدل حول عدد الملائكة الذين كانوا حاضرين عند ولادته في بيت لحم، أو في قيامة القدس. أريد التمسك بأكثر الحقائق المقبولة عنه بوجه عام، فهي مقنعة بما فيه الكفاية.

أقحمنا مرقص مباشرة في مشهد من مشاهد المسرح الرؤيوي. رجل بريّ يعيش على الجراد، والعسل البري مرتديًا ثوبًا من شعر الإبل، يخرج من الصحراء، ويبدأ الوعظ، يسمونه يوحنا المعمدان لأنه يُغطِس الناس في نهر الأردن دلالة على ندمهم على ارتكاب خطاياهم، ورغبتهم في بداية جديدة. يُغرِقون حياتهم القديمة، وينهضون بحياة جديدة. لا يدّعي يوحنا أنه المسيح، لكنه يقول إنه جاء ليمهد الطريق لمن سيكون. ثم يُخبرنا أن رجلًا سافر من الناصرة في الجليل إلى الأردن ليعمده يوحنا. هذه هي لمحتنا الأولى عن يسوع في التاريخ وهو في الثلاثين من عمره. وما حدث بعد ذلك هو البداية الحقيقية للحكاية.

عندما سحبه يوحنا إلى السطح بعد احتجازه تحت الماء بضعَ ثوانٍ طويلة، انبهر يسوع بالضوء، وسمع الله يناديه بابني الحبيب.

على الرغم من أننا لا يمكن أن نتأكد من أن هذه هي اللحظة التي عرف فيها يسوع أنه هو المسيح، فإنها كانت بالتأكيد اللحظة التي بدأت مهمته فيها. تذكر مرة أخرى ما يفعله الأنبياء. إنهم يسمعون صوت الله يتحدث إليهم ويخبرون الآخرين بما سمعوه. وهذا ما يضعهم في مسار تصادمي مع أولئك الذين يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء عن الله، وهم الخبراء الدينيون الذين لن يأخذوا دروسًا من فتى القرية القادم من الجليل. ثلاث نقاط من الصدام بين يسوع والممثلين الرسميين لليهودية تخبرنا بكل ما نحتاج إلى معرفته عن القوى التي أدت إلى موته.

يتمثل الصدام الأول مع مرقص، فهو يخبرنا أنه بعد تعميد يسوع، بدأ بخدمة الفقراء والمعذبين. أغضبته رؤية السلطة التي تعد المعاناة بمثابة عقوبة للخطيئة، وأغضبه كذلك فعل المعاناة نفسه. فليست الطريقة التي نسق فيها الله العالم هي سبب المعاناة، وإنما الطريقة التي نظّم العالم فيها المتنفذون في الدين والسياسة. الله يكره ما صنعه هؤلاء في عالمه، لذلك أرسل يسوع ليُظهر ما ستكون عليه مملكته عندما يحين موعد ظهورها على الأرض، وهذا الخبر سيسعد الفقراء ويحرر أبناء الله من النظم التي كبل الشرعويون حياتهم بها.

دار صدامه العلني الأول مع السلطات حول الوصية للحفاظ على يوم السبت يومًا للراحة. كان يسوع يقود بعضًا من حوارييه عبر حقل قمح. قطفوا رأس سنبلة قمح غريبة

ليمضغوا قمحها أثناء سيرهم فأتهمهم الفريسيون بالعمل في يوم السبت بسبب ذلك. فجاء رد يسوع ثوريًا قائلاُ إن يوم السبت وضع من أجل الإنسانية، وليس الإنسانية من أجل هذا اليوم. نحتاج إلى القواعد واللوائح في المجتمع، لكن لتكون خدمَنا لا أسيادَنا. وإذا ما فرضناها بصورة صارمة، تصبح أكثر أهمية من الأشخاص الذين وضعت لمساعدتهم. حقيقة أن الطاويين أدركوا هذا قبل ستمائة عام بما يعكس مدى تعنت التقيد بحرفية القانون. الآن جاء يسوع ليتحدى ذلك مرة أخرى، لابد من أن يخضع القانون للإنسانية، وليس العكس. ولا عجب أن

الشرعويين كرهوا المسيح. وكانت هذه أول تهمة ضده نزلت على لائحة الاتهام.

جاء الصدام الثاني، العظة فوق الجبل، مع ماثيو وكان أكثر خطورة. فقد تحدى يسوع الطريقة التي يُدير فيها أصحابُ القوى العالم. وتمثلت النظرية في أن البشر كانوا من الرعاع الفوضويين الذي يحتاجون إلى أن يظلوا تحت السيطرة. إن أعطيتهم بوصة فسيأخذون ميلاً، لذلك اضربهم بقوة، وكرر ذلك مرارًا، فهم لا يفهمون إلاّ لغة واحدة، لغة قبضة اليد على الفك، والجزمة على مؤخرة الرقبة. إزاء ذلك سيقف ماثيو على جبل مثل موسى مع الوصايا العشر ليصف ما سيكون عليه الحال عندما تهبط مملكة الله على الأرض.

إذا قام أحدهم بصفعك على خدك، فأدر له الخد الآخر

ليتمكن من صفعه كذلك. وإذا قام شخص ما بأخذ سترتك، فسوف تعرض عليه معطفك أيضًا. أحبَّ أعداءَك ولا تكرههم، قدّم الخير لمن بادر بالشر معكَ. وسوف تسامح، وتسامح وتسامح، وتسامح، بلا نهاية. هذا هو الحال في السماء، وهذا ما يجب أن يكون عليه في الأرض. مفتاح المملكة التي يكتنفها الغموض كما يصفها يسوع تكمن هنا في كلمة قيلت له في معموديته: (أنت ابني الحبيب). الله لم يكن حاكمًا، ولا رئيسًا، ولا آمرًا للسجن البشري، ولم يكن مستغلا للعبيد وإنما كان أبًا، مثّل الجنس البشري له عائلة واحدة. إنه لحديث ثوري! لا عجب

أن الحكام ظلوا يراقبونه. وهذه كانت تهمته الثانية التي أضيفت إلى لائحة الاتهام.

أما الصدام الثالث فموصوف في إنجيل لوقا. لم يلق يسوع أبدا محاضرات تقول للناس ما يفكرون به. ومثل أنبياء إسرائيل، كان يحكي قصصًا تجعل الناس هم من يفكرون بأنفسهم. وقد طلب منه مستمع ودود أن يعيد قول أهم الوصايا في القانون اليهودي. أجاب يسوع بأن يحبوا الله بكل قلوبهم وروحهم وقوتهم. وكانت تلك هي الوصية الأولى، والثانية هي أن يحبوا جيرانهم كما يحبون أنفسهم. أجاب المستمع، صحيح، ولكن من هو جاري؟ فكان رده: حكاية السامري الطيب.

رجل وقع بيد اللصوص فتركوه عاريًا، فاقدًا الوعي على طريق خطير، مهجور. مرّ كاهن قربه يتبعه مساعده. كانا رجلَيْن

صالحين أرادا المساعدة، لكن دينهما منعهما من ذلك. فقد يكون الرجل الملقى على جانب الطريق ميتًا، ووفقًا لدينهما فإن لمس جثة قد يلوثهما، وقد يكون الرجل المصاب ينتمي لعرق لا يُسمح لليهود بالاختلاط به، لذا فإن لمسه قد يجعلهما قذرين. لذا عبرا إلى الجانب الآخر وتركاه مستلقيًا هناك. ومن بعيد مرّ أحد السامريين، وهو من الأعراق التي حرم اليهود الاختلاط بها. وكان لدينه نفس محظوراتهما، إلّا أن تعاطفه مع محنة الإنسان تجاوزت دينه. فذهب ليساعد الرجل وينقذ حياته. ووفقًا ليسوع، ليس الجار شخصًا ينتمي لفريقك الديني بل هو كل من يحتاج

إلى مساعدتك. إذا كان الله أبانا، وكنّا، نحن، أبناءَه (فالجميع) هم جيراني، وأخواتي، وأخوتي.

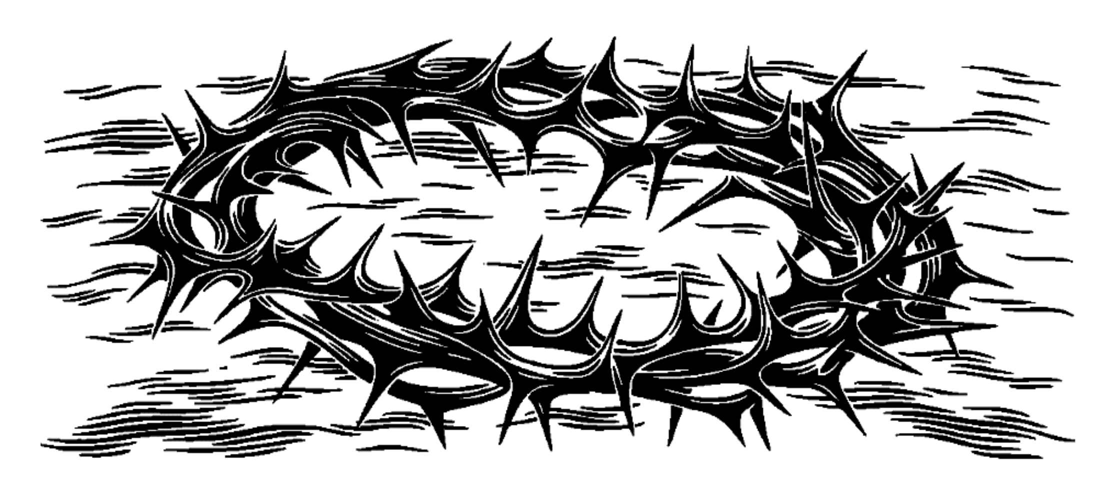
من السهل أن تفوت مغزى هذه الحكاية الرمزية: القانون كان المغزى وراء ما يقال عن يوم السبت في إنجيل مرقص. وسياسة القوة كانت مغزى الموعظة فوق الجبل في إنجيل ماثيو. وفي قصة السامري الطيب تمثل المغزى في (الدين). كان يسوع يقول يمكن للمؤسسة التي تدعي بأنها تمثل الله أن تصبح بسهولة أكبر أعداء الله، لأنها تقدرً أنظمتها أكثر من محبة الله. لا عجب أن الكهنة قد كرهوا المسيح وبدأوا ببناء قضية ضده. كانت هذه هي التهمة الثالثة ضده، التي أضيفت إلى لائحة الاتهام، وبهذا اكتملت القضية ضده. لقد كانت الآن مسألة وقت لا غير قبل أن يأتوا ليأخذوه.

علّم يسوع حوارييه صلاة، على الرغم من قصرها تكتظ سطورها القليلة بكل ما علمه لهم. (أبانا الذي في السماء)،

هكذا تبدأ، (ستقام ملكوتك على الأرض كما هي في السماء).

لقد بقيت هذه الصلاة مستمرة فترة طويلة حتى أنها فقدت قوتها بالنسبة للمسيحيين الذين ما زالوا يرددونها. لكن تخيّل تأثيرها إذا كنت كاهنًا مؤمنًا أنك، فعلاً، تخدم الله على الأرض، أو إذا كنت حاكمًا سياسيًا يحاول الحفاظ على مستعمرة منفلتة تحت السيطرة؟ إنها روح تحدٍّ قتالية، تكفي لقتل إنسان.

الفصل العشرون



المسيح يأتي إلى روما

جاءوا إلى يسوع في منتصف الليل، وقت الشرطة السرية المعتاد الذي يضربون فيه ضربتهم، وقت تكون المدينة فيه هادئة، والطاقة البشرية في أدنى مستوياتها. اعتقلوه في حديقة خاصة، وقادهم إلى هناك أحد أتباعه.

كان يسوع سيد الإشارات الرمزية. فعندما بدأ حركته للتحرر الروحي، ردّد فكرة دخول الشعب اليهودي إلى كنعان.

يخبرنا الكتاب المقدس أن اليهود الذين خاضوا صراعًا للخروج من مصر إلى أرض الميعاد انقسموا على اثني عشر قبيلة، عرفت باسم القبائل الاثني عشر لإسرائيل. لذا اختار يسوع اثني عشر رجلاً من بين رفاقه التابعين ليساعدوه في قيادة حملته المختلفة للغاية. دعاهم الحواريين، وهى كلمة يونانية تعنى الرسل.

تمثلت رسالتهم في الأخبار السارة بأن ملكوت الله حيث يحل السلام باتت على مشارف التحقيق.

لكن الحواريين لم يكونوا مجموعة مثيرة للإعجاب، إذ اتضح أن أكثرهم شهرة اثنان كانا فاشلين، وهما بطرس ويهوذا. بطرس كان حنونًا لكنه ضعيف، وقد تخلى عن السيد المسيح بعد إلقاء القبض عليه. أما يهوذا فهو من قاد الشرطة إلى المكان الذي كان يختبئ فيه يسوع. لسنا متأكدين من السبب وراء ذلك، بيد أن الكهنة أعطوه ثلاثين قطعة من الفضة مقابل خيانته هذه، ولكن يبدو أنه من غير المرجح أن يفعل ذلك من أجل المال. ربما شعر بخيبة أمل، لأن يسوع لم يكن هذا النوع من المسيح الذي كان يتوقعه. كان للمسيح أتباع كثيرون من الفقراء والمضطهدين في إسرائيل، ومع ذلك لم يحمل السيف لمحاربة الرومان. فهل من

محرّض يستحثه على حمل السلاح ليقيم المملكة الموعودة؟ هل كان هذا دافع يهوذا؟ نحن لا نعرف. ربما هو لم يكن يعرف أيضًا. يخبرنا ماثيو أن ما حدث ليسوع بعد إلقاء القبض عليه في حديقة الجثمانية فطر قلب يهوذا فشنق نفسه. كان الأوان قد فات للتراجع عما فعله. فيسوع في ذلك الوقت كان في يد الجنود الرومان.

كان الجنود الرومان، أيضًا، أسيادًا في الإشارات الرمزية بعد أن حكمت السلطات على يسوع بالموت بصلبه. ضغط الجنود تاجًا من الشوك على رأسه ولفوه بعباءة قديمة ذات لون أرجواني ضارب إلى الرمادي. (يحيا ملك اليهود!)، استهزأوا به وهم يقودونه إلى مكان الإعدام. كان الصلب، وهو الموت

البطيء عبر تسمير الضحية على الصليب، أعنف عقوبة في روما. يمكن للضحية أن تبقى معلقة لأيام قبل أن تموت. عندما قاد سبارتاكوس ثورة العبيد ضد روما في عام 73 قبل الميلاد جرى إخمادها بضراوة فظيعة. وعندما انتهت قام الجنرال الروماني كراسوس بصلب ستة آلاف من المتمردين وتركهم معلقين شهورًا على طول أحد الطرق العظيمة في روما. كان الأمر أسرع بالنسبة إلى يسوع، إذ استمر ستَّ ساعات فقط على الصليب، ربما لأنهم قاموا بجلده بشدة بعد إلقاء القبض عليه، وكان شبه ميت في الوقت الذي قاموا فيه بتسميره على الخشب.

ماذا كان يفكر أثناء تعليقه على الخشب بالمسامير؟ هل خُدِع المسيح بما ظن أن الله قد أوحى إليه به، أم أنه تقبل موته جزءًا من خطة الله؟ كلا الاقتراحين طرِح. فوفقا لإحدى النظريات،

كان يسوع مؤمناً بأن الله سيتدخل في اللحظة التي يبلغ فيها أقصى درجات الخطر في تحديه للسلطات. وهي لا تختلف عن النظرية بشأن يهوذا في محاولته للضغط على يسوع. فهل كان يسوع يسعى إلى بسط سلطان الله قبل الأوان؟ هل كان يعتقد أنه من خلال إعلان المملكة التي لم تشهد الأرض مثيلاً لها من قبل، والاستعداد للموت من أجلها، سوف ينبعث الله بقوة في التاريخ ويقلب الطاولة على حكام هذا العالم؟ إن كان هذا ما توقعه، فهو لم يحدث. لم يأت الإنقاذ من الرومان. ولم ينقضَّ الله سريعًا على التاريخ لإنهاء معاناته. كان هناك الصليب واليقين بأنه سيموت عليه فحسب! فما الذي حققه؟ لا شيء! يخبرنا

مرقص أنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، صرخ يسوع في يأس «يا إلهي، إلهي، لماذا تخليت عني؟ »).

أعطى كتبة الإنجيل الآخرون صلب يسوع منعطفًا مختلفًا، إذ أشاروا إلى أن يسوع كان دائما تحت السيطرة، وأن موته كان جزءًا من خطة الله منذ البداية، وأنه كان يعلم بأنها جزء من الصفقة. أصبحت هذه القصة هي القصة الرسمية في الوقت الذي كتب فيه يوحنا الإنجيل، فلم تكن الكلمة الأخيرة فيها لصرخة يسوع اليائسة كما وردت في إنجيل مرقص، بل صرخة نصر: (لقد تحقق الوعد!).

لا يبدو الأمر كما لو أن أيًا من أتباع يسوع كان يتوقع ما حدث بعد ذلك. وبصرف النظر عن مجموعة صغيرة من النساء المخلصات، فقد تخلى عنه الجميع عندما جاءت الشرطة

لتأخذه. كانوا يخشون من أن يكونوا التالين، وانتظروا الطرق على الباب في الساعات التي تنتهي فيها التوقعات قبل الفجر. لكن لم يأتِ أحد أبدًا. ما فاجأهم أن يسوع هو الذي أتى، على الرغم من أنهم ربما لم يكونوا قادرين على أن يقولوا بالضبط كيف عرفوه. في رسالته إلى أهل كورنثوس وصف الرسول بولس المفاجأة لما حدث، مقدمًا قائمة بجميع الأشخاص الذين ظهر لهم يسوع. في النهاية، كما يقول، ظهر لي، وعدنا إلى ذلك الحادث على الطريق إلى دمشق. هذه كانت المفاجأة التالية لرسله.

منح ظهور يسوع جرأة لبطرس والرسل الآخرين، إذ كانوا قد تفرقوا عند إلقاء القبض عليه، لكنهم الآن عادوا

واجتمعوا مجددًا، وأظهر بطرس قدرًا أكبر من الشجاعة. على الرغم من أنهم لم يكونوا متأكدين من كيفية تكشف المستقبل، بدأوا يخبرون رفاقهم اليهود بما حدث. لقد ازدادوا جرأة وهم يكررون اعتقادهم بأن يسوع، رغم أنه قد عانى شكلاً من أشكال الموت قال عنه الكتاب المقدس أنه ملعون، فهو المسيح المنتظر. وظهوره كان الدليل.

لكن ما هو الجدول الزمني للمملكة الجديدة التي اعتقدوا أنها كانت في طريقها الآن للوجود؟ كانوا يعتقدون أنه لا يمكن تأجيلها فترة أطول، وسيعيشون جميعًا لرؤيتها، ولن يُخطئوا فيها هذه المرة بأي حال من الأحوال. فعودة يسوع هذه المرة لم تكن سرًا كما في ظهوره بعد وفاته. وفي المرة القادمة سيكون ذلك في عظمة ملكوته التامة. لقد وجد بولس أفضل طريقة للتعبير

عنه عندما قال إن قيامة يسوع بعد موته كانت الحزمة الأولى من الحصاد الهائل الذي سيتم جمعه قريبًا.

ما زال أتباع يسوع الأصليون لا يعرفون ما يفعلون مع بولس. كونه بات من أكبر مضطهديهم، فشاؤول أصبح الآن يُدعى بولس متحولاً إلى أكثر إزعاجاتهم إثارة للغضب. فبعد أن تجاوزوا صدمة تحوله، وبعد أن سمحوا له بأن يطلق على نفسه رسولاً لأن يسوع كان قد دعاه هكذا في الطريق إلى دمشق، كان ما يزال رجلاً يصعب التعامل معه. ومثل يسوع، كان التلاميذ جميعًا يهودًا، وأرادوا الحال أن يبقى على هذا النحو. فمهما كانت ما تعنيه عودة المسيح، ومهما كان الوقت الذي تحققت فيه، كانوا

متأكدين من أنه سيكون في القدس، مدينة الله المقدسة. لهذا السبب أرادوا المكوث ساكنين حيث كانوا سينتظروه. كانوا سينشرون الأخبار أنه كان المسيح وسيعود قريبًا، لكن فقط بين اليهود، بين شعبه فحسب.

(كلا!)، صرخ بولس. ألَا تدركون أن الله مزّق هذه الصفقة القديمة، ونشر أخرى جديدة؟ لقد خدمت الصفقة القديمة هدفه وكان هدفًا نبيلاً. لكن الأمر انتهى. كان هذا مثل ضرورة ذهاب الطفل إلى المدرسة. مهم للغاية عندما تكون شابًا لكنه ينتهي ما أن تكبر. وكان هناك أمر آخر، فلم تكن الصفقة الجديدة لليهود فحسب، بل كانت للجميع. كانت للعالم كله!

قال لهم بولس: « لا ينبغي أن تجتمعوا مع بعضكم في القدس وتنتظروا مكتوفي الأيدي من أجل عودة المسيح ». يجب

أن تكونوا في مكان تخبرون العالم فيه أنه لا حاجة لتكون يهوديًا لتتبع طريق يسوع. نحن، بالطبع، سنظل يهودًا مخلصين في ممارسة شعائرنا الدينية، فهي تراثنا. لكن من المؤكد أنك لن تخبر الأمم الأخرى أنهم إذا أرادوا أن يتبعوا يسوع فعليهم أن يقوموا بالختان، لأنه كان، قرونًا، ما يميز الأولاد اليهود أبناء الله؟ هذا كان في الماضي، أما الآن فنحن في الحاضر. ما هو مطلوب الآن ليس ختان القلفة، بل ختان القلب. الختان الروحي! يجب على الأمم الامتناع عن طريقة عيشهم القديمة، والبدء في العيش بروح يسوع.

لا نملك الكثير من الوقت لنشر الرسالة. فسيعود في وقت أقرب مما تظن. بالفعل يموت الناس الذين لم يسمعوا الرسالة. علينا أن نسرع، لا وقت هناك لنضيعه.

ذهب بولس إليهم مرارًا وتكرارًا حتى أضعف دفاعاتهم. لكنهم لم يستسلموا له بالكامل. فقاموا معا بالتوصل إلى تسوية. أن يبقى أتباع يسوع الأصليون في القدس، وهو المكان الذي ينتظرون فيه عودته، ويبقون مخلصين لعاداتهم وتقاليدهم اليهودية جميعها، محتفظين بكل طقوسهم. لكن كان بإمكان بولس أن يذهب إلى الأمم ويخبرها عن السيد المسيح. ولن يكون لزامًا على معتنقي الدين الجديد الذين اهتدوا على يديه أن يتبعوا تقاليد اليهودية. هكذا ابتدأ الترحال. أرهق نفسه في أسفاره في ارجاء المقاطعات الرومانية في الطرف الشرقي من البحر الأبيض

المتوسط حيث قام بتحويل الكثير من الأمم إلى دين يسوع، وأنشأ كنائس أينما ذهب.

لذا قيل إنه ليس يسوع، ولكن بولس من كان المؤسس الحقيقي للمسيحية. من دونه كانت حركة يسوع قد تلاشت كأي طائفة مسيحية فاشلة أخرى في اليهودية. كان بولس من أدخلها إلى التاريخ. إنها حقيقة، لكنه أخذ يسوع معه. فيسوع من كان يبشر: يسوع الذي قابله في طريقه إلى دمشق، ويسوع الذي كَشفَ الأخبار السارة لمحبة الله للعالمِ، ويسوع الذي سيعود قريبا، لذا لا وقت هناك لنضيعه.

إلّا أن يسوع لم يعد. ما يزال غائبًا، على الرغم من أن ترقب عودته في يوم من الأيام لم يختف أبدًا. إنه جزء من العقيدة الرسمية للمسيحية التي تقول حتى يومنا هذا ((سيبعث ثانية في مجده ليُجازيَ الأحياءَ والأموات كلّاً حسب عمله)).

نال بولس احترام الرسل الآخرين على مضض، وشجعوه على تطوير مهمته مع الأمم وعلى إقامة كنائسه. كانت الحالة مختلفة مع السلطات الرسمية لليهودية، لأنهم فقدوا أكثر مضطهد للمسيحيين فاعلية. فقد كلفوه بإيقاف تحركات عدوهم، لكنه قام بتغيير ولائه والانضمام إليهم. الآن أضحى هو العدو. لذا لاحقوه بنفس العنف الذي أرسله متهمًا إلى طريق دمشق. فدائمًا ما كان يقبض عليه ويعاقب، إذ حُكِم عليه خمس مرات بعقوبة رسمية من تسع وثلاثين جلدة، وتعرض للضرب بالقضبان في ثلاث مناسباتٍ، ورُجِم مرةً واحدة. وأخيرًا، حين لم يعد يحتمل

أكثر ناشد السلطات الرومانية، فقد كان مواطنا رومانيا، على الرغم من كل شيء، وعلى هذا الأساس طالب بمحاكمة عادلة لجريمته المزعومة في أثناء التبشير بالأخبار السارة عن يسوع.

وأخيرًا اعترفت السلطات الرومانية بشرعية طلبه بوصفه مواطنًا، لذلك أحضروه إلى روما لمحاكمته. وضعوه تحت الاعتقال ما أن وصل إلى هناك. لكن هذا لم يمنعه من تحويل المتدينين إلى إيمانه بيسوع. كان بولس رجلاً من النوع الذي لم يستطع التوقف عن كسب المتحولين لقضيته، حتى وهو في السجن. والآن وصلت المسيحية إلى روما. حدث ذلك بهدوء وبطريقة

سرية، وقت حصول هذا الرجل القصير ذو الساقين المقوستين والنظرة الحادة على الاقامة في عاصمة الإمبراطورية الرومانية.

غالبًا ما تغير الأحداث التي تظهر خلسة العالم. وكان هذا حدثًا واحدًا منها، وكان من شأنه تغيير مسار التاريخ.

الفصل الحادي والعشرون



الكنيسة تتولى المسؤولية

ربما كان هناك مسيحيون في روما قبل وصول بولس إليها. فقد شجعت الطرق، والممرات البحرية في الإمبراطورية على انتقال الأفكار، وكذلك حركة القوات العسكرية، لذا من المرجح أن المسيحيين قد استقروا بالفعل في عاصمة العالم الروماني، من دون أن يُوليَهم أحدٌ الاهتمام. بولس نفسه وصف المسيحيين الأوائل بأنهم كانوا محتقرين ومهمشين، أي من الأشخاص

المقهورين، أنفسم، الذين اتبعوا يسوع في إسرائيل. من بين
هؤلاء العبيد الذين عُدُّوا ملكيةً بشرية يمتلكها أسيادُهم مثل
الخيول أو الإسطبلات التى تقف فيها. كان الرق حقيقة عالمية
في الحياة، حتى الكتاب المقدس تعامل معه بوصفه أمرًا مسلمًا
به. كانت هذه الطريقة التى تحدث فيها الأمور، مثل رطوبة

الماء، أو جفاف الرمال. إحدى التحولات التي قام بها بولس عندما كان رهن الاعتقال في روما هي جعل عبد هارب يدعى أنسيمس، سرق سيده وهرب إلى المدينة، يعتنق المسيحية. أحبه بولس لكنه لم يحاول إنقاذه من العبودية، فبعثه مرة أخرى كمحفظة مفقودة إلى صاحبه فليمون، متوسلاً إليه أن يعامله الآن بلطف لكونه رفيقًا مسيحيًا.

تُرَى لِمَ لمْ يتحدَّ بولس الرق على الرغم من أنه يتعارض مع الرسالة المسيحية للحب الكوني؟ لماذا لم يقنع فليمون بإطلاق سراح العبد بدلاً من أن يطلب منه أن يكون لطيفًا معه بعد أن أعاده؟ ربما لأنه لم يتوقع العالم أن يستمر على ما هو عليه لفترة أطول، فسرعان ما سيحضر يسوع ملكوت الله من العدالة والمحبة إلى الأرض، فلماذا يعبث مع نظام كان على وشك الانقراض؟

إذا كنت على وشك هدم منزل فأنت لا تضيع الوقت في إصلاح الأنابيب. هذا يعني أن المسيحيين الأوائل لم يشعروا تمامًا أنهم في سلام، وأنهم في موطنهم في هذا العالم. إن أملهم في أن ينتهي الأمر في وقت قريب جعل الرومان يرتابون منهم. أعطاهم الانطباع بأن المسيحيين يكرهون الجنس البشري. لكن ذلك لم يحدث إلّا عندما لاحظوا شيئًا آخر عنهم ما دفع سلطات روما إلى جعل المسيحيين هدفًا لغضبهم.

البخور هو مزج مادة صمغية، تؤخذ من الأشجار، بالأعشاب العطرية، وما أن يحترق حتى يُطلق دخانًا ذا رائحة رائعة. في الديانة القديمة كان حرق البخور إلى الإله يعد عبادة شعبية. ربما

شاع معتقد في وقت من الأوقات أن الدخان عندما يتصاعد من المجمرة، فإن طيب رائحته تبهج الإله في السماء، فيحصل المرء على مباركته. وكان الرومان أصدروا أمرا لرعاياهم أن يسقطوا بضع حبات من البخور في المجمرة تحت صورة الإمبراطور، تمامًا كما لو كانوا يعبدون إلاهًا. أصبح هذا اختبارًا للولاء مثل تحية العلم، أو الوقوف للنشيد الوطني. إن اعتقد الرومان فعلاً أن الإمبراطور كان إلهًا هو أمر لا يمكن البت فيه، لكن الممارسة كانت تتضمن ذلك بالتأكيد. عند المسيحيين بدا هذا الأمر لا يحتمل، فاحتجوا قائلين إنهم وإن كانوا موالين للإمبراطور لكنهم غير مستعدين لحرق البخور له كما لو كان إلها.

كان هذا ما احتاجت إليه السلطات. فضلا عن انتشار إشاعة مفادها أن المسيحيين يخططون لوضع نهاية للعالم، إلى

جانب رفضهم العنيد إحراق البخور للإمبراطور. كل هذا أثار سلسلة من ممارسات الاضطهاد وقعت خلال القرون القليلة القادمة. بدأت، المرة الأولى، في عام 64م عندما كان نيرون امبراطورًا. نشب حريق رهيب في روما وانتشرت معه شائعة كان الإمبراطور من بدأها لتمهيد الطريق أمام توسيع قصره. وقيل إنه وقف على شرفته، وهو يعزف آلة الكمان بينما كانت تحترق المدينة من تحته.

ألقى نيرون اللوم على المسيحيين بسبب قلقه إزاء الخطر الذي يهدده الآن، فالجميع يعرف أنهم يكرهون الإمبراطور، ويريدون العالم أن ينتهي. كانوا، هم، المذنبين. فاندلعت حالة

بشعة من الاضطهاد. ويذكر أن نيرون غطى بعض المسيحيين بالزيت، وأضرم النار فيهم، وأبقاهم متقدين مثل الشموع في حدائق القصر. لا يمكننا أن نكون متأكدين، لكن من المرجح أن رأس بولس قطع في خلال هذا الاضطهاد الرسمي الأول للكنيسة. ومن التقاليد أن يكون الرسول بطرس في روما في ذلك الوقت وأن يتم إعدامه أيضًا. تخبرنا الأسطورة أن بطرس طلب أن يُصلب منكوسًا لأنه كان قد هجر سيده يسوع عندما اعتقلوه.

لم تفلح ممارسات الاضطهاد أبدًا في إبطاء توسع المسيحية، بل جرى العكس. ادعى المسيحيون المضطهدون أن دماء الشهداء كانت نواة الكنيسة، وعلى مدى القرنين والنصف التاليين نمت الكنيسة في جميع أنحاء الإمبراطورية. من الجدير بالذكر أن لكلمة الكنيسة معنييْن، فهي ترجمة لكلمة يونانية تعني تجمعًا أو جماعة

من الناس. لذا فإن الكنيسة المسيحية تعني الأشخاص الذين يتبعون المسيح. وأصبحت المبانيَ التي يلتقون فيها معروفة باسم الكنائس. وأفضل طريقة للتمييز بين المعنيين هي كتابة حرف (ك) كبير للشعب، أو المجمع الكنسي، وحرف (ك) صغير للمبنى الذي يلتقون فيه - الكنيسة.

عندما لم يكن المسيحيون الأوائل يتفادون مضطهديهم، كانوا يمضون الكثير من الوقت وهم يتجادلون مع بعضهم بشأن معتقداتهم. لقد سبق ورأينا أن الجدل الأول للكنيسة هو ما إذا كان على الأمم التي اعتنقت المسيحية أن تلتزم بالقانون اليهودي. لقد فاز بولس بهذه الحجة ووضع الأساس لصالح

توسع الكنيسة خارج اليهودية. كان هذا نذيرًا بخلافات قادمة أكثر تعقيدًا، إذ دار النقاش الحاد بشأن من كان يسوع. عرفوا أنه كان بشرًا، وكانوا يعلمون أنه جاء من الناصرة، وأنه مات في أورشليم، ويعرفون أن الله قد دعاه بابني الحبيب. لكن كيف يمكن أن يكون من البشر، وابنَ الله في الوقت نفسه؟ حسم بولس المسألة بقوله إن الله تبناه ابنًا له. فهل هذا يعني وجود وقت لم يكن لله فيه ابن؟ لم تعجبهم الطريقة التي برر الأمر فيها، وحبذوا النظر للأمر على نحو آخر. فهو كان دائما ابن الله، لكن في وقت ما نحو عام 4 قبل الميلاد، جاء إلى العالم متخفيًا لإنقاذ أطفاله. عاش حياة بشرية ثلاثة وثلاثين عامًا قبل إعادته إلى الألوهية. لذا كان إلها بالكامل، وبشرًا بالكامل. ولكن كيف قام بكل هذا العمل على وجه التحديد؟ لقد تجادلوا قرونًا،

وتمخّض عن ذلك الجدال معسكرات متنافسة، وانقسامات.

وباتَ مؤكّدًا أنّ ما فعلوه كان أكثر من الجدال فيما بينهم حول ألوهية يسوع. لقد اعتنوا بالفقراء، ونظموا أنفسهم بكفاءة، ونسخوا النظام الإداري للإمبراطورية الرومانية. قاموا بتقسيم أنفسهم على وحدات جغرافية تدعى الأبريشيات التي تم تعيين المشرفين أو الأساقفة عليها. بعد الأساقفة يأتي الكهنة الذين كانوا يعتنون بالأبرشيات المحلية. وكان لديهم فئة ثالثة من العاملين في مجال الرعاية الاجتماعية يطلق عليهم الشمامسة الذين يعتنون بالفقراء والمحتاجين. كان هيكلاً فعالاً يعمل بسلاسة. وسرعان ما صار الأساقفة في المدن الكبرى مثل روما شخصيات مهمة

حتى في نظر سلطات الإمبراطور. استمرت عمليات الاضطهاد تمارس عليهم من حين إلى آخر، لكنها لم تزد الكنيسة إلّا قوة، وتحولت حالة الاضطهاد الأخيرة إلى آخر قبضة محكمة من الليل قبل أن يبزغ فجر جديد مفاجئ.

في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة المسيحية تبني نفسها في منظمة موحّدة لا تقهر، كانت الإمبراطورية الرومانية تسير في الاتجاه المعاكس. كانت تمزق نفسها، فجيوشها قضت معظم الوقت تتقاتل فيما بينها أكثر من حراسة الإمبراطورية ضد الغزاة الذين كانوا يهجمون بعنف على بواباتها. لكن من وقت لآخر كان يظهر قادة أقوياء حاولوا وقف تراجع الإمبراطوريات. ومن أقوى من ظهر منهم قائد يدعى دقلديانوس الذي أصبح إمبراطورًا في عام 284م. وفي محاولاته لتوحيد الإمبراطورية

شن آخر حملة من عمليات الاضطهاد، وأكثرها ضراوة ضد الكنيسة، لأنه لم يرها حليفًا بل منافسًا لقضيته. بدأ الرعب في عام 303م، وكان مروعًا نظرا للفترة التي دام فيها، إلاّ أنه لم يحقق أكثر ما حققته الممارسات التي سبقته من قبل. وفي خلال عشر سنوات تحقق توحيد الإمبراطورية، لكن، بواسطة الكنيسة.

ما أن تخلى دقلديانوس عن منصب الإمبراطور عندما وقع مريضا في عام 305م، حتى تنازع المطالبون بقيادة الإمبراطورية فيما بينهم. كان أكثرهم مكرًا وقدرة على مواجهة الخصوم يدعى قسطنطين. في عام 312م، عشية المعركة خارج روما التي كان من شأنها أن تقرر من سيكون الإمبراطور، كان قسطنطين

نائمًا في خيمته حين راودَهُ حلمٌ واضح، رأى فيه رمز الصليب المسيحي يتوهج أمامه، وسمع صوتًا يأمره. (مع هذه الإشارة سوف تغزو!).

في صباح اليوم التالي، صنعت لافتات مزينة بعلامة الصليب، سار خلفها في معركة هزم خصمه فيها. وفي السنة التالية ألغى المرسوم الذي اضطهد المسيحيين، وسمح بالحرية الدينية المطلقة في جميع أنحاء الإمبراطورية. في عام 315م ألغى الصلب الذي كان يحتقره المسيحيون بشده. وبحلول عام 324م وبينما كانت الأديان الأخرى ما تزال تلقى تسامحًا في ممارساتها، اتخذ المسيحية دينًا رسميًا للإمبراطورية. إذن من دين المنبوذين المضطهدين إلى دين الإمبراطور المفضل في عشرين سنة. كان انقلابًا مدهشا.

ولكن من السذاجة أن نعد مبادرة الإمبراطور قسطنطين

تحولاً روحيًا إلى الإيمان بيسوع. كان سياسيًا انتهازيًا قرر أن المسيحية يمكن أن تكون الغراء الذي يوحّد أشلاء إمبراطوريته: كنيسة عالمية تكون جزءًا لا يتجزأ من إمبراطورية عالمية. لكنه كان منزعجًا من كون الكنيسة نفسها منقسمة على فصائل متنافسة تتجادل بشأن إيجاد أفضل طريقة لتحديد طبيعة يسوع المسيح إلاهًا، وإنسانًا. ونتيجة الخلاف متوقفة عند تفصيل في غاية الدقة، يتعلّق في الواقع بحرف واحد: وهو حرف اليوتا الذي يقابل الحرف الأول i من اسم يسوع باليونانية وهو. (Iesous) قرر قسطنطين حل الخلاف، فاستدعى في عام 325م الأساقفة وعلماء دينهم إلى مجلس كبير في بلدة تسمى نيقية التى تعرف الآن

بتركيا. أغلق عليهم الباب في حجرة، ورفض إطلاق سراحهم حتى يُنهوا هذا النزاع: أيكون حرف اليوتا متضمنًا في الكلمة، أم يبقى خارجها؟ في النهاية قرروا ضد هذا الحرف، وأخرجوه من الكلمة مركز الخلاف. حُلَّت القضية في آخر المطاف وجرى تعريف الطبيعة المزدوجة ليسوع المسيح بوصفه إلهًا كاملاً، وبشرًا كاملاً.

كان قسطنطين في غاية السعادة بالنتيجة لدرجة أنه دعا الأساقفة للانضمام إليه في مأدبة إمبراطورية. أمر حراسه الشخصيين أن يصطفوا، وسيوفهم مسحوبة خارج مدخل قصره والأساقفة يتوجهون بمهابة إلى الحجرات الإمبراطورية حيث سيتناولون عشاءهم بطريقة فاخرة على أرائك رُتبت على نحو مناسب حول قاعة المآدب. كان أحد الأساقفة مسرورًا جدًا بهذه المناسبة حتى

وصفها بأنّها نموذج لمملكة يسوع تتجسد أخيرا على الأرض.
لكنه حقا لم يكن النموذج الذي يعترف به يسوع، فالسلطة التي
صلبته قد قررت الآن تجنيده لمصالحها الخاصة.

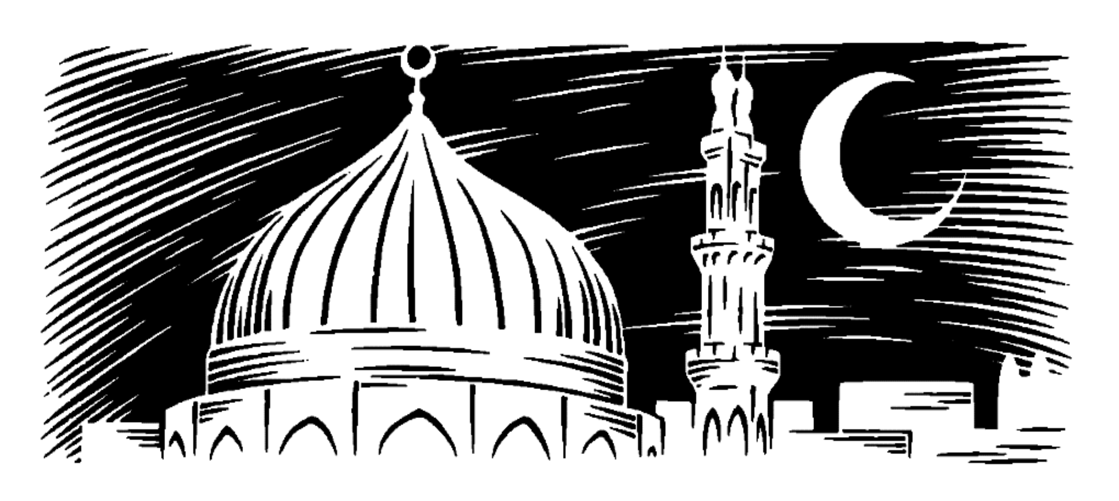
عدّ المؤرخون هذا الحدث بمثابة الانتصار النهائي للكنيسة
على مضطهديها، وبداية لهيمنتها الطويلة على التاريخ الأوروبي.
أطلقت على نفسها الآن الكنيسة الكاثوليكية لأنها كانت تتوسع
في أنحاء العالم الروماني برمته. وكلما ضعفت الإمبراطورية زادت
قوة الكنيسة، حتى وصلت إلى مرحلة كانت فيها أقوى مؤسسة
على الأرض يخضع الملوك أمام سلطتها. أصبحت شراكتها مع عالم
السلطة السياسية تُعرف باسم العالم المسيحي أو مملكة المسيح.

بلغت قوة العالم المسيحي ذروتها، حتى كاد من المستحيل من خلال سُحُب المجد التي غشيت هذا العالم، رؤية الطريقة التي كان ينزف بها الفلاحون من منطقة الجليل الذين بدأوا كل شيء. يكاد يكون هذا ما حدث غير أن ما من شيء يستحيل حدوثه حقًا. لأنه على الرغم من وضع تاج حقيقي، الآن، على رأس تمثال المسيح، وعباءة حقيقية يلتّف بها من اللون الأرجواني الإمبراطوري، عندما كان المسيحيون يأتون إلى الكنيسة من أجل العبادة كانوا يستمعون إلى أوصاف مسيح آخر من العهد الجديد. لم يعد أبدًا كما وعد. لكن كان هناك دائمًا في الكنيسة من يظن أن السبب أنه لم يرحل أبدًا.

كانت القصة المسيحية بعيدة كل البعد عن نهايتها. فسنواتها الأعظم لم تأت بعد، لكننا سنتركها لبعض الفصول للنظر في ظهور دين آخر يعود إلى النبي إبراهيم بوصفه أبًا له: وهو

دين الإسلام.

الفصل الثاني والعشرون



آخر الأنبياء

ادّعت ثلاث ديانات أنها تنتسب إلى الجد الأكبر، إبراهيم. ثمة طريقتان لفهم هذا الادعاء. يمكن أن يؤخذ على أنه شكل من أشكال الإرث الروحي، فقد نقل إبراهيم إيمانه بوحدانية الله إلى اليهود، ومن خلالهم إلى المسيحيين، ثم جاء الإسلام في القرن السابع الميلادي ليصلح ما كان يُعدّ نقاط ضعف بالنسبة لهاتين الديانتين. لكن يمكن أيضًا فهم الانحدار من أصل النبي

إبراهيم بالمعنى المادي، إذ كان ابن إسحاق إبراهيم أبا لإسرائيل، ومن خلاله يتعقب اليهود والمسيحيون أبوتهم. لكن إبراهيم كان له ابن آخر. وللحكاية بقية.

كان لإبراهيم زوجتان، سارة، ووصيفتها المصرية هاجر. كانت سارة تغار من هاجر، وتخاف من أن يجعل إبراهيم من ابن

هاجر إسماعيل وريثا له. لذا أقنعت زوجها بإبعادهما. أخذت هاجر ابنها الصغير وتجولت معه في الصحراء القريبة من البحر الأحمر، حيث جلست على صخرة وبكت لأنها كانت في غاية الحزن والتعاسة. لكن إسماعيل لم يَنتبْهُ الحزن والتعاسة فحسب، بل الغضب، والغضب العارم. وفي سورة غضبه، وفقا للتقاليد الإسلامية، بدأ يركل الرمل بشدة لدرجة أنه كشف عن نبع ماء من النوع الذي يوجد في المناطق الخضراء في الصحراء ويسمى الواحة. عندما سمع إبراهيم عن الواحة التي وجدها إسماعيل، زار زوجته وابنه الذي أهمله، وبنى معبدًا بالقرب من النبع الذي أنقذ حياتهما، نصب فيه حجرًا أسود مقدسًا. وللحكاية بقية.

يخبرنا سِفرُ التكوين، الكتاب الذي يفتتح التوراة، أن الرجل الأول كان يدعى آدم، وزوجته كانت تسمى حواء. عاش آدم

وحواء في حديقة رائعة تسمى عدن لم يفتقرا فيها إلى شيء. من بين أشجار الفاكهة كلها في الحديقة، شجرة واحدة فقط حُرّمت عليهما، وهذه كانت شجرة معرفة الخير والشر. عاش آدم وحواء حياة طفولة مستمرة، يلبي الله احتياجاتهما كلها. يعتقد الآباء في بعض الأحيان أن أطفالهم سيبقون صغارًا إلى الأبد. لكن الأطفال لا يستطيعون الانتظار حتى يكبروا ويكتشفوا معرفة الخير والشر بأنفسهم. هذا هو الحافز الذي دفع آدم وحواء إلى أكل الفاكهة المحرمة، فغمرت المعرفة عقليهما على الفور، ولم تعد الحياةُ بسيطة.

والآن إذ فقد آدم وحواء براءتهما، أرسلهما الله إلى العالم ليعيشا الحياة بكل تعقيدات البالغين. لكن في سرد الإسلام للقصة، سمح الله لهما بأخذ شيء ما من الحديقة تذكارًا. كان بمثابة تذكير لهما بكل ما تركاه إلى الأبد، وما سيكون معهما إلى الأبد. لقد فقدا عدن لكنهما لم يفقدا الله، فالله ما زال معهما عندما تغلق أبواب عدن من ورائهما. ما أخذاه معهما كان حجرًا أسود قيل إنه نزل من الجنة. كان إبراهيم قد ورث الحجر الذي قام بنصبه، الآن، في الكعبة، أو المعبد عند الواحة التي اكتشفها إسماعيل. نمت المدينة حول الكعبة مع حجرها الأسود الأسطوري، وصار اسمها مكة.

كانت مكة تقع (في ما يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية) في منتصف الساحل الشرقي للبحر الأحمر في الجزيرة العربية،

واحدة من أكثر الأجزاء الغامضة، الرائعة في الأرض. جزيرة العرب عبارة عن شبه جزيرة ضخمة، تصل مساحتها إلى 1,200 ميل طولاً و1,300 ميل عرضًا، يحدها من الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الجانب الشرقي الخليج. وفي الصحاري الشاسعة في المناطق الداخلية تعيش عشائر من الأعراب، أو البدو الذين كانوا محاربين حازمين ومستقلين استقلالاً كاملاً. وقد أصاب سفر التكوين عندما وصف إسماعيل «أنه إنسان قوي، ويده على كل واحد، ويد كل واحد عليه». على الرغم من أن قبائل البدو المتنافسة حاربت وتشاحنت مع بعضها حول ملكية الآبار والواحات، إلّا أنهم جميعا يبجلون مدينة

مكة المقدسة، ويحجون إليها، ويقبّلون الحجر الأسود الذي سلمه آدم، ويشربون من البئر التي اكتشفها إسماعيل. كان جدهم إبراهيم موحدًا عاطفيًا لكن لا يمكن أن يقال الشيء نفسه عنهم. على الرغم من أنهم عبدوا الله إلاههم الأعلى، إلّا أنهم أحبوا أيضًا أصنامهم، وكان لديهم واحد لكل يوم من أيام السنة. كذلك فعل التجار الذين كانوا يكسبون رزقًا وفيرًا من الحجاج القادمين للطواف حول الحجر الأسود، وشرب مياه البئر المقدسة، وشراء الأصنام من المتاجر التي تضاعف عددها حول الكعبة.

عرف النبي إبراهيم - كما تخبرنا الرواية العبرية القديمة - كم من السهل الانتفاع تجاريًا من الدين. فقد شاهد والده يصنع الأصنام ليبيعها في متجر العائلة، الأصنام التي أدانها لكونها

عملية احتيال لسلب أموال الفقراء. كان يكره ما كان يحدث في مكة حيث كان تجارها يستغلون احتياجات الحجاج الذين جاءوا يبحثون عن الراحة الروحية. دائما ما يحدث هذا في المدن المقدسة، بغض النظر في أي قرن أو من أي طائفة. يمكن دائما الحصول على الربح السريع عن طريق بيع العزاء الروحي للمحتاجين. كان يسوع قد كره ما رآه في أورشليم حيث العائلات الكهنوتية جنت ثروات من الفقراء. لهذا قلب الطاولة على تجار العملة في المعبد وقال لهم أنهم قاموا بتحويل بيت الله إلى عرين لصوص. ولد رجلٌ في مكة في عام 570م وكان يغضب كغضب يسوع

من فساد التوحيد لإبراهيم الذي استغله الباعة المتجولون في مدينته الأم. كان اسمه محمد.

لم تكن حياة محمد حياة سهلة. فوالده توفي قبل أن يولد، وعندما بلغ السادسة لحقت أمه به أيضًا. اعتنى الجد بهذا الشاب اليتيم حتى تبناه عمه أبو طالب، وهو رجل أعمال ناجح، جعل الشاب محمدًا يعمل حاديًا للجمال. كانت صفوف قوافل الجمال المحملة بالبضائع سمة من سمات اقتصاد الجزيرة العربية، تواصل طريقها شمالاً إلى سوريا، وغربًا إلى مصر، وفلسطين، وشرقًا إلى بلاد فارس، محملة بالعطور والتوابل التي يستبدلونها بالحرير، والكتان قبل القيام بالرحلة الطويلة إلى الوطن. وقد وصف النبي أشعيا هذا العدد الهائل من الجمال القادم من مملكة سبأ في جنوب الجزيرة العربية التي تجلب الذهب والبخور إلى القدس.

كان هذا هو نوع العمل الذي تم تدريب محمد عليه.

كان محمد سريع التعلم، وسمعته المتسمة بالكفاءة والأمانة حثَت أرملة ثرية تدعى خديجة لجعله مسؤولاً عن إحدى قوافلها المتجهة إلى سوريا. تزوج محمد وخديجة عام 595م عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره وكانت هي في الأربعين. أنجبا ستة أطفال: أربع بنات، وولدان ماتا في سن الرضاعة. فاطمة من بين الإناث ستكون الابنة الأكثر شهرة، إذ ستتزوج عليًا وتصبح أمًا للحسن والحسين، سِبْطَي محمد. كان محمد تاجرًا ناجحًا، لكن سمعته في الصدق والتعامل النزيه جعلته يتحول إلى نوع من قادة المجتمع الذين يلجأ إليهم الناس طلبًا للمساعدة

في حل النزاعات التجارية والمشاجرات العائلية. لكن هذا ليس كل ما امتلكه محمد.

كان ينتمي إلى تلك الفئة المتميزة التي تتفحص هذا العالم بعمق أو فيما وراءه لتعثر على معناه وغايته. فئة يقلقها القبح والظلم اللذان يميزان المجتمع البشري، وعلى الرغم من أنها تحترم الطريقة التي عبّر بها الدين عن المكافحين الذين هم على اتصال بالواقع الروحي الذي يتجاوز ذواتهم، فإنها تعرف كذلك مدى سهولة أن يتلاعب الأسياد بالدين من أجل غاياتهم الخاصة، وضد صالح الناس الذين يفترض مساعدتهم.

جعلته حالات الابتزاز التي شهدها تحدث في الكعبة في مكة مشمئزًا، فنأى محمد بنفسه عندما كان في الأربعين من عمره وبدأ بالذهاب للصلاة، والتأمل في كهف خارج مكة.

هناك راودته أول رؤية، وسمع أول صوت، واستمرت الرؤى والأصوات تأتيه لبقية حياته. كان يدرك أنها لم تأت من الله، وإنما جاءت من خلال وساطة الملاك جبرائيل الذي كانت أولى كلماته إليه: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق». لم يعرف محمد كيف يفسرها. لعلّ ما سمعه كان صوتًا لروح شريرة تحاول إغراءه؟ لربما أصابه الجنون؟ أليس هذا ما يقال دائمًا عن أولئك الذين تأتيهم الرؤى، ويسمعون الأصوات؟ كان محمد مليئًا بالارتباك وعدم اليقين. لكن الصوت استمر على التحدث إليه بلغة في منتهى الجمال والروعة حتى أصبح مقتنعا بأنه كان يدعوه ليكون نبيا.

يكمن الهدف من وجود الأنبياء في أن لا يحتفظوا بما يسمعونه لأنفسهم. يتم إرسالهم لتحذير العالم، وإقناعه للاستماع لما قاله الله لهم. لذا بعد بضع سنوات من الاستماع إلى ما أوحي إليه الملك جبرائيل، حفظ محمد ما أنزل إليه وصار يقرأه عن ظهر قلب. وبدعم دافئ من زوجته خديجة وتشجيعها، بدأ محمد في عام 613م بالتبشير لرجال مكة ونسائها. لم يكن هناك شيء جديد في رسالته، ولم يدع هو وجوده، بل كان تذكيرا بما نسوه. كانت هي رسالة النبي إبراهيم: إن الأصنام ماهي إلّا خدعة، ولم يكن هناك إله إلّا الله.

كانت رسالة محمد جاذبة بشكل خاص للفقراء لأنهم هم من سرقهم التجار الذين يديرون المكان المقدس ويبيعون الأصنام. سرعان ما تبعه الناس في مكة أولئك الذين (استسلموا لله)،

وهذا هو معنى كلمة مسلم. كانت الأمور على ما يرام طالما تمسك برسالته التي مفادها أنه لا يوجد إله إلّا الله وأن محمدًا كان نبيه. فالأديان متوفرة، وهناك دائما مجال لدين آخر في هذا السوق الروحي. تتغير اللعبة عندما تبدأ العقيدة الجديدة بتهديد أرباح كيان مؤسس وامتيازاته. هذا ما حدث لمحمد هنا، فقد أدان التجار الذين صنعوا ثروات من سوق الأصنام بجانب الكعبة والذين ابتزوا الحجاج لأنهم شربوا من البئر المقدسة. وحدث الذي لا مهرب منه، إذ انتهى الأمر بتعرض المسلمين في مكة إلى الاضطهاد.

لحسن الحظ كان وفدٌ من الزائرين من مدينة يثرب قد استمعوا إلى محمد وهو يلقي موعظته فدعوه للانتقال إلى هناك مع أتباعه. عرف الرجال من يثرب أن مدينتهم بحاجة لزعيم وكان محمدٌ هو الرجل المنشود. هكذا فكروا. جرى الانتقال إلى يثرب التي تبعد أكثر من مئتي ميل من مكة بسرية تامة. فغادر محمد وصاحبه أبو بكر مكة ليلاً في شهر أيلول من عام 622م وبات يعرف باسم الهجرة أو الرحلة. إنها اللحظة التي تبدأ السنة الأولى من التقويم الإسلامي. وقد أعطي لمدينة يثرب التي هربوا إليها اسمٌ جديد في ما بعد، هو اسم المدينة أو مدينة الرسول.

لم تؤد هذه الخطوة إلى تسوية المسألة، ففي خلال السنوات العشر التالية دارت معارك بين مكة والمدينة. وأخيرًا، في عام 630م، زحف محمد مع جيش كبير إلى مدينته الأم، فاستسلم أهل مكة،

مدركين أن اللعبة انتهت، ودخل النبي المدينة. لم تُمارَس أعمالٌ انتقامية ضد السكان، لكن محمد أزال الأصنام من الكعبة، وشجع المواطنين فيها على أن يصبحوا مسلمين، ثم عاد إلى المدينة.

لكن وفاته كانت قريبة. ففي عام 632م قام بالحج إلى مكة وألقى خطبة الوداع. هذه الزيارة الوداعية لمحمد إلى الكعبة في مكة المكرمة بحجرها الأسود وبئرها المقدسة احتفت بالحج وأكدته بوصفه إحدى الفرائض الخمس – أركان الإسلام الخمسة – التي من المفترض أن يؤديها المسلمون. لم يبق النبي على قيد الحياة ليشهد الحج، فقد أصابته الحمى وتوفي في 8 حزيران

من عام 632م. لكنه ترك بعده عقيدة أصبحت الآن ثاني أكبر دين في العالم، وما يزال يضع بصمته على صفحات التاريخ.

في الفصول التالية سنكتشف شيئًا عن ثراء اللاهوتية، والممارسة.

الفصل الثالث والعشرون



التسليم لله

قبل إلقاء النظر على معتقدات الإسلام وممارساته - ثمة كلمة عربية هي أصل كلمة مسلم وأفضل ترجمة لها هي (التسليم لإرادة الله) - لابد من أن ندرك الفرق بينها وبين الكلمتيْن الأخرتين ذواتي الصلة، ألَا وهما اليهودية والمسيحية. فأول مبدأ لدين التوحيد هو حقيقة وجود الله. يمكننا أن نذهب أبعد بقولنا إن في عقيدة التوحيد، الحقيقة الوحيدة هي الله.

لنفكر في الكون: ملايين المجرات وربما ملايين الأكوان التي لا نستطيع رؤيتها، مر وقت لم تكن موجودة فيه. ما الذي كان هناك؟ وفقا لعقيدة التوحيد، كان هناك الله، فكل ما هو في الوجود مصدره الله، بالطريقة نفسها التي يخلق فيها عقل المؤلف شخصيات روايته.

كنت استخدمت فكرة تشبيه البشر بشخصيات الرواية عند مناقشة الهندوسية، وأريد أن استخدمها مرة أخرى هنا في تأمل عقيدة التوحيد، لكن من زاوية مختلفة. ففي فصل الهندوسية تناولت الموضوع من زاوية أن شخصيات الرواية اكتشفت أن ليس لديها وجود حقيقي. كانوا وهمًا. أما في الديانات الإبراهيمية فالشخصيات موجودة فعلاً، لكنهم يريدون معرفة المزيد عن الذي خلقهم، مؤلف وجودهم.

تذكّرْ، ليس عليك أن تصدق، أو تقبل أيًا من هذا، لكن إن أردت أن تفهم الدين فعليك أن تضع عقلك في أسلوب تفكيره، حتى لو كان للفترة التي تتطلبها قراءة هذا الفصل فقط. فالتوحيد الديني يشبه شخصيات الكتاب التي تحاول الاتصال بمؤلفها، ومجرد التفكير في الأمر يجعلك تشعر بالدوار، أليس كذلك؟

تقول بعض الشخصيات في كتاب الكون إنه من الواضح أن ثمة من خلقنا ومن الطبيعي بالنسبة لنا أن نرغب في التواصل مع من فعل ذلك. بينما يقول الآخرون: لا تكن سخيفا. فلا وجود لمؤلف الكتاب. ثمة فقط الكتاب نفسه، أو الكون أو أي اسم تود إعطاءه. حدث ما حدث. ولقد كتب نفسه بنفسه. لذا توقف عن محاولة التواصل مع مؤلفك المتخيل.

ولكن بالنسبة لأولئك الذين يصرون على التواصل، فإن العملية تشبه أي نشاط إبداعي آخر. فالأنبياء أو الحكماء ينتظرون ويستمعون، ويتمعنون في البعيد، منفتحي العقل على القادم كي يتكشف مصدر وجودهم لهم، وحقيقته تشكّل في عقولهم

الطريقة التي تتجسد فيها الشخصية ذاتها في ذهن المؤلف. إلّا أنه في هذه الحالة يحدث الأمر بالطريقة المعاكسة. فهذه شخصية تتحقق في مؤلفها. تظهر صورة الله ببطء مثل صورة فوتوغرافية تم تظهيرها في غرفة مظلمة. يطلق اللاهوتيون على هذا النشاط الوحي المتجلي، وعادة ما يزعمون أن صورة الله التي استدعاها إيمانهم هي أكثر سموًا في تطورها من أي نسخة سابقة. اليهودية أكثر تجانسًا من الشرك بالله. ومعالم المسيحية أكثر وضوحًا من اليهودية. لكن الإسلام يدعي امتلاكه لصورة مثالية تحل محل كل ما سبقه. لذا دعونا نواصل استكشافنا للإسلام مع ما يجعله مختلفًا عن اليهودية والمسيحية: (ألَا وهو القرآن).

لا تفكر في القرآن على أنه الكتاب المقدس للإسلام، فهناك اختلافات كبيرة. أولها أن الكتاب المقدس قد جمعه ببطء على

مر القرون العديد من الكتاب والمحررين المختلفين. وثانيها أن الكتاب المقدس يعدّ مكتبة لا كتابًا واحدًا. وثالثهما أنه على الرغم من تضمنه ما جاء به الوحي من الله، يُعرف الكتاب المقدس بأنه إبداع بشري كتبته أيادي الإنسان. لا يقبل الإسلام أيًا من هذه الأوصاف لوصف القرآن. فقد أنزل سيلاً مستمرًا من الوحي إلى رجل واحد في خلال فترة حياته. ولأنه أنزل بواسطة رجل فهو لم يكن من خلق الإنسان، مثل السلك الذي يوصل الكهرباء إلى مبنى ما، كان محمد قناة وصل للقرآن لكن قوتها أتت من الله. فالقرآن هو عقل الله في صورته الأرضية، وهو وجود الله على الأرض. وحقيقة يعدّ القرآن بالنسبة للمسلمين مثلما هو يسوع

المسيح للمسيحيين، فقد آمن المسيحيون بأن يسوع هو تجسّدُ الله على الأرض، جعله الله متاحًا للعالم في شكل إنساني. حسنًا هذا هو القرآن بالنسبة للمسلمين. إن الله معهم. فكلمة القرآن تعني التلاوة. تلاه الملاك جبرائيل في أذن الرسول، وتلاه النبي على أتباعه قبل أن يتحقق شكله المكتوب بعد وفاته. وما يزال المسلمون المتدينون اليوم يحفظونه حتى يتمكنوا من تلاوة 114 سورة من بدايتها حتى نهايتها.

اعتقد محمد أن ما بدأ مع اليهود، وتطور أكثر مع المسيحيين قد تحقق في فترة رسالته. وصفه القرآن بـ (خاتم الأنبياء). لن يكون هناك مزيد من الأنبياء. انتهى التسلسل النبوي، وتم ختمه. كان الإسلام محصلته المثالية. شعر محمد بخيبة أمل لأن اليهود والمسيحيين لم يروا الأشياء بهذه الطريقة، على الرغم

من أنه لم يكن ثمة أي شيء غير عادي في ردود أفعالهم. دائمًا ما يمتنع حراس الديانات القديمة عن الاعتراف بأن زمنهم قد انتهى، ولا بد من أن يفسحوا الطريق أمام الدين الجديد. كان محمد يأمل في إقناع اليهود والمسيحيين في المدينة أنه لم يكن خصمهم، بل الكمال والنهاية التي كانوا ينتظرونها. كما جاء في القرآن، «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ». لهذا السببَ أوعز محمد لأتباعه للمرة الأولى بالتوجه في صلاتهم إلى مكة، بدلاً من القدس. حدث ذلك بعد أن رفضه اليهود، والمسيحيون نبيًا لهم فأمر أتباعه بذلك.

لكن محمدًا أعتقد أنه على الرغم من أن رفضه كان مأساويًا فهو يتوافق مع الوضع. فاليهود كانوا يرفضون دائما الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم، ورفضهم الأخير كان للنبي يسوع. وحتى المسيحيون رفضوا يسوع بتحويله إلى إله. كان محمد مؤمنًا عاطفيًا بوحدة الله، وما أثار غضبه أن المسيحيين لم يعطوا الله ابنا حسب، بل قاموا باختلاق إلهين آخرين ليجلسا إلى جانب الله في السماء. إنهم وضعوا نظرية عن الله بوصفه الثالوث المقدس، أو القول بوجود ثلاثة أقانيم في الذات الإلهية: وهي الأب في الخلق في بداية العالم، والابن المتجسد في يسوع المسيح في خلال حياته على الأرض، والروح القدس التي توجه البشرية عبر التاريخ حتى نهاية الزمن. ثار النبي محمد ضد هذه المقاطع المسهبة والمتقنة من الهندسة اللاهوتية وصرخ قائلًا: «لا إله إلّا

الله، محمد رسول الله)).

ثمة خمس فرائض رئيسة على أتباع الإسلام أن يلتزموا بها بوصفها جزءاً من إيمانهم بالدين، يطلق عليها أحيانًا أركان الإسلام الخمسة. الفريضة الأولى هي التلاوة الصادقة (للشهادة)، أو الاعتراف بالإيمان في اللغة العربية الذي أنهينا به الفقرة السابقة (لا إله إلّا الله محمد رسول الله). تلاوة هذا التعبير عن التوحيد هي الصيغة التي يستخدمها المسلمون لتأكيد إيمانهم، ومعتنقو الإسلام الجدد للاعتراف به.

الركن الثاني هو فرض الصلاة إلى الله الواحد لخمس مرات في اليوم باتجاه مكة. يؤدي المصلي الصلاة في الفجر، وفي الظهر،

وفي العصر، والمغرب وبين غروب الشمس ومنتصف الليل.

فواحد من أكثر الأصوات الآسرة على وجه الأرض هو صوت

(المؤذن)، أو المنادي الذي يدعو المؤمنين إلى الصلاة من الشرفة

العالية لمئذنة المسجد. يواجه المؤذن كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة

للبوصلة بالتعاقب ويرفع الآذان للصلاة: «الله أكبر، الله أكبر،

الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أن لا إله إلّا

الله، أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله». في الوقت الحاضر،

من المرجح أن تكون دعوة الآذان إلى الصلاة عبر تسجيل يصدر

طقطقة متنافرة فوق صخب مدينة حديثة. ولكن في الفجر،

وأنت تسمع صوت المؤذن ينساب فوق قرية أفريقية ساكنة،

ستعيش لوعة الشوق للصلاة.

الركن الثالث هو الزكاة أو إعطاء الصدقات. بما أن جميع الثروات تأتي من كرم الله، فيعد إعطاء الصدقات بالنسبة للمسلمين المتدينين إعادة ما هو لله أصلاً إلى الله. كما أنها تعد وسيلة لمساعدة الفقراء والمحتاجين والمساهمة في مهمة الإسلام. الإسلام دين تبشيري يهدف إلى تحويل العالم إلى رؤيته لمجتمع أو أمة واحدة يتم فيها دمج الإيمان والحياة في كل متكامل. في الأمة سيكون هناك مرحلة ينتهي فيها الدين ويبدأ المجتمع أو ينتهي المجتمع ويبدأ الدين. والأمر سيكون واحدًا.

الركن الرابع هو صيام شهر رمضان بأكمله، وهو الشهر التاسع من التقويم الإسلامي. يكون الالتزام بالصيام من شروق الشمس حتى غروبها مدة ثلاثين يوما، بلا أي طعام أو شراب. لكن الامر لا يقتصر على مجرد التخلي عن الأكل والشرب، فقرب نهاية شهر رمضان يتم تطوير برامج خاصة في المسجد تهدف إلى زيادة معرفة المؤمنين وروحانيتهم. وفي اليوم السابع والعشرين من رمضان، يقام احتفال خاص يُدعى (ليلة القدر) بذكرى الليلة الأولى التي نزل فيها الوحي على محمد من الله في ذلك الكهف خارج مكة. يصل رمضان ذروته في عيد الفطر، العيد الذي ينهي حالة الصيام. وهو وقت للفرح يزور فيه أفراد الأسرة بعضهم بعضًا، ويتبادلون الهدايا.

أما الفرض الخامس فهو الذي ذكرناه مسبقًا، الحج أو الحج

إلى مكة. فالوصول إلى مكة هو أكبر درجة من الصلاة لخمس مرات في اليوم أو صيام شهر رمضان، لذا لا ينتظر من المسلمين أن يقوموا بالحج إلّا مرة واحدة في حياتهم. يزور الحجاج كعبة إبراهيم، وهو الآن مبنى كبير الشكل على شكل مكعب داخل المسجد الكبير في مكة، ويطوفون حول الكعبة سبع مرات عكس اتجاه عقارب الساعة، ومن ثم يذهبون إلى تلتين صغيرتين تسميان الصفا والمروة، يركض الحجاج أو يمشون بسرعة فيما بينهما لتجسيد ضائقة هاجر عندما كانت تبحث عن الماء لابنها في الصحراء الحارة، والمياه التي كشف عنها إسماعيل بركلة غاضبة. ثمة عنصر درامي آخر للحج يتمثّل يرمي الحجاج

الحجارة على ثلاثة أعمدة تمثل كل الشرور في العالم. تعدّ تجربة الحج تجربة في غاية الغنى والتميز بالنسبة للمسلمين لدرجة أنه يسمح لهم أن يضيفوا كنية لأسمائهم بعد تأديته، وهي الحاج للرجال والحاجة للنساء.

إن دقة الفرائض الخمس تجعل الإسلام دينًا واضحًا يسهل اتباعه، لكن ممارسته تتسم بخاصيتين محركتين للمشاعر بشدة. الخاصية الأولى تبجيل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي يقترب، لكنه لن يصل أبدًا، إلى العبادة الفعلية. ففي النهاية أن لا إله إلّا الله محمد رسول الله. لا ينبغي أن يُعبد محمد، فهو ليس إلهًا، لكن يتم تبجيله جدًا لدرجة أنه من العرف عندما يذكر اسمه أن يتبعه بعبارة (صلى الله عليه وسلم). هذا هو السبب في أن المسلمين يشعرون بالصدمة، والغضب عندما يسخر غير

المؤمنين من نبيهم، أو يذمونه.

لكن إخلاص المسلمين إلى الله هو مستوى أعلى بكثير من التقوى لنبيه. فالتوحيد الإسلامي شرس وعاطفي، لكنه كذلك يؤكد باستمرار على وحدانية الله، فالقرآن يصبح غنائيًا عند الاحتفال بجمال الله. وأحد أكثر التقاليد المؤثرة في الإسلام هو جمع الصفات الوصفية لله المتناثرة في صفحات القرآن الكريم في قائمة تسمى أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين. فيما يلي بعض منها:

الله، الذي اسمه يعلو فوق كل اسم...

الرحمن، أرحم الراحمين...

الرحيم، الذي هو رقيق مليء بالتعاطف...

الرقيب، الذي يراقب خلقه...

العفو، مستعدّ دوما للعفو والغفران...

ثمة جمال وراحة في القرآن، لكن هذا ليس كل ما نجده هناك. فحتى في سورة الثالثة عشر، نجد تحذيرات من وجود مخاطر وعزاء على السواء في علاقة العالم بالله. وهذان الاسمان من أكثر أسماء الله جمالاً:

الضارّ، الذي يبلو بالمحن، وكذلك يرسل البركات...

المنتقم، الذي يصب انتقامه على العصاة...

يتغنى القرآن بجمال الله، كما يتوعد بغضبه على العصاة والكافرين. لذا آن الأوان لأن نتعمق في ذلك الجانب من الله وعواقبه بالنسبة للكثيرين.

الفصل الرابع والعشرون



الجهاد

إلى جانب كون محمدٍ نبيًا، كان محاربًا قاد أتباعه في معارك ضد معارضي الإسلام. لم ير أي تناقض في الأدوار. لم تندلع حروبه من أجل لذة المعركة، أو مباهج النهب، على الرغم من أن العديد من أتباعه كانوا يستمتعون بهذا كله بالتأكيد. كانت الحرب أداة لغرضه الروحي، وإذا كنا نود فهمه - أو فهم أي من الزعماء الدينيين الآخرين في التاريخ الذين استخدموا العنف

لتحقيق غاياتهم - فلابد من أن نحاول الدخول إلى عقله.

إن أول شيء يمكن أن نفهمه فيما يخص الحالمين أمثال النبي أن الحياة على الأرض بالنسبة لهم لم تكن غاية في حد ذاتها، ولا أن يستمتعوا بها من أجل متعة الحياة ذاتها. فهي عابرة ومؤثرة مثل صرخة المؤذن. افتتاحية تزدهر، ومقدمة للمشهد الرئيس الذي

ينتظرنا بعد الموت حيث يبدأ العرض الحقيقي. فهدف إقامتنا على وجه الأرض هو تحديد الطريقة التي سنقضي بها الحياة الأبدية التي تنتظرنا على الجانب الآخر.

تخيل أنه قد عُرض عليك ضمان أكيد إذا تحملت محنة مؤلمة بضع دقائق، فستحصل على مبلغ مليار دولار تم إيداعه بالفعل في حسابك المصرفي ويحتاج إلى موافقتك فحسب كي تُفعله. كيف ترد؟ هل ستتحمل ألم الثواني لكسب الثراء الذي ينتظرك عندما ينتهي الأمر؟ الاحتمالات الواردة أنك قد تُقدم على الصفقة.

هذا هو السبب وراء العنف الذي يميز الأديان، الذي يشبه قسوة الجراح الذي يفتح جرحًا في أجسادنا لا ليؤذينا، بل لينقذ حياتنا. يقدم بعض المؤمنين حياتهم شهداء من أجل النعيم الذي ينتظرهم على الجانب الآخر. وبالنسبة للآخرين،

يعد إلحاق الألم، والموت، بأجساد الأصدقاء، والغرباء واجبًا من أجل حماية الإيمان من هجماتهم. شئنا أم أبينا، هذا هو المنطق وراء الحروب المقدسة وعمليات التطهير القاسية التي هي سمة ثابتة في التاريخ الديني.

قليلون كانوا خبراء في الحرب المقدسة مثل المسلمين الذين قاتلوا أولاً لإقامة الإسلام بين جيرانهم المباشرين، ومن ثم انطلقوا إلى أقاصي الأرض. فبعد مائة عام من موت محمد كان الإسلام يهيمن على سوريا في الشمال ومصر في الغرب، ومن مصر انتشر على طول شمال أفريقيا. وفي المحصلة سيطر على فلسطين ومساحات شاسعة من بلاد فارس، حتى وصل إلى

الهند والصين. وقد غزا المسلمون إسبانيا حيث سمحوا، وإن بحدود، بنشاط المسيحيين واليهود. كانت هناك لحظة بدا فيها أن الإسلام قد أكتسح أوروبا الكاثوليكية بأكملها قبل أن يعود على أعقابه. لكنني لست مهتما بسرد تاريخ المعارك التي خاضها، والأراضي التي حصل عليها، قدر اهتمامي بالتبريرات اللاهوتية التي قدمها الإسلام للقيام بذلك. أحدها يتردد صداه عاليًا في العالم اليوم، وهو فكرة الجهاد.

ينظر بعض المسلمين إلى الجهاد على أنه الركن السادس غير الرسمي للإسلام. وفي الواقع، ينظر إلى الجهد المبذول للالتزام بالواجبات الخمسة على أنه جهاد. كلمة جهاد تعني بذل الجهد، سواء أكان ذلك الجهد للحفاظ على الإيمان وبناء مجتمع عادل أم من أجل الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه. في القرون الماضية مورس الجهاد في كلا المعنيين. في جانبه العنيف مارسه المسلمون

ضد المسلمين. فالخلاف العنيف بين أتباع الدين نفسه شائع في التاريخ. فقد استغرق الأمر موت محمد لينتشر داخل المجتمع الإسلامي الصغير نفسه. والنموذج الذي تبناه يخبرنا الكثير عن كيفية تنظيم الأديان لنفسها ونوع الأشياء التي تختلف عليها.

كانت القضية موضع النقاش هي من يجب أن يخلف النبي وعلى أي مبدأ يجب أن يتم التعيين. ما حدث هو أن صديق محمد وزميله المخلص أبا بكر جرى انتخابه كأول خليفة، أو خليفة للنبي. بدأت المتاعب ما أن عين الخليفة الرابع علي الذي كان ابن عم النبي محمد وزوج ابنته فاطمة. لم يكن الجميع مؤيدين

لتعيين علي خليفة، وتسبب في انقسام في الإسلام استمر حتى يومنا هذا. كان هناك فصيل أراد معاوية، ابن عم الخليفة الثالث، أن يصبح الخليفة الرابع بدلاً من علي، قريب النبي. في القتال الذي أعقبه قتل علي وتولى معاوية الخلافة. طالب أنصار علي تعيين ابنه الحسين خليفة، لكن في عام 680م، قُتل الحسين أيضًا في المعركة.

أدى الصراع إلى انقسام في الإسلام، مصطلحه الفني هو (الانشقاق)، وهي كلمة مفيدة لأي طالب في التاريخ الديني ليدخلها في مفرداته التقنية. ومثل العديد من المصطلحات المفيدة الأخرى، جاء الانشقاق من اللغة اليونانية ويعني انشق أو استأصل. المنشقون هم مجموعة تنأى بنفسها عن الجسد الرئيس، وتنشئ طائفتها أو فرقتها. وعادة ما يكون هناك خلاف ديني وراء حالات الانفصال هذه. فأحد أكثر الاختلافات شيوعًا

يدور حول كيفية تعيين القادة الروحيين. وقد أدت الخلافات في المسيحية حول من هم الخلفاء الحقيقيون للرسل الاثني عشر إلى انشقاقات في الكنيسة استمرت حتى يومنا هذا، تماما مثل الانشقاقات في الإسلام.

نتج عن الصدع الذي حصل في الإسلام وجود مجموعتين أصبحتا معروفتين بالسُّنة والشيعة. كان السُنة هم المجموعة الأكبر، والشيعة، هم، المنشقين الذين قاموا بفصل أنفسهم، وأنشأوا طائفتهم الخاصة. تعني كلمة السنة الذين يحتفظون بالسُّنة الأصلية – أو يتبعون طريقة النبى. أما الشيعة فتعنى

جماعة علي، الذين يعتقدون أن خليفة النبي يجب أن يكون أما إمامًا، أو من سلالة النبي محمد. إن حقيقة وجود العديد من الانشقاقات الآن داخل كل من هذين التقسيمين الأصليين تذكرنا بمدى هشاشة الأديان فحسب، لا سيّما عندما يتعلق الأمر بالنزاعات حول من هو المسؤول.

يمكن عدُّ الصراعات حول السلطة في المجتمعات الدينية بوصفها أمثلة على الضعف البشري الذي يسعى إلى السيطرة على الآخرين. فقد سلطت تلك الصراعات الضوء على الجانب الدنيوي من الدين. وهي حالة محزنة ولكن لا مفر منها. أما الدين المنزّل من الله فيفترض أن يأخذنا إلى روح الله وإلى حياة السماء، لذلك من المثير للقلق أن نكتشف أن الدوافع القسرية نفسها للانفصال والتقسيم ستكون موجودة هناك أيضًا. والحياة بعد

الموت تشبه الحياة ما قبله. تذكّر أن القرآن يذكر أنه سيبين لنا حقيقة الوضع على الجانب الآخر عندما يصل سباقنا الدنيوي إلى نهايته. وثمة احتمالان مطروحان من شأنهما أن يجعلا بعضنا يغص من الخوف.

يخبرنا القرآن أن الوجهة النهائية لكل شخص على الجانب الآخر قد تمت معرفتها بعلم الله مسبقًا. وهو ما يسمى عقيدة (القضاء والقدر)، وهي فكرة موجودة في تقاليد دينية أخرى، بما في ذلك المسيحية. فأينما وجدت هذه العقيدة تكون مثار جدل بسبب ما يتبادر إلى الذهن لما فيها من قسوة وظلم. لكن دعونا نفهمها أولاً على وفق أحكامها الخاصة. معظم الأديان ترى الحياة

على الأرض تحضيرًا لما سيأتي بعد الموت. وتكمن النظرية في أنه إذا كنا نعيش حياة طيبة ونتبع مبادئ إيماننا – مثل أركان الإسلام الخمسة – سيكافئنا الله ويكون مرحبًا بنا في الجنة. ولكن وفقا لقراءة واحدة من قراءات عقيدة القضاء والقدر، فقد وضع الله العلامات على كل ورقة من أوراقنا قبل أن ندخل الامتحان. إذن لم تكبد الله عناء إرسال الأنبياء لتحذيرنا لنغير مساراتنا ونعمل بجدية أكبر؟ لمَ النضال، ولمَ تقديم تضحيات الجهاد، إذا كان مصيرنا قد تحدد بالفعل؟ لنعدْ إلى صديقنا القديم المؤلف المعصوم عن الخطأ الذي يكتب بنزوة قدر شخصياته، البعض يمنحهم قدر الفرح والنجاح والآخرين البؤس والفشل.

إليكم كيف عبر عنه الصوت الذي تحدث إلى محمد في القرآن:
«إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ،

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ، وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)). لتوضيح الامر تمامًا أن الصفقة برمتها قد جرى تحديدها مسبقا، فهناك كتابات مقدسة أخرى في الإسلام تؤكد ذلك.

بالإضافة إلى القرآن الكريم، يمتلك المسلمون مجموعة من المواد تسمى السُّنة أو المنهج. فإذا كان القرآن هو ما سمعه محمد من الملاك جبرائيل، فإن السنة هي ما استمع إليه أصدقاءُ محمد المقربون منه مباشرة، وتتألف من الأحاديث وتعاليم النبي وحواراته. ونجد وصفًا في منتهى الوضوح عن القضاء والقدر في واحد من هذه الأحاديث وهو: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفس مَنْفُوسَةٍ إلاَّ

قَدْ عَلِمَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ شَقِيَّةً أَمْ سَعِيدَةً)). ماذا؟ كيف يتفق هذا مع بعض من الأسماء الجميلة تلك عن الله التي تصفه بالرحمن الرحيم، العطوف، الغفّار المستعد دوما ليغفر لعباده؟

ومن هنا يأتي الخلاف ليذكّرنا بأن تفسير القرآن أقل وضوحًا مما يبدو عليه من الوهلة الأولى. وهو مؤشر إلى مصدر آخر لتبرّم طلاب الدين. ففي جميع الأديان هناك مجموعة تعرف باسم المفسرين الحرفيين الذين يفسرون النصوص المقدسة مثل القرآن الكريم حرفيًا. في حين أن علماء الدين، الذين يعرفون عادة عن النصوص أكثر مما يعرفه المفسرون الحرفيون، هم أكثر دقة في قراءتهم، فهم في كثير من الأحيان يقرأون النص على أنه استعارة في الوقت الذي فهمه المفسرون الحرفيون على أنه حقيقة. تاريخ الكتب الدينية هو قصة لخلافات طويلة بين هذه المدارس

المتنافسة. فغالبًا لا يكون الأمر مهمًا لأن القضية موضع الجدل تمس حياتنا. وفي بعض الأحيان يكون الأمر ذا أهمية لأنه قد يكون مصدرًا للخوف والقلق الهائلين في حياة الناس العاديين. إذا كانت فكرة القضاء والقدر مقلقة بما فيه الكفاية، فهي لا تعد شيئًا مقارنة بعقيدة وجود الجنة والنار المتعاضدتين.

يمكن تأويل الجنة والنار على أنهما استعارتان، طريقة للحديث عن مكافآت الفضيلة، أو عواقب الرذيلة. ويمكن أيضًا أن يؤخذ على أنه حقيقة حرفية. إذا كانت الجحيم موجودة، فهذا يعني أن الله يودع بعضًا من أبنائه في أبدية من الألم الذي لا يطاق. لقد رأينا بالفعل الجحيم تظهر في دين آخر، لذا سنغلق القرآن هنا.

وفي الفصل التالي، سنفكر في أكثر اختراعات الإنسان بغضًا، ونقوم بزيارة المنطقة التي تغلي فيها مياه بالغة الحرارة، ويتصاعد منها دخان أسود كالحميم. سنلقي نظرة على الجحيم.

الفصل الخامس والعشرون



الجحيم

ما الجحيم؟ هي مكان العذاب الأبدي الذي يُرسَل إليه العاصون من الموتى ممن لم يتوبوا. وفي الفهم الشامل للجحيم الذي ظهر في المسيحية، والإسلام، هي مكان لا مفر منه. إذا انتهى بك المطاف هناك، فلربما تمكث فيها إلى الأبد، على حسب ذنبك. هذا هو بيت القصيد.

لكن أين هي؟ إنها موجودة في العقل البشري، أو في ذلك

الجزء منه الذي يخلق عوالم مختلفة من الدين، ولكي نفهمه يجب علينا أن نستحضر الكيفية التي يعمل فيها الخيال الديني. إنه يعمل على مستويين، فهناك ذلك الجزء من التفكير الذي لا ينفك فيه البشر عن التساؤل عمّا تعنيه الحياة. في وقت مبكر من تاريخ البشر تساءلوا عما يحدث للموتى، عندها خمّنوا وجود الحياة في

الآخرة. تساءلوا، كذلك، عن عدم المساواة الفظيعة بين الناس، وقرروا أنه طالما أن مشاكلهم لن تحل في هذه الحياة، وإن كان ثمة عدالة في الكون فسيتم إنصافهم في الآخرة. بالطبع، لم يكن لديهم أي معلومات حقيقية عن الحياة في الآخرة عندما حسموا كل هذا. كان تخمينًا، أو ربما مجرد تَمَنٍّ، لكنه نتج تلقائيًا من تأملات العقل البشري، لذا أطلق عليه اللاهوتيون الدين الطبيعي.

ثم تولى الموضوع ذلك الجزء من العقل البشري الذي يرى الرؤى ويسمع الأصوات، فزعم أنه تلقى معلومات مباشرة عن الحياة في الآخرة. لهذا السبب وُصِف هذا القسم من علم اللاهوت بالدين السماوي. فالدين الطبيعي تساءل عما هو أبعد من حجاب الموت، لكن الدين السماوي زعم أنه شاهده. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه على الرغم من أن الأسئلة نفسها

تتكرر في كل مكان، تختلف الإجابات من منطقة إلى أخرى. والفرق الأكبر يكمن بين الدين الهندي، والمسيحية، والإسلام.

بالنسبة لحكماء الهند لا تدخل الروح حالة سرمدية بعد الموت، بل تنبعث من جديد في حياة أخرى تعتمد مكانتها على تراكم فضائلها، أو تناقصها في الحياة التي غادرتها للتو. في التقاليد الهندوسية هنالك جنّات، وأكثر من جحيم، لكنها معسكرات عابرة، وليست أقدارًا نهائية. قد يتطلب الأمر ملايين الأرواح للهروب من النظام، ولكن دائما ما كان ثمة أمل في خروج الجميع في النهاية. فالهدف النهائي هو الاستغراق في السعادة القصوى (نيرفانا).

بالنسبة لأولئك الذين عاشوا في أقصى الغرب، لم تكن توقعاتهم تقوم على أمل الاختفاء النهائي من عجلة الوجود، بل على حكايات مختلفة من الحياة المستمرة بعد الموت. فالظهور المبكر لكلمة (الجحيم) يمدنا بدليل عما قد يعنيه ذلك. ففي لغة الأنجلو ساكسون، اللغة القديمة في إنجلترا، تستخدم الجحيم كلمة للتعبير عن العالم السفلي، مثوى الأرواح الراحلة. وفي العهد القديم كانت الجحيم تسمى عالم الموتى، لكنها لم تكن مكانًا مخيفًا، بل كانت باعثةً على الاكتئاب. وكما قد نقول في أيامنا هذه، (كان الأمر كئيبًا كالجحيم). ومثل الأشخاص الذين لم يتعافوا تماما من مرض شديد، كان الموتى في العالم السفلي يعلقون حول المكان كالشموع في انتظار شيء لم يأتِ أبدًا.

ليس ثمة ثوابت أبدًا في تاريخ الدين والتغييرات حدثت

حتى في الآخرة. في أثناء نفي بني إسرائيل إلى بابل، تسربت أفكار الفارسية إلى اليهودية. وأحدها أن أرواح الموتى لا تنتهي كمقيمين دائمين في مستشفى النقاهة الموحش في العالم السفلي، سواء فازوا بالدخول إلى نعيم الجنة، أم حُكِم عليهم بعذاب الجحيم. هذه النسخة من الآخرة لم تجد قبولا كاملا في اليهودية، ولكن كان لها مؤيدون في القرن الأول الميلادي. ويسوع كان واحدًا منهم، على الرغم من أنه لم يقل الكثير عنها، إلّا أنه بدا كأنه يعد وجود الجحيم أمرا مفروغا منه. والكلمة التي استخدمها للجحيم أضفت عليها منعطفًا جديدًا مرعبًا.

قال يسوع إن أولئك الذين احتقروا الأطفال، وألحقوا الأذى بهم سيُلقون في جهنم (في النار التي لن تُطفَأ أبدًا). وفي بعض الكتابات العبرية القديمة كانت جهنم المكان الذي يعاقب فيه العصاة بعد يوم القيامة. وزعم أحد التقاليد اللاحقة أن اسم جهنم كان اسم مكب القمامة في القدس، حيث تحرق القمامة وتبقى مشتعلة لأنهم كانوا يلقمونها باستمرار. من المستحيل معرفة ما قصده يسوع باستخدامه استعارة للتعبير عن عقوبة أبدية، لكن فرنًا لا تخمد ناره أبدًا أصبح جزءًا أساسيًا من معدات الجحيم. وفي الوقت الذي كُتب فيه القرآن الكريم، بعد ستة قرون، سمع أولئك الذين حُكم عليهم بعقوبة أبدية الفرن، وهو يسحب أنفاسه عندما اقتربوا منه. وبينما كانوا يُقذفون في النيران، سألهم الحارس (ألم يأتِكم نذير؟).

وصف القرآن الجحيم بتفاصيل أكثر من الكتاب المقدس المسيحي. وكان يعرف بالضبط ما كان يفعله عندما وصفه بمثل هذه التفاصيل التصويرية. كانت الرسالة مفادها أنه إذا تجاهل الناس تحذيرات الرسول، فلن يتم جرجرتهم إلى ألسنة لهب جهنم فحسب، وإنما ثمة تعذيب إضافي إذ سيسكب الماء المغلي على رؤوسهم. وفي زمن النبي، كان خَزَنة الجحيم يتعاونون فيما بينهم، وعرفوا كيف يديرون نظامًا متقنًا، وفعالاً بطريقة مرعبة. فترهيب الناس في الدين كان، دومًا، أسلوبًا فعّالاً. كان عائق الديانة المسيحية في مواجهتها منافسَها الدين الإسلامي هو أن القرآن كان أكثر ترويعًا من العهد الجديد. لذلك قررت المسيحية

أن عليها مضاعفة جهودها لبلوغ غايتها. ربما لم يستطع كتاب الكنيسة المقدس أن ينافس القرآن في عقوباته المروعة، لكنه امتلك في ترسانته سلاحًا لم يكن متاحًا للمسلمين.

فعلى عكس الإسلام، لم تكن الكنيسة الكاثوليكية تزعجها الوصية الثانية التي تحظر الصور، وكانت تؤمن أن الفن بأشكاله جميعا يمكن أن يستخدم لتمجيد الله، ولنشر الرسالة المسيحية، حتى أصبحت الكنيسة الكاثوليكية أعظم راعٍ للفنانين شهده العالم على الإطلاق، إذ وظفت الموسيقى والهندسة المعمارية للاحتفال بالإيمان، والإعلان عنه، لكن من بين سائر أشكال الفن الأخرى أحبت صنع الصور. وهذا يعني أنه بينما كان المسلمون لا يجيدون غير وصف الجحيم بالكلمات، تمكن المسيحيون من رسمه. والكل يعرف أن الصورة تساوي ألف كلمة. وليتأكدوا

من أن رسالة الجحيم كانت واضحة، ومدوية على السواء، قاموا برسم الجحيم بكل تفاصيلها المقززة على جدران الكنائس. هذا مثال على ذلك.

ثمة كنيسة من القرن الخامس عشر في مدينة ساليسبري الإنجليزية سميت على اسم توماس بيكيت. وقد قُتل بيكيت الذي كان رئيسًا لأساقفة كانتربري في كاتدرائيته في 29 كانون الأول من عام 1170 بأمر من الملك هنري الثاني. والكنيسة التي سميت باسمه تكريمًا له في ساليسبري عبارة عن مبنى قديم رائع يتسلل إليها الضوء بنعومة. تلوح لك من جدار قوس مذبح الكنيسة بينما تسير في الممشى المركزي متوجهًا إلى لوحة (يوم

القيامة) من القرون الوسطى. كان الموت في اللغة الأنجلو سكسونية يعني يوم الحساب، يوم القيامة، عندما يتم استدعاء الموتى من قبورهم لسماع حكم الله على حياتهم. صممت لوحات (يوم القيامة) لإخافة الناس، وكانت، وما زالت مؤثرة للغاية.

رسمت في عام 1475، يظهر المسيح على كرسي الحكم، على يمينه يجري إرسال الصالحين إلى الجنة حيث ترحب بهم الملائكة، وعلى يساره يجري إرسال العاصين إلى الجحيم، حيث تقوم الشياطين بجرجرتهم، وإلقائهم في الحفرة المشتعلة نارًا في فم التنين. من كانوا يتأملون تلك اللوحة للمرة الأولى سيأخذون بها حرفيًا. فعالمهم عبارة عن كعكة ذات ثلاث طبقات؛ السماء إلى الأعلى، والأرض في المنتصف، والجحيم في الأسفل. عندما تموت تذهب إما فوق إلى الجنة، وإمّا إلى الأسفل في الجحيم، وكان

يُعتقد أنها في باطن الأرض نفسها، لذا عندما تنفجر البراكين قاذفة الحمم المحترقة، كان يعتقد أن (الجحيم قد فتحت فاها) لتُذيق العاصين طعماً مما ينتظرهم في الأسفل.

لم ترسم المسيحية الجحيم على جدران كنائسها حسب، بل استخدم خطباؤها خيالهم لوصف أهوالها في مواعظهم. سجل الكاتب الأيرلندي جيمس جويس في روايته السيرة الذاتية (صورة الفنان في شبابه)، عظة سمعها وهو صبي عندما أخبر الواعظ جمهوره المراهقين أن معدن الكبريت الذي يُحرق في الجحيم أُعد ليكون مثل لهيب جهنم، مشتعلاً إلى الأبد. أما النار الدنيوية، صرخ الواعظ، فتخمد بينما هي تحترق، وكلما اشتدت حرارتها

قصرت مدتها، بيد أن نار الجحيم تحافظ على أولئك الذين أحرقتهم حتى لا يتوقف ألمهم أبدًا!

إن فكرة لا نهائية الألم في الجحيم تقف في الحلق حتى لو لم نؤمن بها، بمجرد القدرة على تخيلها! لقد قام البشر بأشياء فظيعة لبعضهم عبر القرون، ولكن حتى أكثر العقوبات شراسة كان لابد من أن تنتهي في مرحلة ما، حتى أن كان في وفاة الضحية.

تكمن عبقرية الجحيم الشريرة في أن ألمها لا ينتهي أبدًا. يقضي سجناؤُها الأبدية، الآن، وليس ثمة شيء بعد ذلك ليتطلعوا إليه. ففي لوحة الموت لسالسبيري، أدخل الفنان زخرفًا حلزونيّاً عليه شعار باللغة اللاتينية - (لا خلاص). وقبل قرن من قيام الفنان المجهول برسم هذه الكلمات على جدران القديس توما في سالزبوري، كتب شاعر إيطالي يدعى دانتي قصيدة مشهورة

عن الجحيم، وعلى بابها قام بكتابة هذا التحذير (تخلَّ عن كل آمالك يا من تدخل هنا).

إنها الرسالة ذاتها. فالجحيم بلا نهاية، ومن دون أمل هو أعنف احتمال يمكن أن يواجه به إنسان. تجدر الإشارة إلى أن القديس توما الأكويني، أعظم لاهوتيي الكنيسة الكاثوليكية فضلا عن أنه رجل لطيف، أعطى جاذبية مضافة إلى الجنة، إذ قال إن هناك شرفة مريحة في الجنة يمكن للمقيمين فيها مشاهدة الملعونين في الأسفل وهم يتعذبون: «لكي تكون نعمة القديسين أكثر بهجة لهم... فقد مُنِحُوا نعمة رؤية عقاب الملعونين بأكمله». لذا كانت الجحيم عذابَ الملعون، ونعيم المُفَدّىً.

حتى الآن الوضع مروع. لكن الدين يمكن أن يكون جيدًا في إدراك تعاليمه الأكثر تطرفًا وتعديلها. وحدث شيء من هذا القبيل مع عقيدة الجحيم في الكنيسة الكاثوليكية. ألم تكن هناك وسيلة وسطى لمن ليسوا صالحين بما يكفي لدخول الجنة عند موتهم، ولا سيئين بما يكفي لإلقائهم في الجحيم؟ ألن يكون عظيمًا لو أمكننا إنشاء مركز تدريب يعدّ فيه العصاة إعدادًا مكثفًا من أجل إعادة فحص الجنة؟

تم الاعتراف بضرورة إنشاء هذا المكان، وفي القرن الثاني عشر أنشئ رسميًا، وأطلق عليه المَطْهَر. الفرق بين الجهنم والمَطْهَر هو أن المَطْهَر له مخرج. فالقديس توما الأكويني كان يتمتع بسلطة مطلقة تتحكم بكيفية عمله، وأوضح أنه إذا مات الناس قبل دفع الغرامة على خطاياهم، فإنهم يحصلون

على فرصة ثانية في المَطْهَر. والشيء الرائع بخصوص المَطْهَر هو أنه كان مكانًا للأمل، ومن المؤكد أنه كان مكانًا للألم. لكن من تحملوه عرفوا أنه لن يدوم إلى الأبد، فبعد أن يقضوا فترتهم فيه سوف تفتح لهم أبواب السماء.

كان إنشاء المَطْهر بمثابة رحمة أزالت بعضاَ من الخوف من الموت. لكن الكنيسة لديها طريقة لإفساد حتى أعمالها الإنسانية. هذا ما حدث هنا، إذ حولت الكنيسة المَطْهر إلى ابتزاز لدرّ الأموال، وكان الأمر شنيعًا لدرجة أنه مزق الكنيسة الكاثوليكية. في الفصل التالي سنبدأ باستكشاف الكيفية التى حدث فيها ذلك.

الفصل السادس والعشرون



نائب المسيح

في ألف السنة التي تلت انتشار الدين المسيحي وأصبح فيها الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية على يد الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع، تغير وضع الكنيسة وتحولت من مجرد مكان تتعبد به طائفة مُضطهَدة تنتظر عودة المسيح إلى أكبر مؤسسة وأقواها على أرض المعمورة. فضلا عن تأثيرها الروحى، بات للكنيسة نفوذٌ دنيويّ، ادعت معه أن بمقدورها الجمع ما بين

الأرض والسماء في وحدةٍ متجانسة. مؤسسة مهيبة، رائعة في رذائلها، كما في فضائلها، فهي تُهيمن على الأرض، تُخضع الملوك وقادة الجيوش. وعلى الرغم من قِصَر المدة الفاصلة عن الرسول المصلوب التي تدعي الكنيسة أنها تتبعه، فقد بقي المسيح في الخلفية وجودًا مثيرًا للقلق، ذا تأثير فى الكنيسة لم يَخْبُ أبدًا.

وفي أوج نفوذها وقوتها في القرنين الثالث عشر، والرابع عشر، تعلمت الكنيسة الكاثوليكية الدرس الوحيد الأكثر أهمية الذي يجب على الدين أن يُتقنه إذا ما أراد أن يستمر طافيًا على بحار التاريخ الهائجة. وكما رأينا، فمن صُلب طبيعة الأديان سهولة تجزِئتها، فهي لا تحتاج إلى جهدٍ كبير لتمزيقها، مجرد موت رجل واحد يفي بالغرض. كما يفعل النزاع على حرف العلة الذي يجب استخدامه في كلمةٍ ما. لذا قررت الكنيسة الكاثوليكية أن أفضل طريقة لتجنب هذه الانقسامات الدينية هو تركيز نفوذها على شخص واحد، وبناء الهياكل حوله لتثبيت سلطته.

استطاعت الكنيسة تحقيق ذلك من خلال فرض أمر لا يمكن تجاوزه، مخصص للقساوسة ليديروا المستويات الأدنى في منظمتها العظيمة السعة. فلم يكن مسموحًا للقساوسة الكاثوليك بالزواج،

وإقامة علاقات، وارتباطات إنسانية قد تنافس دورهم الروحي. فالكنيسة هي بمثابة العائلة لهم. ومقابل تلك التضحية الشخصية المطلوبة منهم، مُنِحوا منزلة اجتماعية رفيعة المقام ومقامًا خاصًا، مقدسًا، وذلك عن طريق آلية روحانية تُسمى (الخلافة الرسولية)، مثل الأئمة لدى المذهب الشيعي في الدين الإسلامي، إذ يتلقى رجال الدين الكاثوليك سلطتهم من مصدر إلهي، وليس من البشر. هكذا كانت تجري الأمور.

استعان النبي يسوع باثني عشرَ حواريًا لإعانته على نشر رسالته، ووزع عليهم مهامهم بوضع كفيه على رؤوسهم. وبالطريقة نفسها يُسلم الرسل سلطتهم إلى من يخلفونهم. لقد

ادعت الكنيسة الكاثوليكية أن سلسلة توريث الخلافة من خلال وضع الكفين على الرأس لم تكسر أبـدًا، فكأنها خط أنابيب عظيم يَمُرّ عبر التاريخ من دون أن يُكسر. فإذا قطعتَ خط الخلافة، هذا أو ذهبت إلى ممول آخر فستفقد سلطة المسيح. قام الأساقفة، والقساوسة، والشمامسة الكاثوليك بتنسيق الأمر على هذا النحو ليصبحوا طبقة خاصة، منفصلة عن عامة الناس. إن جرح القس، أو إهانته كانا يُعدّانِ نوعًا خاصًا من الجرائم، فهو تدنيسٌ للمقدسات، وجريمةٌ ضد الرب وتجري معاقبة مرتكبها وفقًا لذلك.

وبقدر أهمية خلق طبقة النخبة هذه لتوحيد الكنيسة الكاثوليكية، كانت النقطة الفاصلة الحقيقية في هذا النظام هو الكيفية التي يتمكن فيها من تركيز السلطة المطلقة في شخص

واحد هو أسقف روما. وإلى أن حان وقت اكتمال عملية بناء هذا النظام كان قد أصبح لأسقف روما أقوى نفوذ على وجه الأرض. لكلماته سلطة على الحياة الدنيا كما على الحياة في الآخرة. كان باستطاعته أن يسجنك على الأرض، أو يحرمك من دخول الجنة بالسهولة نفسها. لما بلغت الكنيسة ذروتها أصبح نفوذ أسقف روما لا حدود له. احتاج هذا، بالطبع، إلى قرون لتحقيقه. لكي نفهم كيفية حصول ذلك نحتاج إلى العودة إلى الوراء، إلى عهد الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع.

من الخطأ الافتراض أن روما كانت دائمًا مركز العمليات في الإمبراطورية الرومانية. لم يكن الأمر كذلك حتى نهاية

سنة 330 حين قرر قسطنطين تأسيس مكاتب الإمبراطورية في الجزء الشرقي منها، حيث قام ببناء مدينة رائعة أطلق عليها اسم القسطنطينية تيمّنًا باسمه، هي المعروفة، اليوم، بإسطنبول في تركيا. وقد وضع هذا التأسيس متغيرين قيد التنفيذ، فأصبحت القسطنطينية أهم مدينة في الإمبراطورية، لكن أرتبط جزء كبير من هذه الإمبراطورية العظيمة بالأسقف المحلي، وأصبح لأسقف المدن الكبرى مثل روما والقسطنطينية نفوذٌ عظيم يفرض سلطته على أساقفة الأماكن الأقل أهمية.

في مدن الجزء الشرقي من الإمبراطورية أطلق الأساقفة ذوو المراتب العليا على أنفسهم اسم (البطاركة)، المشتقة من اليونانية بمعنى الأب. وفي الجزء الغربي أطلقوا على أنفسهم (الباباوات)، المشتقة من اللاتينية بمعنى الأب أيضًا. ومنها

تعمَق الخلاف بين الطرفين؛ فلم يَعُدْ مجرّدَ استخدام مختلف للغة، فمن الناحية النظرية، ما زالوا كنيسة واحدة غير أنهما بَدَآ بالانشقاق كما هو حال الصراعات عبر التاريخ، فعندما يحدث الانفصال يدور الصراع حول من تكون له السلطة على الآخر.

وبَّخَ المسيح رسلهُ على جدالهم بشأن من منهم سيتولى زمام المسؤولية، ويكون الأعظم حين تُؤسَّس مملكته على الأرض. وقد نشبَ نزاع مماثل بين أساقفة القسطنطينية، وأساقفة روما، حول من كان الأعظم، بطاركة الشرق، أم باباوات الغرب؟ ولم يكن المسيح حاضرًا ليفضّ هذا النزاع.

في الواقع تميل كفة التأثير الروحاني نحو كنيسة روما. فحقيقة أن الإمبراطور لم يعد يقطن روما تعني أن البابا أصبح مصدرًا لا نظير له للسلطة في العاصمة القديمة. في حين كان البُطريرك في القسطنطينية دائمًا ما يُلازم الإمبراطور كظلهِ الذي لا يدع لهُ مجالاً للتنفس. في عام 1054 تمخض عن التنافس المشتعل بين الطرفين ما عُرِف في ما بعد بالانفصال العظيم الذي انبثقت عنه نسختان متميزتان من الديانة المسيحية: الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق، والكنيسة الكاثوليكية في الغرب مع البابا في روما. استمر الانفصال إلى يومنا هذا، وكان لكل طرف أسلوبه، وثقافته الخاصة به. فرجال الدين الأرثوذكس، عادةً، يُطلقون لحاهم، وعلى النقيض منهم رجال الدين الكاثوليك. وقد يتزوج القساوسة الأرثوذكس، في حين يعزف عن الزواج القساوسة

الكاثوليك. غير أن ما وراء هذه الاختلافات السطحية تكمن خلافات متجذرة حول مصدر السلطة العليا التي تولاها البابا في روما.

قد يبدو على السطح أنها خلافات عادية بشأن امتلاك السلطة. وفي النهاية، تعد السلطة أكثر المخدرات المعروفة إدمانًا ويذهب الناس بعيدًا لامتلاكها، والحفاظ عليها. غير أن المتنازعين في صراعات السلطة الدينية دائمًا ما يكونون على حذر، فيغلفون طموحهم بغطاء مقدس. فالخلاف لم يكن يومًا ما حول سياسة البشر، بل هو، دائمًا، وأبدًا، حول طاعة الله. وقد رأينا ذلك في الصراع بين المذهب الشيعي والمذهب السني في الإسلام، إذ

غلّف الشيعة أحقيتهم في امتلاك السلطة بنظرية روحانية تتمثل بكونهم من سلالة الرسول. والبابا في روما امتلك البطاقة نفسها مخبأةً في جعبته ليُخرجها حين الطلب. كانت دعواه بحقوقه في الأولوية لا تعود إلى أن روما، تاريخيًا، أهم مدينة في الإمبراطورية فحسب، بل لوجود ما هو أكثر من ذلك أيضًا. فالمسيح نفسه خطط لتكون بهذا الشكل! وفيما يلي كيف دار الجدال:

عندما جمعَ يسوع حوارييه الاثني عشر أعطى بطرس المرتبة العليا. وليتأكد من عدم تشكيك الآخرين بمنزلة بطرس أعطاه كنية. فاسمه الحقيقي، اسمه اليهودي، كان سمعان. لكن يسوع أسماه (صخرته) أي بيتروس (Petros) في اليونانية وبيترا (Petra) في اللاتينية. قال يسوع «اعتدتَ أن ينادوك بسمعان، لكن من الآن فصاعدًا سينادونك بسمعان بطرس، سمعان الصخرة.

وعليك سأبني كنيستي ». ولم يكن هذا كل شيء.

هل تذكرون أين توفي بطرس؟ كان ذلك في روما خلال الفترة الأولى من اضطهاد المسيحيين في 65 بعد الميلاد. وبما أن بطرس كان في روما حين جرى إعدامه، فعليه لا بد من أن يكون هو من كان الأسقف الأول لروما. وبما أنه كان رئيسًا للحواريين فيمكنك أن تُجادل بأن كل من أتى بعده من أساقفة روما يرثون مكانته. لذلك فإن أسقف روما، خليفة بطرس، يجب أن يكون رئيسًا لجميع الأساقفة - نائب المسيح أو مُمَثِلَهُ.

على أرض الواقع لم تعترف الكنيسة الشرقية بكل هذا. كانت الكنيسة الغربية تذهب بعيدًا في قولها إن بطرس كان

هو أسقف روما الأول. ففي ذلك الوقت لم يتوقع المسيحيون بقاءهم لمدة طويلة، إذ قيل لهم إن يسوع المسيح سيعود قريبًا، فلِمَ يزعجون أنفسهم في تأسيس منظمة، هم على يقين من أنها ستُفنى عن قريب كأي شيء آخر؟

كان التاريخ إلى جانب الكنيسة الشرقية في الجدال. فالطريقة التي جرى فيها تنظيم الكنيسة يعود الفضل فيه إلى قسطنطين أكثر منه إلى يسوع المسيح. لذلك رفضت الكنيسة الشرقية الانصياع إلى سلطة البابا، وسحبت نفسها، وترك لبابا روما أن يكون أعلى مرتبةً في الكنيسة الغربية، لكنه لم يُكمل بعد من تجميع نفوذه. لنفهم التطور القادم علينا أن نعود إلى تلك النفوس التي تشق طريقها من خلال المُطهِر.

تذكروا ما يلي: في الفكر الديني في ذلك الوقت، تعد هذه

الحياة الدنيا مجرد تحضير للحياة الأبدية، أما كيف تقضي الحياة الآخرة تلك فيعتمد على ما سلكته في الدنيا على الأرض. الخطيئة قد تؤدي بك إلى الجحيم، أو في أفضل الأحوال إلى التَطّهُر في النار، ثم الخروج منها. لذلك فإن حصولك على الغفران من ذنوبك قبل الموت كان أمرًا غاية في الأهمية. بعض الناس يحاول أن يمشيَ الطريق إلى نهايته، فيقوم بتأخير الحصول على المعمودية، والتطهر من ذنوبه إلى لحظة ما قبل الموت. وهذا يعني أنهم يعيشون حياتهم بالطول والعرض ثم يضمنون سكنًا مريحًا في الحياة الآخرة. هذا ما فعله قسطنطين بالضبط. فقد أخَّرَ

معموديته إلى اقتراب وقت موته، فحَكَمَ كأنه سيعيش أبدًا، غير أنه تَطَهرَ من ذنوبه في الوقت المناسب.

وعليك أن تفكر في ذلك لحظةً فحسب، لتدرك أنك إن كنت تمتلك القدرة على مغفرة ذنوب الناس، وضمان دخولهم الجنة، فإن هذا سيعطيك سلطة غير محدودة عليهم. كان يعتقد البابا أنه يمتلك هذه السلطة. فالمسيح منح هذه السلطة لبطرس، والبابا هو خليفة بطرس. في القرن الثاني عشر بدأ الباباوات باستخدام هذه السلطة بطريقة مجحفة ما أدى في النهاية إلى تمزيق الصخرة الكاثوليكية. وجرى لوم الإسلام على ذلك.

حينما ننظر إلى تاريخ الإسلام نلاحظ انتشاره السريع في المناطق الجنوبية والشرقية من الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة الرسول. وإحدى المناطق التي فتحها الإسلام كانت فلسطين التي

تضم مدينة أورشليم المقدسة. والحال كانت هذه المدينة مقدسة لدى اليهود والمسيحيين على السواء، ووقعت في أيدي المسلمين الذين وقّروها بدورهم، فهي مدينتهم المقدسة كذلك. أليس الرسول معيّنًا إلهيًا ليخلف كلا من إبراهيم، وموسى، ويسوع؟

لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للبابا، إذ كان استحواذ المسلمين على المدينة المسيحية المقدسة إهانة للكنيسة، لذا قرر استعادتها منهم. شُنَت حملة لإقناع المحاربين المسيحيين في أوربا من أجل الذهاب لإرجاع أورشليم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية. أولئك الذين استجابوا للتحدي وانخرطوا في المعركة أُطلقَ عليهم اسم (الصليبيون)، وتعنى المُعلَّمين بالصليب. ومثلما

فعلَ قسطنطين في معركة جسر ميلفيان بالقرب من روما إذ حارب وخلفه راية مرسومٌ عليها صليبٌ، استعمل الصليبيون كذلك رمز صلب يسوع ليقودهم في المعركة ضد المسلمين الذين كانوا يحكمون فلسطين آنذاك.

بعثَ البابا أوربان الثاني أول حملة صليبية عام 1095، ولحقتها سبع حملات أخرى في القرنين التاليين. وعلى الرغم من استعادة أورشليم في وقت من الأوقات، إلّا أن الصليبيين ألحقوا أذى كبيرًا بالمسيحيين في الكنيسة الشرقية يعادل ما ألحقوه من أذى بالمسلمين، وتركوا وصمة عار لا يمكن محوها من تاريخ المذهب الكاثوليكي. وهنا يكمن التحول المصيري، فلتحفيز الرجال على الذهاب إلى الحملات الصليبية والانضمام إليها عرض عليهم البابا مغفرة خطاياهم جميعًا. المصطلح الذي أُطلق على هذه

الصفقة هو (الغفران)، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية بمعنى تنازل. كان ينطوي هذا العرض على منطق روحاني. ففي نهاية المطاف، الركوب، أو المشي لمئات الأميال من الوطن وتَحَمُّل خطورة المعركة يُمكن التفكير فيه على أنه تكفير عن السلوك السيئ، كما هو الحال مع الغرامة أو الخدمة الاجتماعية التي تفرضها أنظمة العدالة في عصرنا هذا.

عندما قرر البابا، في وقتٍ لاحق، أن يصبح الغفران صكوكًا تَدُرّ بعض المال السهل ليتم استخدامه في مشروع أبنية للحيوانات الأليفة، حينها بدأت المشاكل تواجه الكنيسة. هذا ما سيتضح لنا فى الفصول القليلة القادمة.

الفصل السابع والعشرون



احتجاج

في صباح ربيعي من عام 1517 وقفَ واعظٌ على منبره المؤقت في ساحة جوتربوغ في ألمانيا، وبدأُ يرفع صوته مُخاطبًا الجمهور المحتشد لسماعه. وما قاله كان فتيل الديناميت الذي مزقَ النصرانية إربًا.

تجمعوا! تجمعوا فهذا يوم فلاحكم، يا رفاقي. هذا اليوم الذي تخرجون فيه من الزنزانة. كل ما تحتاجون إليه هو

هذه الرسالة الصغيرة. هذه الرسالة التي أحملها في يدي تكلفتُها شلناتٌ قليلة غير أنها ستنقذُكُم من سنين عذاب تقضونها في المَطهَر.

أنتم جميعًا كاثوليك مؤمنون، وتعلمون أنكم ستُعاقبون على ذنوبكم. فلابُدّ من أن يكون للخطيئة ثمنٌ يُدفع! اعترفوا قدر ما تستطيعون، لكن ذلك لن يغير أي شيء، فتلكم الخطايا يجب التطهر منها في المَطهَر! سبع سنوات على كل كبيرة تقترفونها.

كم تقترفون من الكبائر في السنة؟ كم تقترفون من الكبائر في حياتكم؟ احصوها. وفي غمرة الحياة وقبل أن تستوعبوا ما يحدث سينتهي بكم الأمر في قضاء مئات الأعوام في المَطهَر. فكروا في الأمر مليًا.

غير أن واحدة من هذه الرسائل الصغيرة ستنقذكم. ضعوا شلنًا واحدًا في هذا الصندوق، وستتخلصون من ذلك العذاب. وأصغوا إلى ما سأقوله جيدًا، فإن هذه الرسالة

ستخرجكم من المطهر ليس بسبب ما اقترفتم من خطايا لحد الآن فحسب، بل أيضًا ما ستقترفون من خطايا في المستقبل! يا لها من صفقة!

ما مضمون هذه الرسالة؟ إنها صك غفران. وهي من أبينا المقدس، البابا نفسه. لقد أرسلني البابا إلى هنا لأخبركم أنكم إذا ما اشتريتم صك غفران الآن، عندما تأتيكم المنية ستُغَلّق في وجوهكم أبواب النار، وتُفَتّح لكم أبواب الجنة على مصاريعها.

والعرض لا يشمل الأحياء فحسب، بل الأموات كذلك! فكروا في أقربائكم وأصدقائكم الذين علقوا في المَطهَر.

فكروا في السنوات القادمة التي تنتظرهم، وسيقضونها في عذاب متواصل. سنوات مؤلمة، سنوات عقاب! لكن، بشرائكم صكّاً واحدًا من صكوك الغفران، هذه، سيخرج أقرباؤُكم من المَطهَر، هكذا وبطرفةِ عين سيصبحون في الجنة!

وهناك شئ آخر. فصك الغفران هذا لن يعمل معروفًا لكم ولأحبائكم فحسب، بل أيضًا للكنيسة الكاثوليكية المقدسة. الكنيسة العظيمة في روما حيث تم دفن أجساد القسيسَين بطرس وبولس بطريقة سيئة. أبونا المقدس البابا ليو يريد أن يبني كنيسة ستُخضع العالم من جمالها وروعتها، وبإمكانكم المساعدة في بناء هذه الكنيسة! الشلن الذي ستدفعونه سيشتري حجرًا، وحجرٌ فوق

حجر سيعلو قبر بطرس الجديد ليُدهش العالم بعظمته.

تجمعوا! تجمعوا! صكوك الغفران للبيع، الواحد بشلن!

كان اسم الواعظ جوهان تتزل، وكان ينتمي إلى فرع القوات الخاصة للكنيسة الذي يسمى بنظام الوعاظ، أو الدومنيكان. كان جوهان في الثانية والخمسين، رجلاً قويَّ البنية، ضخم الجسم كالثور، وفي وقته كان قد قام ببعض الأعمال للكنيسة.

قبل قرنين من خطبة تتزل في ساحة جوتيربوغ، أسس البابا جريجوري التاسع نظام منفذي القانون يُسمى ديوان التفتيش (محكمة كاثوليكية لمعاقبة الهراطقة). وكلاء هذه المحكمة

أو مفتشوها مُنِحوا تفويضًا لقلع التعليم الخاطئ في الكنيسة من جذوره بأي وسيلة كانت، ومن ضمنها التعذيب. وكانت أكثر وسائلهم للتعذيب فعالية (الرف)، وهو عبارة عن إطار خشبي (شبيه بالسرير، مرتفع قليلاً عن الأرض) فيه حبلان مربوطان بعتلة في الأسفل، وآخران مربوطان بعتلة في الأعلى. تُربط ذراعا المتهم في الحبال في الأعلى، ورجلاه في الحبال في الاسفل، ويدير المُعذِب العتلات حتى تنخلع عظام المتهم ويُسمع صوت تكَسُرها البشع. وإذا لم يستطع المُعذِب أن يحصل على الاعتراف المطلوب، يستمر في إدارة العتلة حتى يمزق أذرع الضحية، ويفصلها عن جسده. وذلك أبعد ما يكون عما يدعو له الدين من حب أعدائك، ومُباركة لاعنيك؛ بل إنها مثال على كيفية تَحول الدين، عادةً، إلى عدوٍ للحياة الدنيا حين ينشغل بالحياة الآخرة.

كان تتزل عضوًا في محكمة التفتيش، وكان نجاحه في انتزاع الاعترافات هو الذي دفع كبير الأساقفة في منز إلى تعيينه مديره الرئيسي لبيع صكوك الغفران، لأنه كان في ورطة، إذ كانت مقاطعته الكبيرة ترزح تحت طائلة الديون، وفوق هذا كان البابا يلاحقه لكي يسهم بمساهمة كبيرة في حملة إعادة بناء قبر القس بطرس في روما. في ذلك الوقت خطرت لكبير الأساقفة فكرة رائعة، لماذا لا يقوم بعقد صفقة مع روما؟ أن يقنع البابا بمنح تصريح إلى منتزع الاعترافات تتزل ليصبح بائع الصكوك الرسمي له، مقابل أن يذهب نصف المال الذي يجمعه إلى كبير الأساقفة لدفع ديون منز، والنصف الآخر إلى روما. وستكون

صفقة رابحة لكل من كبير الأساقفة المتورط بديون كبيرة، والبابا الذي يضيق عليه الخناق. وعقدت الصفقة. وفي فترةٍ قصيرة بدأت النقود تدرّ عليهم.

ولكن بعد أشهر من بيع تتزل لمجموعة من صكوك الغفران جاء قس ألماني آخر أكثر غلظة منه وقَوَّضَ الصفقة. وهو في أوج غضبه من فكرة إمكانية شراء المسيحيين طريقهم إلى الجنة، علّق على باب الكنيسة في المدينة المجاورة ويتنترغ وثيقة باللاتينية مفادها أن بيع صكوك الغفران لا يمت للمسيحية بصلة. وفي غضون أسابيع ترجمت الوثيقة إلى الألمانية بالإضافة إلى لغات أوربية أخرى. وفي نهاية شهر نوفمبر من عام 1517 كانت الوثيقة حديث أوربا. أما في روما فقد رفضها البابا ليو ساخرا، ودار الحديث في أوربا أن البابا رفض الوثيقة بقوله إنها مجرد عبثُ رجلٍ ألمانيٍّ سكران آخر، وسيغير هذا الرجل رأيه حين يعود

إلى وعيه.

إن من دعاه البابا بـ (رجلٌ ألمانيٌ سكران) هو راهب ملتزم يُدعى مارتن لوثر الذي لم يغير رأيه أبدًا. بل كان على البابا أن يُغيّر رأيه. وتحولت التسلية إلى غضبٍ، حين أخبر البابا بأن مبيعات صكوك الغفران قد انخفضت وأصبح محصول المال قليلاً جدًا بسبب الوثيقة التي علّقها الراهب، وأصبحت خطة البابا في إعادة بناء قبر القس بطرس في خطر، وعليه أصدر البابا ليو قرارًا سميّ (القرار البابوي) أقصى بموجبه مارتن لوثر من الكهنوت، وحظر كتاباته جميعها. وحين تسلّمَ لوثر

نسخته من القرار قام بإحراقها أمام العامة. ولكنه في ذلك اليوم، لم يحرق القرار البابويّ، بل أحرق معه الجسور التي تربطه بالكنيسة الكاثوليكية، وبدأت ثورة عمّت العالم سماها المؤرخون (الإصلاحات). وإلى الوقت الذي أخذت فيه الإصلاحات دورها كانت أوربا المسيحية قد تفتّت.

ولد مارتن لوثر في ايسلبين في العاشر من تشرين الثاني عام 1483، وهو ابن كل من هانز، ومارغريت لوثر. وعلى الرغم من فقر والديه مع مسؤوليتهما عن إطعام سبعة أطفال، إلّا أنهما أصرا على منح ابنهما الذكي مارتن تعليمًا جيدًا، فالتحق بجامعة إرفورت. وفي عام 1505 أصبحَ راهبًا في زمرة أوغستين الشهير، وبعد سنتين تم ترسيمهُ قسيسًا، وفي عام 1512 بدأ يُدرس في جامعة ويتنبرغ، ثم جرى تمييزه لترقية مبكرة. وفي عام 1510

أرسله رؤساؤُهُ إلى روما في مفاوضة عمل بالنيابة عن الزمرة، بعد وتيرة الحياة الكئيبة في وتنبرغ، رُوِّعَ لوثر بالعبث، والفساد اللذيْن واجههما في مدينة اتيرنل، فعاد إلى وتنبرغ قلقًا ليس على ما وصلت إليه الكاثوليكية الرومانية العظيمة فحسب، لكن على ما يفوق ذلك. كان قلقًا على روحه، وعلى قدرة الكنيسة على تخليصها من النار. إن ابتزاز الأموال من صكوك الغفران، وطرق الفساد الأخرى لم تمنحه الطمأنينة، ولكن المصدر الرئيس لقلقه لم تكن الكنيسة، بل اكتشافه للكتاب المقدس.

وليس القول هنا إن الكتاب المقدس كان ضائعًا من قبل، فمقاطع مختارة منه كانت تُقرأ باللاتينية كل يوم على العامة، غير

أنه، في هذا الوقت، كانت الكنيسة الكاثوليكية تستخدم الكتاب المقدس بصورة أساسية لدعم سلطتها الخاصة. تتحدث الكنيسة عن المسيح الذي عاش منذ زمن بعيد في الأرض المقدسة - هي ذات الأرض المقدسة التي أُرسِلَ إليها الصليبيون لإنقاذها من المسلمين - في حين أن ما يهمّ هو البابا لأنه نائب المسيح على الأرض حاليًا. لذا أي شيء مهم في الكتاب المقدس يُحال إلى البابا، وهو من يمتلك مفاتيح الجنة والنار، كما أن كلمات الكتاب المقدس قديمة، ومكتوبة باللاتينية فقليلٌ من يفهمها، وقليلٌ من القساوسة ممن يقرأون الكتاب على العامة ويفهمونه أيضًا. فتلاوته كانت كتلاوة القرآن: تهزّك، وإن لم تفهمها.

لكن في زمن لوثر كان هناك أُناس قادرون على قراءة الكتاب المقدس وفهمه، ولم يعد مكتوبًا باللغة اللاتينية التي تم ترجمته

إليها منذ عشرات مئات السنين فحسب، فعلماء مثل لوثر كانوا يقرأون العهد القديم بلغته العبرية الأصلية، والعهد الجديد بلغته اليونانية الأصلية، وبدأت ترعبهم رسالته، إذ أدركوا أن كلمة الله هذه ليست مجرد كلمات تخرج من فم البابا. فالكتاب المقدس يتضمن خبرًا جيدًا إذا فهمته بصورة صحيحة، وخبرًا سيئًا للغاية إذا أسأتَ فهمه. بدأَ لوثر يخشى من أن تكون الكنيسة الكاثوليكية قد أخطأت في تفسير الكتاب المقدس خطأً فظيعًا.

فالكتاب المقدس يحكي قصة أُناس اختارهم الله. كان يحوي قصة زواج. زَوّج الإله نفسه من إسرائيل، ويا للمأساة فإسرائيل لم تكن مخلصة له. وفي الوقت الذي ظهر فيه يسوع كان الإله قد

طلّق إسرائيل، عروسته الخائنة، واختار واحدة جديدة، الكنيسة الكاثوليكية. هل كان التاريخ يعيد نفسه؟ هل ما زالت الكنيسة الكاثوليكية عروس المسيح الطاهرة؟ أم أصبحت الزوجة الخائنة التي تركض وراء النجاح الدنيوي، والمتع المشتراة؟

إن قصة نقض العهد بين الإله وإسرائيل هي المفتاح الذي فك ما ترمي إليه الإصلاحات. ولكي نشعر بقوتها فعلينا أن نستذكر الادعاء الخطير الذي ادعته الكنيسة الكاثوليكية لنفسها، إذ منحت للرجال والنساء خبرًا جيدًا بنعيم أبديّ، أو خبرًا سيئًا بويلٍ أبديّ. فإذا ما كانوا أوفياء فإن الله يتعهد لهم بمستقبل عظيم ينتظرهم في الجنة. لكن ثمن الخيانة كان نوعًا من العذاب الأبدي جرى تصويره بوضوح في ذلك الرسم الكئيب الموجود في كنيسة القسيس توماس في سالسبرغ.

كيف النجاة؟ هذا هو الوسواس الذي كان ينخر في رأس مارتن لوثر. فحين قرأ رسائل القس بولس، مسيحيٌ آخر استحوذ عليه الوسواس نفسه، جاءه الهامٌ إلهي، لحظة بصيرة لما يريده الله. فلن تنقذه صلواته المتواصلة وحَجُّه المتكرر، أو صكوك الغفران الموقعة من قبل البابا نفسه، فهذا كلّه قد حوَّل علاقته بالإله إلى معاملات تجارية، إلى شيء يمكن أن يشتريه. كان يعلم أن من المستحيل أن يكون بمقدوره شراء حب الله. وهنا أدرك الأمر، وأبصرَ النور، فهو لا يستطيع شراء حبه، لأنه لا يحتاج لشرائه أصلاً، فالله أعطى حبه للجميع من دون مقابل! وحبّ الله له هو ما سينقذهُ، وليس الصفقة الخسيسة التى تعقدها الكنيسة.

عليه أن يثق بذلك الحب، أن يثق بالإله وحده، وليس بالكنيسة، أو البابا، أو أي وكالة بشرية أخرى.

وبرغم عدم معرفة مارتن لوثر بمدى التأثير الكبير الذي سيحدثه في القرون القادمة، إلّا أن هذا التحول في تفكير لوثر سيمثل نقطة تحول في تاريخ الإنسانية. سيطلق العنان لقوتين تغيران التاريخ إلى الأبد: قوة الكتاب المقدس، وقوة الأفراد تقفان وجهًا لوجه أمام الله. التأثير الآني لهذا التحول كان تشتيت وحدة الكنيسة الكاثوليكية التي كانت في يوم من الأيام عصية على الكسر. كانت الإصلاحات البروتستانتية تسير على قدمٍ وساق. وفي الفصول القادمة سنتفحص نتائج هذه الإصلاحات.

الفصل الثامن والعشرون



الانقسام الكبير

أوحى الإلهامُ الإلهيّ الذي برقَ في نفس مارتن لوثر أن النجاة تكون بحبّ الله فحسب، وليس بإداء الواجبات الدينية، أو شراء صكوك الغفران. هذه الفكرة لم تأخذها المسيحية أبدًا بالحسبان، ولم تعرْها اهتمامًا كافيًا. حتى لوثر نفسه لم يدرك مدى ثورية هذه الفكرة، وما تتضمنه من معنى، كما أنه لم يفعّلها دائمًا في معاملاته مع الآخرين، غير أنها طرأت عليه، وأصبحت

متداولة بين الناس.

والمصطلح التقني الذي أطلقه العلماء على فكرة لوثر، المهمّ بحد ذاته، يخبرنا قصة. لقد أطلقوا عليه (التبرير بالإيمان) أو الغفران بالإيمان. يقع مفتاح حل لغز معنى هذا المصطلح في كلمة (تبرير). (وهنا يجب أن نذكر أن المصطلحات، وتغيُّر

معانيها على مر العصور يختلف من لغة إلى أخرى. المصطلح في اللغة الإنكليزية هو (justification by faith) والمصطلح الذي تغير معناه هو justification إذْ كان يعني تبرِئة، والآن أصبح تبريرًا). والآن عليك أن تنسى المعنى الضمني الذي تحمله هذه الكلمة في يومنا هذا، حين يحاول شخص (تبرير) عمل مخجل قام به، أو كان عليه أن يقوم به، وفشل في إكماله، فلم تكن الكلمة بهذا المعنى. بدلاً من ذلك فكّر بشخص يقف أمام قاضٍ بسبب قيامه بعمل إجرامي، فهو مذنب، ويعلم أنه مذنب، ويعلم أن القاضي يعلم أنه مذنب، لكن لدهشته، يعلن القاضي براءته، معلنا أنه غير مذنب، ويطلق سراحه.

نظرَ لوثر بطريقة مختلفة لفهم العلاقة الإنسانية مع الله. فالانطباع الديني المغروز لدى الناس أن الرب موجود لمعاقبتهم،

ولقد جرى منحهم علامات على امتحان لم يعرفوا أسئلته قط، ولهذا السبب كانت الأديان المختلفة في تنافس لا مثيل له. تلك الاديان عرفت الأسئلة على الورق فحسب، وهي إنما تُدرِّبُكَ على امتحانٍ سجلتَ فيه منذ ولادتكَ، حين كنتَ لا تعلم أي شيء عن كل شيء. غير أن ما أبصره لوثر كان فكرة مختلفة لرؤية الله. كان ما رآه هو الحب، الحب الممنوح للعالم من دون قيدٍ أو شرط. إذا كان هذا حقيقيًا، فهذا يعني أن الناس باستطاعتهم العيش بحرية وسعادة بلا توجسٍ مستمر للحظة التي سينتقم فيها الرب، ويصبّ جام غضبه عليهم.

ولكي نفهم جيدًا مدى ثورية الفكرة الخاطفة التي أبصرها لوثر، فعلينا أن نتذكر كيف كانت الأديان التقليدية تعمل. كانت هناك بعض الفروق بينها، ولكن الجامع المشترك بينها جميعًا يمكن اختزاله في كلمة (المطلوب). فالأديان موجودة لتنقذ الرجال والنساء من قدرٍ مرعب. ولكي يجري إنقاذهم مطلوبٌ منهم أن يؤمنوا بمذاهب معينة، ويمارسوا طقوسًا معينة. كان الدين يعني ما أطلق عليه الرومان (مقايضة)، أو استبدال شيء مكان شيء آخر. إذن آمِنْ بهذا المذهب، ومارسْ ذلك الطقس، وستكون النتيجة جيدة. وفي بعض الأحيان تكون المتطلبات سلبية، أي أن لا تؤمن بهذا! ولا تفعل ذاك! فإذا تقبلت فكرة الإله المتطلب الذي نُسبت إليه كل هذه الأوامر والنواهي فستدرك معناها. كان الدين عبارة عن عملية تجارية، صفقة أو بوليصة تأمين. هذا،

بالتأكيد، ما كانت تعنيه صكوك الغفران: اشترِ صكًا، وسيكون مستقبلك مضمونًا! هذا يجري في الكثير من التعاملات الإنسانية، وليس في الدين وحده. لكي تحصل على شيء ما عليكَ أن تقدم شيئًا بالمقابل. كان الدين مشروعًا تجاريًا.

هذا، بالطبع، لا يمثل الطريقة التي رأى فيها يسوع العلاقة الإنسانية مع الرب، لكن الأشياء التي قالها كانت محيرة للغاية، وهؤلاء الذين كانوا يديرون الكنيسة لم يحاولوا أبدًا اتباعها. أخبرَ يسوع قصةً عن مالك لحقل عنب كان يُعطي كل من يعمل لديه أجرًا مماثلاً في نهاية اليوم، بغض النظر عن ساعات عمل كل فرد. علاقة الرب مع البشر لم تكن مبنية على قانون العمل، قال

يسوع: إنها علاقة قائمة على الفردية، ومناسبة لاحتياجات كل شخص. وفي حكاية رمزية مماثلة لكنها أكثر إيلامًا، فتى يطلب ميراثهُ من أبيه، ويُبَذِّرُهُ كلَّهُ برعونة على ملذاته، ثم يُرحّب به أبوه في منزلهِ مرةً أخرى دون لوم أو كلمة عتاب. يقول يسوع: الرب مثل ذلك الأب. لا يهم كيف نتصرف، فلن يتوقف عن حبّه إيّانا. حاولوا أنتم أن تحبوا بهذه الطريقة!

كان أمرًا جنونيًا! فإدارة العالم بتلك الطريقة تؤدي حتمًا إلى الفوضى في أنظمته، وفي مؤسساته بما فيها الدين. ومع ذلك، كان هناك احتمال وجود كنيسة تُدار بدافع الحب، ذلك الحب الذي برقَ في خاطر لوثر وهو في مكتبته في وتنبرغ. وكما عبرَ عنهُ بَطَلُهُ بول، الحب يتحمل كل شيء، ويصمد أمام أي شيء. حبّ الرب لأولادهِ لا يمكن أن يهزمه أي شيء، بما في ذلك أفعالهم

الفوضوية التي يقومون بها. ومهما كَثُرت ذنوبُهُم وعظُمت، فسيستمر الربّ في حبّهم. الحبّ هو الذي سينقذهم، وليس الخوف، والصفقات الناجمة عنه.

غير أن الكنيسة سمحت بتحويل الدين من دينِ لُطفٍ إلهيّ إلى دين قسوة بشرية. ذلك ما فعله قسطنطين حين ذبح أعداءه تحت راية صليب يسوع، وهذا ما فعله الصليبيون حين تحركوا لقتال المسلمين في الأرض المقدسة، وهو كذلك ما فعله رجال محاكم التفتيش حين مزقوا أذرع المهرطقين، وبتروها على آلة التعذيب (الرف). ظنَّ هؤلاء جميعهم أن لا بأس من إخضاع

الناس إلى رؤيتهم الخاصة للرب، وهذا لأن صورتهم عن الربّ كانت مجرد انعكاس لصورتهم هم أنفسهم.

رأى لوثر، في ومضةٍ، كم كان كل ذلك خاطئًا. هذه الرؤية أعطته الشجاعة للوقوف ضد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وجشعها فدعا إلى شيء جديد. وهكذا كانت ولادة الدين البروتستانتي، وكما هو واضح من الاسم، تقدم البروتستانتية نفسها بما تقف ضده من أفكار أكثر مما تدعو إليه. غير أن معارضتها لقسوة النفوذ أدخلت شيئًا ثمينًا إلى التاريخ الأوربي، وأصبحت البروتستانتية قوة ستتحدى، بمرور الزمن، الاستبداد السياسي وكذلك الاستبداد الديني.

وبسبب طريقة تنظيم المجتمع في ذلك الوقت، لم يكن بمقدور الحركة البروتستانتية أن تنتشر بصورة واسعة من دون

مباركة ودعم الحكام المحليين. فأوربا لم تكن ديمقراطية، لذا كان إعادة تشكيل الكنائس بحاجة إلى دعم الحكام الملوك، كما أن تشييد تلك الكنائس ذاتيًا كان بحاجة إلى دعم الدوقات. جرى تشكيل حلفاء مع الملوك، وظهرت كنائس جديدة، ولكن لم تكن جميع تلك الكنائس تنظر للأمور بالطريقة ذاتها، أو تؤمن بالأشياء نفسها. وتبعًا لذلك فإن الانقسام الكبير عن كنيسة روما تَبِعَتْهُ انقسامات صغيرة بين البروتستانت الذين اختلفوا مع بعضهم حول ماهية الكنيسة المشذبة الجديدة، وكيف يمكن أن تكون. كانت عبقرية البروتستانتية تكمن في أكثر جوانبها ضعفًا: هو عدم قدرتها على الوصول إلى حل وسط في أي شيء مُختَلَف عليه. أما

عبقرية كنيسة روما فكانت تكمن في مقاومتها للانقسام، فأفقها الضيق، ورؤيتها للأمور من جانب واحد فقط كان هو الغراء الذي ألزمَ ناسًا مختلفين في أماكن متباعدة بالإيمان بمذهبٍ واحد. وحتى استخدام اللاتينية في القدّاس كان أمرًا موحدًا، اللاتينيّة التي لم يفهمها غير المثقفين وهم دائمًا قلة، حتى بين رجال الدين. هذا يعني أن الناس الذين يذهبون إلى القداس في أرجاء أوربا كلها كانوا متحدين في جهلهم لما يُقال في مذبح الكنيسة، غير أنهم كانوا أيضًا متحدين في مشاركتهم في لغزٍ مقدس متشابه في كل مكان. وقد ضاعت هذه الوحدة في الإصلاحات وللأبد، وبقيت في الكنيسة الكاثوليكية وحدها.

بعد الاضطرابات العنيفة التي حدثت نتيجة الإصلاحات، واجهتها الكنيسة الكاثوليكية بحركة إصلاحات خاصة بها،

عُرفت بمصطلح (الإصلاحات المضادة)، عقدَ البابا بول الثالث مجلسًا في مدينة ترينتو في إيطاليا، وبقي هذا المجلس منعقدًا بين سنتي 1545 و1563. وكما هو متوقع، شجبَ المجلس كتابات مارتن لوثر، لكنه انتقدَ في الوقت نفسه الانتهاكات الكنسية التي دفعته إلى تلك الكتابات. استطاعت كنيسة (باركية القديس بطرس) النجاة من الزوبعة التي هددتها، وعصفت بها. وقد نال ذلك الاسم رضى تلك الكنيسة فأطلقته على نفسها تيمنًا باسم الحواري (بطرس) الذي رغبت في تسميته هو الآخر بـ (بابا الأول). وقد بقيت (باركية القديس بطرس) مبحرة على مر

التاريخ تُقارع الرياح بين حينٍ وآخر، غير أنها لم تتعرض أبدًا لتهديد خطير مرة أخرى.

ولا يمكن قول الشيء نفسه عن الكنائس البروتستانتية. فإذا أردنا أن نلتزم بالاستعارة البحرية لمدةٍ أطول، فمن السفن الكبيرة القليلة التي تُحلق تحت الأعلام الوطنية، إلى البروتستانتية التي ستتضاعف قريبًا إلى أساطيل من السفن الصغيرة المتنافسة، بعضها لا يتعدى حجمُها حجمَ القارب إلّا قليلاً. ساهم عاملان في فعالية المضاعفة هذه، وكان العامل الرئيس هو الكتاب المقدس. ففي اللحظة التي يتم فيها تحرير الكتاب من سيطرة سلطة واحدة فإنّه يصبح عرضة لتفسيرات كثيرة، خصوصًا إذا كان يُعتقد أنه موحى من الله. فقد اكتشف لوثر مصطلح (مغفور له لإيمانه)، لكن كان من الممكن إيجاد أكثر من ذلك بكثير في الكتاب المقدس،

وأغلبه كلام متناقض. فالكتاب المقدس، في النهاية، عبارة عن مجموعة كبيرة من الكتب كتبها العديد من الكُتّاب المجهولين، وأُعيدتْ كتابتها مراتٍ عديدة في خلال قرون، لذا نجد فيه أثرًا ما لكل شخص، اعتمادًا على الحاجات، والمخاوف التي تقوده. بعض الكنائس البروتستانتية الجديدة وجدت أن العهد القديم يُلهمها أكثر من العهد الجديد، وسوف نرى تأثير ذلك في طريقة سير الإصلاحات في الدول المختلفة، وكذلك سنرى كيف أن التوق القديم إلى السلطة المطلقة في الدين انتقل من البابا المعصوم إلى الكتاب المقدس المعصوم.

والسبب الآخر الذي أدى إلى الانقسام بين البروتستانت هو الطريقة التي حررت فيها الإصلاحات الأفراد. فالدين التقليدي لم يعطِ الكثير من حرية الاختيار للمؤمنين من العامة، فقد كان عليهم القيام بما يأمرهم به القساوسة والأساقفة الذين يديرون الكنيسة. ومن خلال التأكيد على ضمير الأفراد وحقهم في إقامة علاقة شخصية مع الإله، هدمت الإصلاحاتُ هذا النوعَ من السلطوية، إذْ رفضتْ فكرة تقرب الأفراد من الله عن طريق خبراء مُعتَمدين رسميًا، وآمنت بكهنوت المؤمنين جميعًا، وليس هؤلاء الذين تم وُسِموا كهنةً في الخلافة الرسولية فحسب. ولهذا السبب كان من الصعب تنظيم البروتستانتية في مؤسسة منفردة، فدائماَ كان هناك متمردون يتحَدّون من هم في موقع المسؤولية، وإذا لم يتم الإصغاء إليهم فينفصلون، ويُنشِئون كنيسة خاصة بهم.

بيد أن الفشل الأكبر لكنائس الإصلاحات كان في عدم تصدّيها للطريقة التي أفسد فيها قسطنطين المسيحية عبر استخدامه العنف ضد معارضيه. كان للوثر نور خاطف من البصيرة في طريق المحبة، غير أن الجنائن أغلقت أبوابها مرةً أخرى، فقد تعامل مع معارضيه بقسوة كانت أسوأ من قسوة من سبقوه، فلم يتردد أبدا في حدّ سيفهِ حين يتم تحدي سلطته.

وهذا ما فعله، تمامًا، مع المزارعين الألمان، حين تساءلَ هؤلاء المزارعون، متحفزين بتحدي الإصلاحات لنفوذ الكنيسة، عن سبب عدم قدرتهم على التحرر من سلطة ملاّك الأراضي، وتحكمهم في حياتهم. لم يكونوا عبيدًا بكل ما تحمله هذه الكلمة من

معنى، لكنهم كانوا أقرب إلى العبيد؛ كانوا أقنانًا، عمالاً زراعيين لا يملكون أي حقوق، ولا يستطيعون، بأي طريقة، الارتقاء بأنفسهم والخروج من منزلة الفقر. كانوا هناك للعمل الشاق المضني من أجل أن يسكن النبلاء البيوت الكبيرة والقصور. وباركت الكنيسة هذا الترتيب وكأنه ترتيبٌ ربانيّ، وسيُعبَّر عنهُ، في ما بعد، في ترتيلةٍ شهيرة: «الرجل الغني في قصرهِ، والرجل الفقير على باب القصر، الربّ جعلهم أغنياء وفقراء، ورتبهم في منازلهم تلك». لم يرَ الفلاحون الأمر بهذه الطريقة، والإصلاحات أعطتهم أملاً في التغيير. إذا استطاعت الكنيسة أن تتغير، فلم لا يتغير المجتمع؟ إذا كان باستطاعة مارتن لوثر أن يُسقط الكنيسة الرومانية العظيمة، فلمَ لا يستطيعون هم أن يَهزموا نفوذ ملاك الأراضي الألمان؟

وقد سُميت ثورتهم بثورة الفلاحين، واستمرت سنة واحدة فقط من 1524 إلى 1525. ومع دعم لوثر الغاضب والمتحمس، استطاعت السلطات قمع الثورة بقسوة، فقد قتلت في خلالها مئات الآلاف من الفلاحين. وحين انتهت الثورة، جابت عصابات الاقتصاص الريف لتضرب من تبقى من الفلاحين، وتحرق أكواخهم لتخرجهم منها عنوة. وكان هذا مثالاً آخر على الطريقة التي يعمل فيها الهاجس الديني متمثلاً في حرصه الشديد على إدخال الناس إلى الجنة غاضّاً الطرف عن مساعدتهم للتأقلم مع حياتهم على الأرض. من الممكن وصْفُ مشاركة لوثر في قمع ثورة الفلاحين بأنها أول حرب صليبية بروتستانتية. وستكون

هناك حروب أُخَر، وفي الغالب بين البروتستانت أنفسهم. كل شيء تغيّر، وفي الوقت نفسه لم يتغير أيّ شيء.

في نهاية القرن السادس عشر عمّت البروتستانتية أنحاء أوربا الشمالية كلها تقريبًا، فيما عدا إيرلندا. وأخذت الكنائس الجديدة أشكالاً مختلفة، وكانت عادةً في نزاعات عنيفة مع بعضها. لكن لم تكن أوربا القارة الوحيدة التي تمر في أزمات دينية، فالهند، هي الأخرى، كانت تمر في أزمةٍ دينية مماثلة. لذلك وقبل أن نغير القناة لنرى ما حدث حين وصلت الإصلاحات إلى إنجلترا واسكتلندا، سنعرّج، قليلاً، على الهند لنرى ما كان يحدث فيها.

الفصل التاسع والعشرون



إصلاحات ناناك

لم يكن مارتن لوثر يُحبّ غورو ناناك، مؤسس الدين السيخي، الذي بادله الشعورَ نفسَه، ولكن هناك الكثير من المشتركات بينهما، فقد عاشا في العصر المضطرب نفسه. ولد ناناك عام 1469، وولد لوثر عام 1483. توفي ناناك عام 1539، وتوفي لوثر عام 1546. لم يكن من الممكن أبدًا أن يسمع أحدهما بالآخر، وعاشا على بعد أربعة آلاف ميل عن بعضهما، ناناك

في الهند، ولوثر في ألمانيا. غير أن كلا منهما كان مصلحًا لدينٍ وُلدَ عليه. هناك بونٌ شاسع بين حياة كل منهما، وما يؤمن به، بيد أن كلا منهما يذكّرنا كيف أن للأديان ميلًا إلى الانقسام في بحثها عن الحقيقة والنقاء.

السيخي هو المريد، أو التابع لغورو ناناك، والغورو التاسع الذين خلفه. ورغم أن ناناك كان هو مؤسس السيخية، إلّا أن الإيمان الذي اكتشفه لم يصل إلى شكله النهائي حتى عام 1708 وقت وفاة الغورو العاشر الأخير. و(الغورو) هو المعلم الذي يجعل معنى الرب واضحًا، ووجودَ الخير حقيقيًا. عيّنَ غورو ناناك قبل وفاته غورو أنغاد ليخلفه، وقبل وفاة غورو أنغاد عام 1552 عيّنَ غورو أمار داس خليفةً له، وبهذه الطريقة تم تسليم الخلافة الرسولية لغورو السيخية حتى وصلت إلى الغورو العاشر، غوبند سنغ عام 1676.

ثم حدثَ شيء مثير للاهتمام، فقد قرر غورو غويند سنغ أن لا يعيّن خليفةً له. قال مُعلنًا، من الآن فصاعدًا، الغورو الذي سيمثل الرب ضمن المجتمع السيخي سيوجد في طريقتين

مختلفتين غير أنهما مرتبطتان ببعضهما. الطريقة الأولى، الكتاب المقدس هو الذي سيصبح الغورو، ويدعى (غورو صاحب الكبير) (جورو جرانت صاحب)، ويشرف على المكان المركزي في معبد السيخ، أو (الغاردوارا) (وتعني البوابة إلى الغورو) بوصفها رمزًا لحضور الرب بينهم.

أما الطريقة الثانية للغورو فستتمثل في جماعة المؤمنين الذين بدأ بهم الدين السيخي، وتُسمى هذه الطريقة (غورو طريق الخلاص)، أو غورو طريق النقاء. وكما هو الحال في بعض الكنائس التي انبثقت في المسيحية في أثناء الإصلاحات، فإن السيخية لا تؤمن في الحاجة إلى وجود اتحاد للقساوسة يُشرف

على إيمانهم. فالإيمان لا يحتاج إلى وسطاء بينهم وبين الرب، والمؤمنون جميعًا سواسية في نظر الرب. لذلك ولتقريب الصورة من الممكن القول إن السيخ هم بروتستانت الديانة الهندية، وأن غورو طريق النقاء هو كهنوت جميع المؤمنين المفضلين لدى الإصلاحيين في المسيحية. ثمة نواحٍ أُخَر في السيخية يمكن قراءتها على أنها شكل من أشكال البروتستانتية الهندية. لكن دعونا نَعُدْ، الآن، إلى ناناك، أول غورو في السيخية، لنرى كيف كانت البداية.

ولد ناناك في البنجاب في شمال غرب الهند من أبوين هندوسيّين من طبقة التجار. لقد مضى زمنٌ طويلٌ منذ أن كانت الهندوسية، هي، الدينَ المهيمن في الهند، فقد انتشر الإسلام حين وصل التجار المسلمون إلى الهند للمرة الأولى في القرن الثامن بعد الميلاد وجلبوا معهم معتقدهم. وكما هو الحال دائماً، كانت الهند

مرحبة بالدين في أي شكل من أشكاله فتأصّل الإسلام في شبه القارة بين الأنظمة الأخرى جميعها. ثم بدأ المسلمون في القرن العاشر بشن غارات على البنجاب من الجارة أفغانستان. وفي الوقت الذي بدا فيه أن المسلمين كانوا أكثر اهتماماً بالسلب منه في فرض معتقدهم، هالهم ما صادفوه من شرك هناك.

استمرت غزوات المسلمين، وفي الوقت الذي ولد فيه ناناك في القرن الخامس عشر كانت الإمبراطورية المغولية قد بدأت سيطرتها على الهند. انحدرَ المغول أصلاً من منطقة منغوليا في وسط آسيا، وفى الوقت الذي وصلوا فيه إلى الهند كانوا قد اعتنقوا

الإسلام. وحين كان ناناك صبيًا كان إمبراطور الهند مسلمًا. بيد أن مسحة من العقيدة الهندوسية قد بانت على الحكام الجدد، وكان الإمبراطور المغولي متقبلاً للعقائد المختلفة. لذلك كان على ناناك أن يختار، وهو الملتزم التزامًا مكثفًا بالبحث الروحي، هل سيعتنق الهندوسية، أم الإسلام؟

قرّرَ ناناك أن يذهب في رحلة حج إلى الأماكن المقدسة لكلٍ من الدينين بحثًا عن الإلهام. وقيل إنه ذهبَ بعيدًا إلى الغرب حتى وصل مكة في شبه الجزيرة العربية. وحين عاد إلى البنجاب في نهاية رحلاته، قرّر أن كُلّاً من الديانتين الهندوسية، والإسلام ليس هو السبيل الذي يبحث عنه. وبعدَ خلوةٍ روحيةٍ، وصوفيةٍ مع الرب، سلكَ ناناك طريقًا مختلفًا. لكن حين ندرس بإمعان ما تَكَشَّفَ لهُ نستطيع القول إنه على الرغم من أن ناناك

تبنى عقيدة خاصة به تعكس شخصيته، غير أنها كانت تحتوي عناصر من الدينين اللذين حلت محلهما. وكما كان كل من محمد وقادة الإصلاح، فإن ناناك كره الدين المبهرج. كان موحدًا يزدري تُجار عبادة الاصنام ازدراءً عميقًا. لقد رأى كيف يمكن للدين أن يَتحول بسهولة إلى خطة لابتزاز المال مع رجال الدين المخادعين الذين يضعون أنفسهم في مرتبةٍ عُليا ليمثلوا الرب. كان يعلم ناناك أن الرب موجود بالفعل في قلوب البسطاء من الرجالِ والنساء، فالرب لا يحتاج العمل عن طريق الوكلاء. لذلك لم تعجب ناناك نوع الخدمات التي تتطلب إلى قساوسة مختصين للقيام بها.

كان ناناك في ذلك الرأي مسلمًا أكثر منه هندوسيًا، لكنه كان أقرب إلى الهندوسية في تعاطفه مع الأرواح التي تتوق إلى النجاة من طوافها المترّحل في خلال الحياة الآخرة بعد الحياة الدنيا. كان يُؤمن (بالكارما)، وتناسخ الأرواح، وهما عقيدتان من أبرز العقائد الهندوسية. أخبره الرب أنه هو نفسه جرى عتقه من دورة العودة اللامتناهية، ولكي يُرِيَ الناسَ كيف بإمكانهم، هم، أيضًا، إحراز هدف من سلسلة الولادة من جديد فقد بعثه الرب على شكل غورو. وفي إحدى القصص التي تصف تجربته الروحية، وصف رسالة ناناك بالشكل التالي: قال له ذو الجلال والعزة:

«لقد عتقتك من سلسلة الولادة، الموت، والبعث. كلّ من وقعت عيناه عليك، وآمن بك سيكون في مأمن. وكل

من سمع كلماتك واقتنع بها سيكون في مأمن... منحتكَ الخلاص. ناناك، اذهب إلى ذلك العالم الشرير، وعلّم الرجال والنساء الصلاة، وإعطاء الزكاة من مالٍ حلال. اعمل صالحاَ وخلّص العالم الذي يعيش عصر الخطيئة)).

إلى حد الآن قد نكون قررنا أن كل ما فعله ناناك هو أنه أخذَ مقتطفات من كلٍّ من الدينيْن الهندوسي والإسلامي ووضعها مع بعض. لكن ما فعله في ما بعد كان أمرًا جذريًا وبارزًا وما زال كذلك. فقد جعل الناس تأكل مع بعضها، ربما لا يبدو الأمر جديدًا أو مهمًا ولكن في تاريخ الأديان كان شيئًا ثوريًا. ففي

المجتمعات الدينية كان على المؤمنين أن يتعلموا مع أي من الناس يأكلون ومع من لا يأكلون. هناك مصطلح تقني يشير إلى ذلك وهو: (المشاركة)، وتعني المجاميع التي من المسموح الجلوس، وتناول الطعام معها. الكثير من الجهود تذهب سدىً في محاولة معرفة من هم الناس الذين من غير المسموح الجلوس وتناول الطعام معهم. وهذا كله يرجع إلى فكرة الطهارة التي تغور عميقا في النفسية الدينية، الإيمان أن هناك طعامًا غير طاهر، وناسًا غير أطهار، فإذا لمستهم سيشمئز منك الرب، وستحتاج إلى التطهُر. هذا الأمر أكثر انتشاراُ في الدول التي يُمارس فيها نظام الطوائف الجماعية، أو الفصل المتطرف. وكان هذا ينطبق على نظام الطبقية الهندوسي إلى درجةٍ رمي غداء البرهمي بمجرد وقوع ظل شخص نجس عليه، فظل ذلك الشخص سينجس الطعام.

لم تكن الديانةُ الهندوسيةُ الديانةَ الوحيدةَ التي تمارس هذا النوع من التمييز العنصري. فقد وُجِد في الديانة اليهودية كذلك، فثمة أعراق نجسة، كما أن هناك طعاماُ نجسًا. إحدى التهم التي وجهت إلى يسوع هي تجاهله لهذه المحرمات، فهو لم يتحدث مع الخطاة فحسب، بل أكل معهم كذلك! والكنيسة التي ادعت أنها ستحذو حذوَهُ بعد فترةٍ قصيرة وجدت أسبابًا لأن لا تفعل. ما زالت محرماتُ الطعام موجودة، لحد الآن، في المسيحية. فالقداس الرئيس للديانة المسيحية هو الوجبة الطقوسية التي يُطلق عليها عشاء الربّ، أو القربان المقدس، أو القداس، وهي قائمة على الوجبة الأخيرة التي تناولها يسوع

مع حوارييه في الليلة التي سبقت صلْبه، حين أخبرهم بالاستمرار على هذا الطقس ذكرى له. ومنذ ذلك الحين والمسيحية تحتفل بهذه الذكرى. غير أنهم لا يأكلون هذه الوجبة مع أي شخص، فالكنيسة الكاثوليكية لا تأكلها مع البروتستانت، وهناك من البروتستانت من لا يأكلها مع البروتستانت الآخرين، أو أي شخص خارج دائرتهم الخاصة النقية. ويعتقد الكثير من المسيحيين أنك إن ارتكبت إثمًا فليس من المفترض السماح لك بتناولها نهائيًا، وكأنه يتم إرسالك إلى الفراش من دون أن تتناول العشاء عقابًا لك على سوء تصرفك.

كَرِهَ ناناك هذه المحرمات، فقد رأى كيف تبني جدرانًا فاصلة بين الناس باسم الرب الذي يحبهم جميعًا بالتساوي. كان جوابه بسيطًا ببراعة، فقد أدخل تقليد الـ (لانغر) أو الوجبة المشتركة

في مجتمع السيخ. وكانت الوجبة مفتوحة لجميع الطبقات، وخالية من زخرفة الطقوس التي يحب القساوسة تطريز الأنشطة الإنسانية بها، فهي وجبة عادية، يتناولونها معًا مثل عائلة. ففي معبد السيخ (الغادوارا) تعدّ قدسية المطبخ مثل قدسية أي جزء آخر من أجزاء البناية. يتم طبخ الطعام والمشاركة في أكله احتفالاً بالمساواة بين الجميع، لا يهم من أي طبقة اجتماعية، أو عقيدة، أو عرق، أو جنس. ولذلك للغادوارا أربعة أبواب على نقاط البوصلة ترمز إلى أن الغادوارا مفتوح للقادمين جميعًا. وقد أكدَ كل الغورو الذين أتوا بعد ناناك على ضرورة اللانغر في عقيدة السيخ. أما الغورو الثالث، آمار داس، فقد أصر على أن أي

شخص يرغب في مقابلته، من الفلاح البسيط إلى إمبراطور الهند نفسه، فعليه أن يتناول معه وجبة في اللانغر أولاً.

تبنى كلّ من الغورو التسعة الذين تبعوا ناناك رؤيته، وأكدوا على اتباعها وفقًا لحاجات العصر الذي عاش فيه، غير أن الغورو العاشر كان هو من أعطى العقيدة السيخية الهوية الدرامية التي ميزتها إلى هذا اليوم. قد يكون المغول الهندي متسامحًا نوعاَ ما، لكن المجتمع الهندي أبعد ما يكون عن الانفتاح، وكان على السيخ أن يحموا أنفسهم ضد الاستنكار الإسلامي. أسس الغورو السادس هارغوبند (1595 – 1644) جيشًا من السيخ لحماية جماعته، بيد أن الغورو العاشر غوبند سنغ (1666 – 1708) هو من أعطى السيخيةَ أهميتَها، وشجع شعبه على تأسيس بلدة محصنة، والمباشرة بتدريب عسكري – تذكيرًا كيف أن على متبعي

الدين الجديد، عادةً، حماية أنفسهم من اضطهاد الجماعة التي غادروها. وأصبح السيخ جنودًا أسطوريين وتبنوا الأسلوب الاستشهادي الذي ما زال يميزهم إلى هذا اليوم.

للعقيدة السيخية خمسة ملامح رئيسة، يُشار إليها (Ks) الكافات الخمسة. (كيش) تعني الشعر غير المقصوص، إذ يدع السيخ شعرهم ينمو علامة لإيمانهم، ويلبس الرجال العمائم للسيطرة عليه، وقد تلبس النساء العمامة، أو الحجاب، و(كانغاك) هو المشط الذي يضعونه في شعرهم الطويل رمزًا للنقاء، و(كارا) هو سوار من الحديد يلبسونه في الرسغ رمزًا للامحدودية الإله، و(الكربان) هو سيف يضعونه على الخصر معلقًا بحزام على

الكتف، يُذكِّر السيخ ليس بتاريخهم العسكري فحسب، بل أيضًا بواجبهم في الدفاع عن العدالة؛ و(كاشا) هي سراويل الجنود الذين في الخدمة ليتذكروا حاجتهم إلى الانضباط الذاتي.

والسيخية على خلاف المسيحية والإسلام، عقيدة غير تبشيرية، فهي مثل اليهودية في كونها هوية عرقية بقدر ما هي إيمان. وبينما تسعد السيخية باستقبال معتنقيها، إلّا أنها لا تعبر المحيطات لتلاحقهم. وذلك، لأن السيخية ليست مثل بقية الأديان التي ترى أنها الطريق الوحيد المخوّل للخلاص، فالسيخية تؤمن أنّ هناك العديد من السبل للوصول إلى الله. وفي هذا تُظهر الكرم الذي تتميز به الروحانية الهندية، على العكس من التعصب الذي عادةً ما امتازت به المسيحية في الغرب. هذا تلميحٌ لمغادرة الهند، والتوجه إلى بريطانيا لنرى كيف اشتعلت معارك الإصلاح هناك

حين دخل القرن السادس عشر.

الفصل الثلاثون



الطريق الوسط

عندما كنت طالباً، كان أحد محاضري تأريخ الكنيسة رجلاً من آبردين تميّز بطريقة مزخرفة في الحديث. حين حاضر عن الإصلاحات استخدم استعارة ما زلت أذكرها إلى الآن. طريقته هذه جعلتنا نفكر في أسلوب الكنائس المختلفة التي انبثقت من صراعات القرن السادس عشر.

قال: «لديك ابنٌ صغير، وكان يلعب مع أصدقائه في الخارج،

وحين عاد إلى البيت في ميعاد نومهِ كان وجهه متسخاً، يغطيه الطين من الأماكن التي كان يتجول فيها طوال اليوم. عندما ترى الحالة التي هو فيها، ماذا عليك أن تفعل؟ لديك ثلاثة خيارات، يمكنك أن ترسله إلى فراشه، وهو في هذه الحال، وتضع رأسه المتسخ الصغير على كيس مخدتك النظيف، ويمكنك أن تقطع

رأسه، وذلك، مؤكّدًا، سيجعلك تتخلص من الطين، ولكنك ستقتله بهذه الطريقة وستفقد ابنك، أو يمكنك أن تدخله إلى الحمام، وتغسل عنه الطين قبل أن تضعه في فراشه لينام)).

ماذا كان يريد أن يقول بهذه القصة؟ كان يسبر فكرة استمرارية الماضي في الكنائس التي بقيت بعد الإصلاحات. قال: لقد قدمت ثلاثة نماذج استمرارية من دون تغيير، أو تغيير من دون استمرارية، أو استمرارية مع بعض التغيير. فالكنيسة الكاثوليكية استمرت بالمسيحية التي امتدت منذ عهد الحواريين، وحين جاء القرن السادس عشر كانت قد اكتسبت وجهًا متسخًا يشبه وجه ذلك الولد الصغير، لكن تحت الأوساخ كان يكمن ما كان موجودًا منذ البداية: مسيحي، لكن، لم يجرِ إصلاحه.

أما فيما يخص المتطرفين من المصلحين فلم تعد العقيدة

الكاثوليكية، في رأيهم، تمت بأي صلة للمسيحية. فالبابا لا يمتلك وجهًا متسخًا حسب، بل هو ضد المسيح أيضًا، شخص ادعى أنه يمثل المسيح في حين هو عدوٌ له. وكأنما الكاثوليكية عميلٌ سريٌّ أجنبي أصبح رئيسًا لدولة غرضه تدميرها من الداخل. لقد عبرت إلى الجانب المظلم، لذا وجب قطع رأسها الشرير.

وفي الوسط وجدَ المصلحون الذين قالوا إن كل ما يبغون فعله هو غسل وجه الكنيسة. لم يرغبوا في التخلص منها، بل التخلص من الأوساخ التي شوّهتها فحسب. ومن بين الكنائس جميعًا التي انبثقت في فترة الإصلاح فإن أكثر كنيسة قدرت الحل الوسط، وادعت أنها هى من تبنته كانت الكنيسة في إنجلترا.

هذه الكنيسة قالت إن نزاعها لم يكن مع الكنيسة الكاثوليكية على الإطلاق، بل كان مع واحد من أساقفتها، هو أسقف روما. فبأي حق يتدخل الأسقف الإيطالي في شؤون دولة أخرى؟ ادعاؤُهُ أن لديه سلطة، ونفوذًا على العالم كله لم يكونا جزءاَ من طابع الكنيسة الأصلية. فسيطرته على السلطة سبّبَ انقسامًا كبيرًا بين الكنيسة الأرثوذوكسية في الشرق، والكنيسة الكاثوليكية في الغرب، وإن استمر على حيله القديمة، ولم يكن حذرًا فسيكون هناك انقسام آخر.

ولكن كان هناك جانبٌ آخر للقصة. هذا الجانب متعلق بصعوبات الزواج التي واجهت ملك إنجلترا أكثر من تعلقه بطموح أسقف روما. فاسمُ الملك هنري الثامن كان مشهورًا بزوجاته الست، ولكي نفهم أصل الموضوع وكيف وصل إلى هنا

فإنّ علينا أن نعود نحو أربعين سنة قبل ولادة الملك هنري الثامن.

ولد هنري في الثامن والعشرين من يونيو عام 1491، بعد أربع سنوات من انتهاء سلسلة من الحروب دامت سبعة وثلاثين عاماً تمزقت خلالها أوصال إنجلترا. بدأت الحروب عام 1455 واشتعلت إلى أن قامت معركة بوسورث عام 1485 التي أنهت الصراع بعد انتصار هنري تودور في المعركة، حينها جرى تتويجهُ ملكاَ وهو الملك هنري الثامن. وأخيرًا عمَ السلام! غير أن ملوك القرون الوسطى لا ينامون مطمئني الجانب حتى في السلم. وهذا ما عبّر عنه هنا وليم شكسبير، الكاتب المسرحى

الإنجليزي الكبير وتلميذ النظام المَلكي، (لا يَذُوقُ طعمَ النوم من وضعَ على رأسهِ التاج).

ترعرع ملك المستقبل هنري الثامن مع القصص التي تتحدث عن صراعات أدت إلى تتويج أبيه على عرش إنجلترا. وكان قد تعلم كيف على الملك أن يكون يقظًا لأصغر تهديد على عرشه، ولكن لحسن الحظ، لم يكن هذا ذا أهمية تذكر عليه. كان لهنري الصغير أخٌ أكبر اسمه آرثر كان سيصبح ملكاً بعد وفاة هنري السابع. كان هنري الصغير، ذكيّاً ورياضياً، فتُرِكوه يدرس بجد، ويلعب بجد. ولكن تغيَّرَ كل ذلك حين بلغ العاشرة من العمر، إذ توفيَ أخوه آرثر، تاركًا خلفه أرملته كاثرين أميرة أراغون، وهي أميرة إسبانية. فأصبحَ الآن هنري وريث عرش أبيه، العرش الذي دافع والدهُ عنه لحمايته والحفاظ عليه. وحين

توفيَ هنري السابع عام 1509 خلفه ابنه هنري الثامن البالغ من العمر السابعة عشرة وبقيَ على العرش ثمانيةً وثلاثين عاماً.

يبدأ الجزء من قصتنا حين يقرر هنري الثامن، بعد توليه عرش إنجلترا، الزواج من أرملة أخيه آرثر كاثرين أميرة أراغون التي تكبُرُهُ بخمس سنوات. كان أمرًا غير مألوف إذ يبدو أن الكتاب المقدس يحرمهُ. فقد حرّمَ كتاب العهد القديم في سفر اللاويين، بوضوح، زواج الرجل من أرملة أخيه ونصَّ: «إن زواج الرجل من زوجة أخيه عمل نجس: فقد كشفَ عن عورة أخيه» – وهنا يأتي ما هو سيئ حقًا – (ولن يُنجبا أولاداَ). ولكى يمضى هنري قُدُمًا في زواجه وجب عليه الحصول على

إعفاء خاص من البابا، وقد فعل وتزوج من كاثرين. ويبدو أن سعادة هنري في هذا الوقت طغت على قبوله سلطة البابا التي عمّت مملكة إنجلترا.

وبدأت المشاكل حين لم تُنجب كاثرين ذكرًا ووريثًا للعرش، وتسبب هذا في قلقٍ حقيقي لهنري، كما كان سيحدث لأي ملك يعيش في العصور الوسطى. فضمان إنجاب وريث ذكر كان فعلاً متوقعًا من ملكات تلك الفترة. وقد فشلت كاثرين في المهمة، وانجبت له ابنة تدعى ماري، وليس ابنًا. بيد أن ما يهم هو الأولاد الذكور. كان هنري يعرف الكتاب المقدس، في الحقيقة كان يميل قليلاً إلى الفكر اللاهوتي، واستطاع القراءة باللاتينية واليونانية وآمن إيمانًا عميقًا بالكاثوليكية. كان يكره حديث الإصلاحات الذي يأتي من أوربا، فقام بكتابة كتيب هاجم فيه

نظرية اللاهوت اللوثرية ما جعله يحظى بلقب خاص من البابا ليو العاشر بوصفه مدافعًا عن الدين، وهو اللقبُ الذي ما زالت ملكة المملكة المتحدة تدعي استحقاقها له إلى يومنا هذا. فإذا نظرت إلى عملة الباوند سترى الحرفين فاء ودال (FD) بعد اسم الملكة الذي يقوم مقام الكلمة اللاتينية (Fidei Defensor)، وتعني المدافع عن الدين.

كان هنري الثامن أي شيء آخر، لكنه قطعًا لم يكن بروتستانتيًا، ولم يكن يريد كنيسة جديدة في إنجلترا. كان يريد زوجة تُنجب له ابنًا. والحل بسيط، إذ أعطاه البابا إعفاءً خاصًا للزواج من كاثرين بغض النظر عما ينص عليه الكتاب المقدس. وحقيقة

عدم قدرة كاثرين على إنجاب ولد ذكر يُثبت أن ما كان على البابا أبدًا أن يمنحه موافقته منذ البداية. ماذا نصّت تلك الفقرة في سفر اللاويين؟ (ولن يُنجبا أولادًا). وبما أن البنات لا يدخلن في الحسبان، فقد ظن هنري أنه بالفعل لا أولاد له، فكان على البابا أن يُلغي الزواج، أي، يُعلن أنه لم يكن أبدا زواجاُ صحيحًا.

كانت المهمة صعبة على البابا، فإن وافق على إلغاء الزواج فسيسيئ إلى قريب كاثرين، إمبراطور إسبانيا، وإن رفض سيُغضب ملك إنجلترا. لذا لم يفعل شيئًا، على أمل أن يحدث أمرٌ ما يخرجه من هذه الورطة.

الذي قلبَ الموضوع رأسًا على عقب هو دخول امرأة أخرى إلى حياة هنري، آن بولين، واحدة من السيدات اللائي كن ينتظرن أن يصبحن من حاشية الملكة كاثرين. أقدم هنري على الزواج من آن سرًا في عام 1533، بدافع قناعته أن اللعنة قد

حلت عليه لزواجه من زوجة أخيه المتوفى، وبدافع حبه لها، وفي عام 1534، وبعد أن أقنع مستشاريه باستخراج نموذج من التأريخ، أعلن نفسه الحاكم الأعلى للكنيسة في إنجلترا، وأول ما قام به مستخدمًا سلطته الجديدة على الكنيسة هو إلغاء زواجه من كاثرين، واكتملَ بذلك الانفصال عن كنيسة روما.

الأمر الذي يجب ملاحظته هنا، هو أن الانفصال لم يحدث بسبب مطالبة البروتستانت بكنيسة جديدة، بل بسبب مطالبة ملك إنجلترا بزوجة جديدة. وطبعًا، كان هناك بروتستانت في إنجلترا. كان أحدهم ثوماس كرومويل، وهو رئيس المجموعة

التي تُصلح ما يفسدهُ الملك، مع ذلك فمن غير المحتمل أن يكون الملك على علم بتعاطفه مع البروتستانت. ومن بين هذه الظروف المتشابكة هناك، انبثقت الكنيسة الإنجليزية التي ادعت أنها تمثل كلّاً من الكاثوليكية والبروتستانتية على حد سواء، وعلى الرغم من تماثلها معهما إلّا أنها كانت مختلفة. فقد أبقت على الترتيب القديم للأساقفة، والقساوسة، والشمامسة وادعت أنهم ما زالوا ضمن الخلافة الرسولية؛ وأبقت على معظم الأعياد في التقويم القديم وعلى الصيام، وتم حفظ ذلك كله في كتاب جديد للصلاة المشتركة يسمح للإنجليز بممارسة العبادة في نسخة جميلة للغتهم هم. لم تكن كنيسة جديدة أو حتى كنيسة من نوع مختلف، كانت الكنيسة الكاثوليكية القديمة بوجه نظيف مشرق.

على أية حال، ذلك ما كانت ترغب الكنيسة في وصف

نفسها به، على الرغم من أن أصولها كانت أبعد ما تكون عن النظافة المشرقة. إذًا هي السياسة الملكية أكثر منها الإصلاح الديني الذي فصل إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية القديمة. غير أن الإصلاحات الإنجليزية وضّحتْ جانبًا من الدين علينا أن نفكر فيه: وهي الطريقة التي أصبحَ فيها الدينُ متداخلًا تداخلًا لا يمكن تجنبه مع السياسات الإنسانية. كلمة (سياسة) جاءت من الكلمة اليونانية (المدينة)، وكلمة المدينة في اليونانية هو مصطلح مصغر يشير إلى الطريقة التي يُنظم بها البشر حياتهم العامة، مع كل توتراتهم واختلافاتهم، فالسياسة تجتاح كل شيء، من المشادة في ساحة المدرسة إلى المناظرات في الأمم المتحدة.

كان الدين منذ البداية جزءًا من خليط سياسي. ويمكن القول إنّ العلاقة بين الله، والإنسانية نفسها هي نوع من السياسة، بما أنها محاولة لمعرفة ماهية العلاقة بين كل طرف والآخر. فالدين ومنذ البداية كان وما زال جزءاً من السياسة التي تحكم الأرض. فمن الواضح أن السياسة تختلط مع الدين، مثل الخلاف حول من يجب أن يدير الدين، وكيف يجري اختياره للقيام بذلك.

غير أن أمورًا خطيرة تحدث حقًا عندما يصبح الدين سلاحًا في النزاع بين القوى السياسية المتنافسة التي تدعي أن الله إلى جانبها مهما كان موضوع النزاع. لهذا علينا أن ننظر إلى الإصلاحات بوصفها حركة يستحيل فصل الدين فيها عن السياسة في ذلك الوقت، خصوصًا في إنجلترا. فلحماية مملكته احتاج هنري إلى الطلاق، وإن لم يُرد البابا أو لم يستطع تحقيق ذلك له، فكان سيجد

شخصًا آخر ليتمم له الأمر. ولذلك انفصل عن كنيسة روما، وانبثقت الكنيسة الإنجليزية. وعلى الرغم من أن ظهورها جاء أصلا تسوية سياسية، غير أنها لم تر نفسها على أنها حل وسط بين طرفين مُتطرفين. كانت ما تزال كنيسة كاثوليكية، لكن بوجه أكثر نظافةً وإشراقًا.

حصل هنري على الطلاق لكن هذا لم يُسعده، فلم تُنجب له آن بولين صبيًا هي الأخرى، وأنجبت له ابنة. إذًا فقد استمرت اللعنة. وقام هنري بإعدام آن بتهمة الزنا الملفقة، ثم تزوجَ جين سيمور، التى أنجبت له الولد الذي كان بانتظاره، وسمّاه إدوارد.

وحين توفي هنري عام 1547 خلفه إدوارد في الحكم وكان يبلغ من العمر تسع سنوات.

خلال فترة حكم إدوارد القصيرة كانت كنيسة إنجلترا موحدة، ولكن حين وفاته عام 1553 وتسلّم ماري ابنة كاثرين أميرة أراغون الحكم تأرجحت سياسة إنجلترا الدينية إلى الجانب الآخر. إذ عادت الكنيسة الكاثوليكية إلى مركزها السابق، وانتقمت ماري من هؤلاء الذين جعلوا حياة أمها تعيسة. كانت تضطهد البروتستانت بحماس وقسوة، فقد قامت بحرق الكثير منهم أحياءً بتهمة الهرطقة، فاستحقت، بجدارة، لقب ماري الدموية.

توفيت ماري عام 1558 وتأرجح البندول مرة أخرى. فقد خلفتها اليزابيث ابنة آن بولين، التي تولت الحكم إلى عام 1601 وأدخلت السلام، والاستقرار إلى العالم. ولسخرية القدر فإن

ابنة هنري الثامن التي لم يُرغب فيها أصبحت واحدة من أكثر الملوك الذين عرفتهم إنجلترا حكمةً، فقد عملت على استقرار الدولة، وأكملت إصلاحات الكنيسة. وكان بإمكانها أن تكون قاسية مثل قسوة أبيها أيضًا، ففي عام 1587 قامت بقطع رأس ابنة خالها ماري ملكة اسكتلندا بتهمة التآمر عليها، وكان على السيّاف أن يضرب عنق ماري بالفأس ثلاث مرات ليفصله عن جسدها، نهاية كئيبة لحياةٍ تعيسة. ولنفهم لماذا حدث هذا علينا أن نذهب إلى الشمال، إلى اسكتلندا حيث أخذت الإصلاحات منحى آخر تمامًا.

الفصل الحادي والثلاثون



قطع رأس الوحش

كان اعتلاء منصب الملكة في القرون الوسطى في أوربا أمرًا محفوفًا بالمخاطر، إذ كان من وظائف الملكة إقامة تحالفات مفتعلة بين الدول، وإنجاب الأطفال من رجال قد لا يكنون لها أي مشاعر حب. هذا ما خَبَرَتهُ كاثرين، ملكة أراغون وزوجة الملك هنري الثامن الأولى. كاثرين، في الأقل، ماتت على فراشها، في

حين أن الملكة ماري، وهي ملكة اسكتلندا وابنة أخت هنري، ماتت على خشبة الجلاد إذ كانت ضحية الصراعات الدينية التي اندلعت في عصرها. ولدت ماري في اسكتلندا عام 1542 من أبيها الملك جيمس الخامس، وأمها الفرنسية ماري ملكة جيوس. فقدت من حولها في عمر مبكر، فقد توفيَ والدُها بعد بضعة أسابيع من ولادتها وأصبحت، فعليًا، ملكة اسكتلندا.

عندما بلغت الخامسة من عمرها تم إرسالها إلى فرنسا فتزوجت

وهي في الخامسة عشرة من فرانسيس، وريث العرش البالغ من العمر أربعينَ عامًا.

أصبح والد زوج ماري، الملك هنري الثاني، ملك فرنسا

بمثابة أبيها الذي لم تعرفه قط. واصلت ماري دراستها بجدية

وكانت تحب الحيوانات، وخاصة الكلاب، فعاشت حياة مريحة،

آمنة حتى بدأت رحلتها مع الفقدان مرة أخرى. إذ توفيَ والد

زوجها سنة 1559 وأصبح زوجها الملك فرانسيس الثاني ملكًا

على فرنسا وهي عقيلة الملك. بعد سنة توفيت أمها وصية العرش

على اسكتلندا، وتبعها بستة أشهر زوجها فرانسيس. وأصبحت

ماري وهي في الثامنة عشرة من عمرها يتيمة وأرملة. وما ساعدها

في الحفاظ على رباطة جأشها، وتخطي أحزانها إيمانُها بالمذهب

المسيحي الكاثوليكي الذي تعلمته منذ الصغر واصطحبته معها

حين تم إعادتها إلى اسكتلندا لتصبح ملكة عليها. ولكن، خلال السنين التي كانت فيها ماري بعيدة عن اسكتلندا، كانت قد تحولت اسكتلندا إلى المذهب البروتستانتي، فكيف سيتم استقبال البلاد لملكته الكاثوليكية؟

وصلتْ ماري إلى مسقط رأسها، اسكتلندا، في التاسع عشر من أغسطس سنة 1561. وفي الوقت الذي كانت تستعد فيه لقضاء ليلتها الأولى في قصرها الواقع في الجزء السفلي من الشارع الملكي في مدينة أدنبرغ سمعت غناءً قادمًا من خارج شباك القصر. لم يكن حفلاً ترحيبيًا مفعمًا ببعض الأغاني الاسكتلندية

القديمة لمناسبة عودتها إلى الوطن، بل كان مجموعة من المعارضين يحذرونها، ببعض المزامير الاسكتلندية الحديثة: راقبي خطواتك، وكوني على حذر – هذه كانت الرسالة. قد تكون فرنسا، الحليف القديم لإسكتلندا، ما زالت كاثوليكية غير أن اسكتلندا الآن بروتستانتية فكوني على حذر أيتها الملكة الكاثوليكية! كان هذا نذير شؤم للكثير من المصاعب التي ستواجه الملكة الصغيرة. قائد مجموعة المغنين المعارضين كان رجلاً قصير القامةِ، ذا لحيةٍ طويلة اسمه جون نوكس.

حدث الإصلاح وتحول المجتمع الاسكتلندي من المذهب الكاثوليكي إلى المذهب البروتستانتي في وقت متأخر. وكان قد بدأ حين عاد شابٌ يُدعى باترك هاملتون من أوربا حيث كان يدرس مصطحبًا معه أفكار المذهب البروتستانتي من هناك.

ما زال بإمكانك رؤية المكان في شارع أندروز حيث تقع الكنيسة الكاثوليكية التي تم فيها تنفيذ حكم الإعدام حرقًا حتى الموت في باترك هاملتون بسبب معتقداته عام 1528. ظل هاملتون يحترق ستَّ ساعات حتى توفي في عملية تنفيذ فاشلة لإعدامه. لكن كان مقتل الشهيد الثاني في شارع أندروز، جورج وشارت، هو الذي أشعل الفتيل، وأطاح أخيرًا بالكنيسة الكاثوليكية في اسكتلندا. كان وشارت رجلاً طيبًا يُعطي شراشف سريره إلى الفقراء في مدينة كيمبرج حين كان طالبًا هناك. غير أن طيبته هذه لم تمنع الكنيسة الكاثوليكية من القبض عليه بسبب أفكاره البروتستانتية. وفي عام 1546 أُحرق، هو الآخر، حتى الموت.

من شباكه في القلعة الواقعة في شارع أندروز راقب الكاردينال

بيتون، رئيس الكنيسة الكاثوليكية في اسكتلندا عملية تنفيذ

الإعدام، ربما أراد التحقق من كفاءة تنفيذ عملية الإعدام،

ففي هذه المرة تأكدوا من ملء جيوب وشارت بالبارود حتى
يحترق أسرع.

بعد أشهرٍ قليلة من موت وشارت، اقتحمت القلعة مجموعة

من البروتستانت، وقامت بطعن الكاردينال بيتون حتى الموت

انتقامًا منه. التحق بهم آخرون وتحصنوا داخل القلعة، وكان

أحدهم جون نوكس الرجل الذي التقينا به خارج شباك قصر

الملكة ماري في أدنبرغ. كان جون في السابق قسيسًا كاثوليكيًا،

وقد تأثرَ تأثرًا كبيرًا بأفكار جورج وشارت البروتستانتية.

كان نوكس قد اطلع على الإنجيل مؤخرًا، وجذب انتباهه

بشدة كتابان، كما تجذب انتباهنا عناوين الصحف العريضة

هذه الأيام، كتاب دانيال في العهد القديم، وكتاب الوحي في العهد الحديث. جرى كتابة (دانيال) في خلال اضطهاد الملك أنتيونوكس لبني إسرائيل نحو 167 قبل الميلاد، أما (الوحي) فقد تمت كتابته في خلال اضطهاد الإمبراطور دوميتيان لكنيسة مسيحية حديثة نهاية القرن الأول بعد الميلاد. كلا الكتابين كُتِبَ بلغة رمزية لا يفهمها إلا المضطهَدون كي يقويهم على الصمود ضد أعدائهم. «الوضع سيئ، لكنه الظلام الدامس قبل بزوغ الفجر، وسينتصرون في المعركة الأخيرة من الحرب. سيأتي الرب ليخلص الأرض من الوحش الذي حاول أن يلتهم أولاده».

وارتعدت فرائص نوكس، فالكتابان لا يتحدثان عن الماضي بل عما يحدث في اسكتلندا الآن! الكنيسة الكاثوليكية تتمثل بالملك انتيونوكس! وتتمثل بالإمبراطور دوميتيان! المهمة لم تكن إعادة تشكيل الكنيسة الكاثوليكية، بل تدميرها وإبدالها بشيء آخر مختلف تمامًا.

وَعَظَ في خطبة ألقاها، في شارع اندروز، مقتبسًا اللغة المشفّرة من كتاب دانيال:

« القرون العشرة التي ستخرج من هذه المملكة تتمثل في الملوك العشرة الذين سيظهرون: وسيظهر عشرة آخرون من بعدهم... وسيتحدث بكلمات عظيمة ضد أعتى ملكٍ منهم... وسيرتدي لباسَ أعلى مراتب القسيسين... وسيخضعون بين يديه في نهاية المطاف، وفي أوقات عديدة حتى يفنى الزمن ».

ألم يكن هذا يحدث لهم حتى، وهو يتحدث؟

ومن ثم انتقل يتكلم عن الوحش من كتاب الوحي:

((رأيت الوحش، وملوك الأرض، وجيوشهم... وقد قُبِضَ على الوحش ومعه الرسول المزيف الذي طوّع قبله المعجزات... هما الاثنان أُلقِيا حيّيْنِ في بحيرة من النار تحترق بالكبريت...)).

فيما يخص نوكس، لم يكن هذا الحديث يدور عما حصل في الماضي السحيق في إسرائيل، لكنه يتحدث عما يحصل اليوم في شارع أندروز. ستقوم القيامة على اسكتلندا، وعلى الناس اختيار أحد الطرفين، فلن يكون هناك حلّ وسط، فإما أن تقف مع الرب، أو مع الوحش الكاثوليكي الذي هو في موقفه ضد الرب. ليس هناك موقف وسط بينهما، (لا للوسطية) هذه أول عبارة نسمعها معبرة عن رأي نوكس، يرددها بلهجته الاسكتلندية. ولكنها قد تكون الأخيرة كذلك.

في عام 1547 حين كانت تدور هذه الأحداث كلّها كانت اسكتلندا لم تزل دولة كاثوليكية بعد، تحكمها الوصية على العرش ماري من مقاطعة غويز، وهي والدة ماري ملكة اسكتلندا. رأت ماري الأم أن من يريدون تشكيل المذهب البروتستانتي

سيشكلون تهديدًا على تولي ابنتها العرش، لذلك طلبت العون من فرنسا حين كانت في حاجة إلى المساعدة. وصل الفرنسيون بالسفن وفكّوا الحصار المقام في شارع أندروز، وألقي القبض على نوكس، وحُكِمَ عليه بسنتين يقضيهما على السفن الشراعية الفرنسية. كان طول السفن الشراعية نحو 150 قدمًا وعرضها 30 قدمًا، وكانت مزودة بالأشرعة، لكن حين تهدأ حركة الرياح تعتمد في سيرها على المُجَذّفين، وهم ستة رجال في كل جهة مقيدون بالمجاذيف، حيث يأكلون وينامون ويقضون حاجتهم. بعد نحو سنتين قضاهما نوكس على السفن الشراعية، أطلق سراحه، لكنه قرر أن لا يعود إلى اسكتلندا التى تدعمها فرنسا.

فقضى بضعًا من السنين القادمة في خدمة القضية البروتستانتية في إنجلترا. وعندما تفجرت الأوضاع خلال الفترة الدموية التي حكمت فيها ماري البلاد هرب إلى جنيف حيث يسيطر عليها البروتستانت.

عاد نوكس إلى اسكتلندا في شهر مايو من عام 1559 حين بدأت القضية البروتستانتية توشك على النجاح. ومرة أخرى وضعت الخطبة التي ألقاها نوكس اللمسات الأخيرة على نهاية مرحلة الصراع. كانت الوصية على العرش ما زالت تحارب لتُبقي على كاثوليكية اسكتلندا من أجل ابنتها ماري. وعندما حاولت منع الوعّاظ البروتستانت من الوعظ، جاء نوكس إلى مقاطعة بيرث ليستمر في الوعظ. من وجهة نظر نوكس، لم تكن الصور والتماثيل في الكنائس الكاثوليكية مجرد فن خالص، بل كانت

تجديفًا، وإهانةً للربّ، ودليلاً آخر على أن الكاثوليكية باعت

نفسها للوحش. كان نوكس مهووسًا بالأصنام مثلما كان النبي

محمد، للسبب نفسه. فالأصنام تُثير الغيرة على الاله الواحد

الحقيقي الذي أدانهم في الوصية الثانية من الوصايا العشر.

أثارت خطبةُ نوكس شغبًا أدى إلى قيام الناس بتفريغ

الكنيسة من صورها، وتهديم مذابحها، وتحطيم تماثيلها. كان هذا

بداية طقوس التدمير التي أفرغت اسكتلندا من أغلب ذخائرها

الفنية المتراكمة طيلة تاريخها الكاثوليكي الطويل، ولم يبق منه

إلّا القليل. يتعبّد معتنقو المذهب البروتستانتي في أبنية يعمّها

البياض، خالية من الصور التى تصرف الانتباه عن الإصغاء إلى

كلام الرب المكتوب في الإنجيل، فالإنجيل هو المصدر الوحيد الموثوق به لاستثارة العواطف، وليس الصور والتماثيل.

يبدو أن الصراع بين المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي كان مهيَّأً ليستمر في اسكتلندا، إلى أن توقف بصورةٍ مفاجئة، إذ توفيت الوصية على العرش، وعقد نبلاء اسكتلندا اتفاقًا، فأصبحت اسكتلندا دولة بروتستانتية حتى النخاع، وهذا ما أراده نوكس، لكنها سمحت لماري ابنة الوصية على العرش من العودة ملكةً على اسكتلندا مع بقائها على المذهب الكاثوليكي. كان بإمكانها أن تستمع إلى الطقوس الكاثوليكية في الخفاء، ولكن في العلن عليها أن تحكم اسكتلندا على أنها دولة بروتستانتية. كان حلاً سياسيًا وسطيًا، وكما مر علينا سابقًا فإن نوكس لا يحب الحلول الوسط، وأصبح، الآن، المسؤولَ عن شارع جيلز الذي يُبعد

نصف ميل باتجاه أعلى التل عن قصر هوليرود، ولم يكن مسرورًا بعودة ماري الكاثوليكية إلى اسكتلندا بوصفها ملكة، وكان يقف خارج شباك قصرها في يوم عودتها يغني مزاميرَ ضدها.

غير أنّه كان موضوعًا محسومًا لكلٍ منهما، إذ استمر نوكس على الوعظ معارضًا الحلول الوسط التي توصّل إليها نبلاء اسكتلندا في اتفاقهم مع ماري ملكة اسكتلندا، وكان خائفًا من أن تجد الملكة طريقة لتهريب الوحش البابوي إلى داخل المعبد الاسكتلندي البروتستاني الطاهر. أما الملكة فقد كانت امرأة شابة وجدت عزاءها في ممارسة معتقدها الكاثوليكي، ثم احتارت، وصُدمت بذلك الكم من الكره الذي يضمره لها هذا الرجل،

وهو ينشد المزامير ضدها بصورة مستمرة. تلكم اللقاءات بين جون نوكس وماري ملكة اسكتلندا تمثل ما يمكن أن يُثيره الدين من صراع بين أشخاص يمكن وصفهم بأنهم جيدون إلى حدّ ما. والحال لايمكن وصف نوكس بالرجل السيئ؛ فهو كان قد عانى بسبب معتقده، لكنه كان يرى كل شيء بالأبيض، والأسود، لا للّونِ الرماديّ، لا للحلول الوسط، لا للوسطية.

أما عن ماري فقد شاء لها القدر أن تولد، وفي عروقها يسري الدم الملكي، ثم لطمها بالفقدان، فأصبحت متعطشة للحب، ما دفعها للصراع مع الدين الذي لذعها، لكن لم يفز، أبدًا، بقلبها. في خضم حاجتها للعاطفة ولمن يرعاها ويدللها، اتخذت قرارات خاطئة، ففي عام 1565 وقد بلغت الثانية والعشرين من عمرها تزوجت من قريبها الكاثوليكي اللورد دارنلي. كان

رجلاً سيئ المزاج، غير محبوب، وسكير. كان نوكس يعظ ضد هذا الزواج. في عام 1566 أنجبت ماري طفلاً من دارنلي أسمته جيمس، الذي سيصبح في ما بعد جيمس السادس ملكا على اسكتلندا وجيمس الأول ملكا على إنجلترا، وسيوحد يوما ما المملكتين. قُتِلَ دارنلي في عام 1567، فتزوجت ماري ثانية باللورد بوثويل، وكان محتالاً، هو الآخر، فقد بدا ودودًا، ثم هجرها في ما بعد. زيجاتها الكارثية المتواصلة كانت أمرًا يصعب على نبلاء اسكتلندا احتماله، وهددت استقرار المملكة لذلك جرى القبض عليها، وأُجبرت على التنازل عن العرش لابنها جيمس.

وفُتحت الستارة على آخر فصل من فصول حياتها المأساوية حين هربت إلى إنجلترا واثقة من أن ابنة خالها الملكة اليزابيث سوف تساعدها. لكنها، مرة أخرى، أخطأت في حكمها. فقد كان وجود ماري يعد بمثابة تهديد لإليزابيث، خصوصًا أنها حققت نوعًا من الاستقرار الديني في إنجلترا، واستطاعت السيطرة بعناية فائقة على التداعيات السياسية للإصلاح. صحيح أنها لم تقم بإعدام أتباع المذهب الكاثوليكي بالطريقة التي أعدمت فيها أختها ماري الدموية أتباع المذهب البروتستانتي، لكن التوازن كان متقلقلاً وملكة اسكتلندا ماري قد تهدده، ومن الممكن أن تصبح مركزًا لطموح أتباع المذهب الكاثوليكي واستيائهم، عبر إثارة التساؤل مثل لماذا لا يمكننا تنصيب ماري على عرش إنجلترا، وإعادتها إلى الكاثوليكية؟ فهي الملكة الشرعية. ولأن

اليزابيث هي ابنة آن بولين، وهناك الكثير ممن لا يعتقدون بأن زواج هنري من آن كان صالحًا، وهي قضية يمكن رفعها ضد اليزابيث، ولصالح ماري كونها الملكة الشرعية لإنجلترا.

وعليه وضعت اليزابيث ماري تحت الحراسة في سلسلة من البيوت الريفية في إنجلترا، وعلى مدى تسع عشرة سنة قادمة. غير أنها حين سمعت أن ماري من الممكن أن تتآمر عليها لتأخذ مكانها، وتتربع على عرش إنجلترا تحركت ضدها، وجرى قطع رأس ماري عام 1587. في يوم إعدامها، أصرت ماري على ارتداء اللون الأحمر، وهو لون شهداء المذهب الكاثوليكي. احتاج التنفيذ إلى ضربات عدة ليتم فصل رأسها عن جسدها،

وحين رفع الجلاد رأسها في بادرة معتادة ليُثبت موتها، لم يعلق في يده سوى الباروكة وبقي رأس ماري في السلة.

استمرت الحروب الدينية في أوربا لقرون، الكاثوليك ضد البروتستانت، والبروتستانت ضد بعضهم البعض. ولكن بين آونةٍ وأخرى، ومن خلال ضباب الحرب تنبثق جماعات تسمو على الكراهية، والصراع السياسي الذي ولّدهُ الإصلاح. إحدى هذه الجماعات اكتسبت لقبًا أصبحت مشهورةً به، هو كويكر. وسنتابعهم في الفصل القادم الذي سيأخذنا، هذه المرة، عبر المحيط الأطلسي إلى أمريكا.

الفصل الثاني والثلاثون



الأصدقاء

من الخطأ افتراض أن حديث الله، وتردد صوته في عقل الإنسان ستكون نتيجتهما خارقة حتمًا، مثل منزلة ملاحم هوليود، ونزوح بني إسرائيل من مصر، أو رحلة الرسول محمد من مكة، أو هجوم مارتن لوثر على صكوك الغفران في وتنبرغ. في بعض الأحيان يأمر الصوت القيام بعمل شخصي جدًا من النادر جداَ، بل من المفاجئ أن يتذكرهُ أحد. مع ذلك قد يغيّر التاريخ.

هذا كان هو الحال لجورج فوكس، أحد أكثر الشخصيات جاذبيةً في تاريخ الدين. ففي القرن السابع عشر في إنجلترا، كان الأقوياء في الكنيسة، وفي المجتمع يُسبغون على أنفسهم المظاهر، والنعم، ويُحبّون الألقاب، والأثواب الفاخرة التي تأتي معها، ويصرون على انحناء مرؤوسيهم لهم على ركبهم، وخلع

قبعاتهم تقديساً لهم. وتؤكد الألقاب التي منحوها لأنفسهم الهوة الشاسعة بين منزلتهم العليا، ومنزلة القطيع من العامة؛ فألقاب مثل قداستكم، وسعادتكم، وسموكم، وفخامتكم كلها أشكال لعنوانات تضعهم في مراتب فوق الناس العاديين الذين يهرولون كالنمل تحت أقدامهم. كان هذا السلوك بين المسيحيين مفاجئًا، وغير مفاجئ في آنٍ معًا. فقد كان مفاجئاً لأنه ضد تعاليم يسوع الواضحة القائلة إن إعلاء الذات ليس له مكان بين حوارييه. ولكنه كان غير مفاجئ لأنه كان، حينها، الطريقةَ السائدة في العالم، والدين عادةً يتبع العالم في طريقته، ولا يهم كم من الأرواب المقدسة يختبئ تحتها.

في البداية حين حدثت الإصلاحات في أوربا في القرنين الخامس عشر، والسادس عشر ظهرت وكأنها قادرة على أن تتحدى

هذه الغطرسة كلها، وقد فعلت إلى حد ما. ولكن الكنائس التي رفضت استبداد روما وجدت طرقًا أخرى لفرض تفوقها. فهناك طائفة استحقت لقب (البيوريتاني التطهّري) لهذا السبب. وكانت هذه الطائفة تعتقد أنها، وحدها، المسيحية بحق، فهم الأنقياء. ومن بين كل أشكال الاستعلاء التي اخترعها الغرور البشري فإن الاستعلاء الديني هو أسوأها، ولا يُطاق على الإطلاق.

فادعاءات الاستعلاء الديني، أو الاجتماعي لم يكن لها وقعٌ كبير على جورج فوكس. فصوت الإله أوحى لهُ أن لا يرفع قبعتَهُ لأحد أعلى، أو أوطأ منزلة منه، أو يستخدم أشكالاً خاصة من الألقاب ينادي بها من هم أعلى منه منزلة. كان يقول (هو)

أو (أنت) إلى كل شخص، سواء أكان غنيًا أم فقيرًا، عظيمًا أم بسيطًا. ولأنه لم يكن ينحني، أو يبدي علامات الاحترام والولاء لأيِ مخلوق فقد كان يَزجُّه في السجن، باستمرار، هؤلاء الغاضبون لرفضه الاعتراف بتفوقهم، واستعلائهم على الآخرين. وفي إحدى القضايا حين جُلبَ إلى المحكمة بتهمة الإهانة أعلن أن السلطة الوحيدة التي يرتجف أمامها هي سلطة الربّ، لذلك أسقط عنه القاضي التهمة ساخرًا باعتباره من جماعة الكويكرز. فقد كان أتباع فوكس يسمون أنفسهم بمجتمع الاصدقاء، ولكن سخرية القاضي وإهانته علقتا بهم، وأصبحوا معروفين بجماعة الكويكرز، لقب ما زالوا يحملونه إلى يومنا هذا.

ولد جورج فوكس في ليسسترشاير في إنجلترا عام 1624، كان أبوه حائكًا، وهو نفسهُ قد تم تدريبه ليكون صانعًا للأحذية.

ومثله مثل العديد من الرسل الذين سبقوه، حين كان شابًا يافعًا غادر وطنهُ بحثًا عن التنوير إذ كان زمن الاضطراب الديني، والسوق الديني صاخبًا مليئًا بصراخ باعة الدين يصيحون معلنين فرادة وسمهم من الإيمان. ورغم أنهم جميعًا كانوا يعارضون بعضهم بعضًا، إلّا أنهم يشتركون في أمر واحد، فكلٌّ منهم يَدّعي أن نسخته من المسيحية هي النسخة التي تضمن وصوله إلى الرب، وهذا يعني ضمنيًا أن الوصول إليه يحتاج إلى واسطة، إلى صديق في محكمة يُقدمك.

حين كان فوكس في الرابعة والعشرين، تلقى إلهامًا ظهرَ له من خلاله أن البحث عن شخص يأخذ بيده ليعبر به من خلال

باب يُدخله إلى الحضرة الإلهية، ما هو إلّا مضيعة للوقت. لقد كان يبحث عن الجواب خارج ذاته في حين أنه أقرب إليه من حبل الوريد، فهو لا يحتاج، من أجل وصوله إلى الله، إلى أي من العاملين الذين يضعون أنفسهم حراسًا رسميين على بوابته، كما لا يحتاج إلى قس مخضرم، أو داعية جديد ليدخله إلى حضرة الله، فالباب مفتوحٌ بالفعل وكل ما يحتاج إليه هو السير من خلاله.

لم يكن هناك حاجة إلى كنيسة، أو منزل كنسي كما كان يصفها فوكس، كما أن المظاهر الدينية هي لهوٌ فحسب، سواء أكانت عباءات الكهنة السوداء أم أثواب القساوسة الملونة، وسواء أكانت المراسيم المُبالغ بها للكاثوليكية أم البساطة المفروضة للبروتستانتية. كما لا يحتاج الرجال والنساء إلى مذاهب، أو جداول لما يجب عليهم فعله ليكونوا مؤمنين، ومن المؤكّد أنّهم ليسوا بحاجة إلى

قوة شرطة دينية لتجبرهم على الايمان! فكل ما يحتاجون إليه هو الجلوس بصمت مع بعضهم وانتظار حديث روح القدس في قلوبهم لأن نور الرب متقد بالفعل في داخل كلٌ منهم.

كانت تلك الأفكار، كلّها، أفكارًا ثورية تمامًا، وفهمها يؤدي إلى مسح كل الدين المُنظم. ولكن كان من ضمنها ادعاءٌ صارخٌ يتجاوز الحدّ يقول إن الناس جميعهم سواسية، ذكورًا، وإناثًا، عبيدًا، وأحرارًا! لم تكن الكنيسة، ولا الدولة على استعداد لقبول أفكار جورج فوكس الثورية، غير أن أصدقاءه من الكويكرز بدأوا يعيشونها في حياتهم الخاصة، ودفعوا ثمن ذلك غاليًا. فقد تم زج الآلاف منهم في السجن بسبب إيمانهم، ومات

منهم الكثير في الزنزانات غير أن هذا لم يثنهم أبدًا عن النضال من أجل تحسين حياة الفقراء. في الزمن الصعب، تُشن حملات للمطالبة بعلاج أفضل للسجناء والمصابين بأمراض عقلية، ولكن معارضة الكويكرز للعبودية تلك، هي التي كان لها الأثر الأكبر، والاعمق على مجريات التاريخ، وقد بدأ هذا التأثير في أمريكا.

في بداية القرن السابع عشر، أصبحت أمريكا الشمالية جنة للجماعات الدينية الهاربة من الاضطهاد في أوربا بحثًا عن أرض موعودة أخرى. وبدأ الاجتياح الأوربي الكبير للعالم الجديد، وكانت جماعة الكويكرز الإنكليز من بين القادمين الأوائل. ومن الجدير بالملاحظة أن وليم بن كان من بينهم، وقد قام عام 1682 بتأسيس مستعمرة أصبحت معروفة فيما بعد باسم بنسلفانيا.

غير أن المستوطنين الأوربيين جلبوا معهم إلى أميركا الشمالية

ما هو أكثر من المسيحية، فقد جلبوا معهم أيضًا أحد أعظم الشرور الإنسانية، العبودية. كانت العبودية عملاً وحشيًا قديمًا، ومنتشرًا في كل انحاء العالم، ولكن الاستعمار الأوربي لأمريكا أعطاها دافعاً جديدًا. فقد احتاج المستعمرون إلى أيدٍ عاملة يمكن قيادتها مثل الحيوانات ليلاً ونهارًا إلى حد الإعياء لغرض زراعة ما اكتسبوا من أراضٍ قاحلة، والعبيد هم الأصلح لهذه المهمة، وكان هناك الكثير منهم.

جلبت السفن التي ذرعت ما يُسمى بالممر الأوسط جيئةً وذهابًا الملايين من العبيد من ساحل أفريقيا الغربي للعمل في حقول السكر في جزر الهند الغربية (جزر الكاريبي)، وفي المزارع

في الولايات الجنوبية من أمريكا. مكبّلين بالأصفاد، ومكبوتين في معقلٍ لا هواء فيه، مات الآلافُ من الأفارقة المملوكين في خلال عبورهم المحيط الأطلسي. فإذا كان الجو عاصفًا جدًا فقد يقوم قبطان السفينة بتخفيف حمولتها برمي عبيد مُصفّدين من على متن السفينة إلى الماء، فمن الأفضل إغراق العبيد على تعريض سلامة السفينة للخطر. ولكن كان هذا الحلّ الأخير طبعًا، فقد كان العبيد سلعة ثمينة فمن المهم أخذهم إلى جزر الكاريبي، أو إلى ولايتي كارولاينا الشمالية والجنوبية في أمريكا حيث من الممكن مقايضتهم بسلع أخرى مثل السكر والقطن. وحين حل القرن الثامن عشر سيطر الانجليز على التجارة وجمعوا ثروات هائلة لأسياد العبيد من المسيحيين في اسكتلندا وإنجلترا، وحين عاد هؤلاء التجار المسيحيون في النهاية إلى وطنهم للاستقرار والتقاعد نهائيًا قاموا ببناء قلاع كبيرة ليقضوا بقية حياتهم فيها،

والكثير من هذه القلاع ما زالت إلى الآن تُزيّن الريف الانجليزي. فكيف برر هؤلاء المسيحيون قبولهم بأن يكونوا جزءًا من تجارة شريرة كهذه؟

وكما رأينا بالفعل، فقد عُدَّت العبودية أمرًا مسلمًا به في الكتاب المقدس إذ كانت الأمور تجري على هذه الشاكلة. ولم تكن العبودية متناغمة مع رسالة يسوع، ولكن كان للمسيحيين الأوائل عذر شرعي لعدم فعل أي شيء عن الموضوع، فلم يتوقعوا أن يبقى العالم كما هو عليه، وبالطريقة التي تم فيها تنظيمه لمدة طويلة، لان يسوع سيعود قريبًا لافتتاح مملكة الربّ، وحينها تجري

الأمور على الأرض كما كانت تجري في السماء. وإلى أن يحين ذلك الوقت، على المسيحيين العيش حياة نقية، وأن يمسكوا أنفسهم عن فعل المعاصي استعدادًا للآخرة وليبقى العالم كما هو عليه. لقد لاحظنا بالفعل كيف أن بول أعاد عبدَهُ أونسيمس إلى مالكه فيلمون، وتوسل إليه أن يكون رقيقاً معهُ، وقال له إنه الآن أخٌ مؤمنٌ بيسوع، ولكن لم يكن هناك أبدًا أي اقتراح بأن عليه أن يُحررهُ. فما الهدف إن كان كل شيء عائدًا إلى نهايته على أي حال؟

وفي عام 1688 لا بد من أن المسيحيين قد ادركوا أن يسوع لن يعود، ولا يبدو أنه سيعود في وقت قريب، وحان الوقت بلا ريب لمعالجة شرور العالم بدلاً من انتظار الرب لإصلاحها في نهاية العالم. فيما عدا الأمر المتعلق بالعبودية كان ثمة مشكلة فالكتاب المقدس سجل ماذا قال صوت الرب حين تحدث مع

موسى حول الموضوع:

«عندما تشتري عبدًا يهوديًا، فعليه أن يخدم ست سنوات، وفي السنة السابعة يجب أن ينال حريته من دون مقابل. فإذا كان قد جاء وحده، يذهب وحده، وإن كان متزوجًا، فإن زوجته تذهب معه. وإذا كان سيدُهُ هو من زَوّجّهُ، وأنجبت له زوجته صبيانًا وبناتًا، فالزوجةُ والأولاد لسيّده».

نصح بول، في رسالته إلى الكنيسة في أفسس، العبيدَ المسيحيين بأن يكونوا مطيعين لسيدهم على الأرض (كأنه المسيح نفسه).

كان ذلك واضحًا بما فيه الكفاية. ومَنْ يكونون هم ليعترضوا على ما جاء في الكتاب المقدس؟ حسنًا، في عام 1688 اعترض عليه جماعة الكويكرز، والطريقة التي تبنوها في الاعتراض كان لها تأثير ثوري في كيفية تفسير المسيحية للكتاب المقدس فيما بعد. يؤمن الكويكرز بسلطة النور الداخلي، أو بما يمكننا تسميته بالضمير، وكانوا يعلمون من خلال النور الذي يقودهم أن العبودية خطأ تمامًا. فإذا كان جميع الناس سواسية فمن الخطأ معاملة بعضهم، وكأنهم أقل آدمية، ومجرّد ممتلكات بدلًا من معاملتهم على أنهم أولاد الرب، وإذا كان الكتاب المقدس يقول خلاف ذلك (إذًا الكتاب المقدس على خطأ).

قامت جماعة الكويكرز بما هو أكثر من الاعتراض على تبرير الكتاب المقدس للعبودية، فقد قاموا بكل ما يستطيعون للقضاء

على العبودية نفسها، إذ أنهوا وجودَها في ولاية بنسلفانيا، وساعدوا على تنظيم سكك حديد تحت الأرض لإعانة العبيد على الهروب من جنوب أمريكا الشمالية إلى شمالها، أو إلى كندا ليحصلوا على حريتهم. لقد مرّ على العالم زمنٌ مديد ليلحق بغضب الكويكرز على وجود نظام العبودية في ما يُدعى بالمجتمع المسيحي، فلم يتم حظر العبودية في الإمبراطورية الإنجليزية حتى عام 1833 ولزم الأمر ثلاثين سنة أخرى ليتم حظر العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الأهلية عام 1865.

غير أن جماعة الكويكرز قاموا بما هو أكثر من القضاء على العبودية تقريبًا، فقد أنهوا، أيضًا، القراءةَ الطفولية للكتاب

المقدس من خلال تحكيم الضمائر فيه، فجعلوا من الممكن دراسته مثل أي كتاب آخر، لا بوصفه معبودًا لا يمكن المساس به. عرفوا الفرق بين ما هو صحيح، وبين ما نصَّ عليه الكتابُ المقدّس على أنه صحيح، وبما أنهم كانوا يعتقدون بأن الله هو الذي نبههم إلى هذا الفرق، فهذا يعني أن لديه تحفظات على الكتاب المقدس كذلك! فإذا كان الكتاب المقدس قد أخطأ بخصوص العبودية، فقد يكون أخطأ أيضًا بخصوص خَلق العالم في ستة أيام؟ قد نكون نحن من نقرأهُ بطريقة خاطئة منذ قرون، قد يكون بحاجة إلى أن يُفسّر ويُقرَأ بذكاء، وعمقٍ أكثر وربما علينا أن لا نخاف من تحكيم ضمائرنا في بعض أحكامه.

وبهذه الطرق خطا جماعة الكويكرز خطوة إلى الأمام إلى ما يُعرف الآن بالدراسة النقدية التاريخية للنصوص المقدسة،

وهذا لا يعني، بالضرورة، إلغاء سلطة الرب على الكتاب المقدس، ولكنها محاولة للفصل بين العناصر الإنسانية، وما هو إلهي. كانت العبودية اختراعًا إنسانيًا على غرار القول (أن تحبّ جارك كما تحبّ نفسك) فهذا أمر إلهي. ابحث بنفسك، واستنتج!

قد يكون (مجتمع الأصدقاء) أحد أصغر الطوائف في العالم إلّا أن تأثيره كان كبيرًا، فقد أبقى على ضمير المسيحية، وجلب نسخة جديدة، صعبة من المسيحية إلى أمريكا، غير أن أمريكا كان لها دينُها الخاص بها قبل وصول المسيحية إليها، وقد حان الوقتُ لننظر في ذلك.

الفصل الثالث والثلاثون



صُنِعَ في أميركا

(اكتشفَ) كريستوفر كولومبوس أمريكا في عام 1492،
ما يعني أن أحدًا لم يعرف بوجودها إلى ذلك الحين، ومن المؤكّد
أنّ الأوربيّين لم يكونوا يعرفون أنها على الخريطة. كان كولومبوس
يحاول إيجاد ممر إلى الهند حين قام برحلته التاريخية، وكان يعلم أن
الهند تقع إلى الشرق من أوربا، ويصلها بعد رحلة طويلة حول

الطرف الجنوبي من أفريقيا، ولكنّه أمل في أنه إذا أبحرَ بعيدًا، بما فيه الكفاية، إلى الغرب فقد يصل إلى الهند من اتجاه آخر أكثر سهولة. حين وطِئَ يابسة العالم الجديد ظنّ أنه وصل إلى الهند، ولذلك أطلق على سكّانها، الهنود، التسمية التي علقت بهم.

كان اكتشاف أمريكا أمرًا كارثيًا لسكانها الأصليين، (الهنود) الذين كانوا بالفعل يعيشون هناك. ففى خلال أربعمائة السنة

القادمة احتل المستوطنون البيض بلادَهم ونشروا المسيحية بأشكالها العديدة المتنافسة. خدم الدينُ أغراضًا كثيرة، بعضها غير مؤذٍ، وبعضها الآخر قاسٍ، ومن أقساها، تبرير إزاحة أعراق أخرى، وطردهم من بيوتهم. وكما فعل الإسرائيليون الذين غزوا الأرض الموعودة، فلسطين، اعتقد الرواد الذين دفعوا بأنفسهم غربًا إلى أمريكا الشمالية أن ربَّهم هو الذي وجّه مصيرهم ليفعلوا ذلك. البروتستانتية التي أخذوها معهم كانت ديناً لا يهدأ، طبع شخصيته على الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، وخلق مجتمعًا تحركه الرغبة، ممتعضًا على الدوام، متعطشًا للسلطة باستمرار، فهناك دائمًا حدود جديدة ليغزوها.

غير أن الأرض التي اجتاحها الغزاةُ ليست خالية من الدين، إذ كان لسكانها الأصليين تقاليدهم الدينية الخاصة، وهي تقاليد تناقض تمامًا الديناميكية البروتستانتية التي شنت

هجوماً عليهم. لقد عاش سكان أمريكا الأصليون في تناغم مع الطبيعة وليس ضدها، وكان لهم اتصال مقدس مع الأرض التي أمدتهم من خيراتها، وقد آمنوا أن الروح العظيمة، وهو المصطلح الذي يعبرون فيه عن الله، هي التي نفخت فيها الحياة. هذا كان متماشيًا مع حياتهم، حياة القبائل التي تمتطي الخيول، وتعيش في أراضٍ شاسعة، ممتدة في وسط القارة المعروفة باسم السهول العظيمة. يصل طول هذه السهول إلى ثلاثة آلاف ميل، وعرضها إلى سبعمائة ميل وتغطي مساحة أكثر من مليون ميل مربع، إذ تمتد من كندا شمالاً إلى المكسيك جنوبًا. كانت هذه

الأراضي تعج بقطعان الجاموس الوحشي الذي يزوّد السكان تقريبًا بكل الاحتياجات التي يتشاركون فيها في هذا الفضاء الواسع. كانوا بدوًا يرون في علاقتهم مع الجاموس نوعًا من التواصل. لقد عاشوا ببساطة على وجه الأرض، وبالكاد كانت لديهم رغبة في تحديد الروح العظيمة، أو السيطرة عليها. أحبوا الانفتاح على سر السعادة التي تثيرها في داخلهم وتجربتها. وكان عندهم أنبياء ينطلقون بحثًا عن الرؤى ويستخدمون المخدرات، وطقوس جرح الذات ليعرضوا أنفسهم على قوة الروح العظيمة، ثم يعودوا إلى ناسهم، ويعيدوا عبر الرقص والغناء ما واجهوه في مناجاتهم معها.

من الخطأ أن يُعَدَّ هذا (دينًا)، وحالة منعزلة عن باقي حياتهم في حجرة اسمها (الإيمان)، فهم لم يمتلكوا دينًا بهذا المعنى بل شعروا بأنفسهم مطوقين بغموض الحياة الذي ضم

الأرض، والجاموس الوحشي، والريح التي تثير حشائش السهول العالية. ما يؤمنون به كان رقيقًا هشًا بقدر ما كان صعبَ المنال، فلم يستطيعوا الصمود أمام اجتياح المستعمرين وذبحِهم الممنهج للجاموس الوحشي، وكانت خطةً المرادُ منها تجويعهم ليتقهقروا، وينسحبوا. لم يكونوا مثل البوريتانيّين الذين تم اضطهادهم في إنجلترا بسبب إيمانهم، ولكنهم استطاعوا جلبه معهم حين عبروا المحيط الأطلسي، لذلك حين جرى طرد هنود السهول من أرضهم، وشَهِدوا اصطياد الجاموس إلى حد الانقراض، خسروا كل شيء.

حثت مأساتهم على اندلاع جذوة التنبؤ بالدمار الكامل للعالم الذي قاد إلى ما يُدمي القلوب حين تَتَذَكُره. فحركات التنبؤ بالدمار الكامل للعالم دائمًا ما تنبثق وسط الناس المقموعين الذين لا يمكنهم الظن أن الله سيستمر على تجاهل عذاباتهم زمنًا طويلًا، لذلك فهم يحلمون أن البعث والإحياء في طريقه إليهم. في عام 1889 اندلعت حركة بين هنود السهول المطرودين من ديارهم سُميت برقصة الشبح، أخبرهم الرسول الذي أعلن بَدْءَ هذه الحركة أنهم إذا رقصوا مدةً طويلة بما فيه الكفاية، وبمشقة حقيقية فإن البيض جميعهم سيُدفنون إلى الأبد تحت طبقة عميقة من الأرض، وسيختفون جميعًا! سيُدَمَّر الغزاة! وستعود تلك القطعان من الخيول البرية، والجاموس إلى السهول لتجول مرة أخرى بين همس الحشائش، وسيعود كلّ الهنود الذين كانوا على

هذه الأرض إلى الحياة، ويعيشون معهم في الفردوس.

ومن الجدير بالملاحظة أن ما كان يعنيه الفردوس لسكان أميركا الأصليين، لم يكن المقصود به جنة السماء حيث يتمتعون بملذات لا يمكن تصورها، بل هي الحياة التي كانوا يعيشونها قبل أن يأتي الرجل الأبيض، ويدمّرها، وهكذا بدأوا بالرقص، لكن الفردوس لم يأتِ. رقصوا باجتهاد، رقصوا بمشقة أكثر، ورقصوا بإفراط حتى مات بعضهم من كثرة الرقص غير أن الارض لم تتزلزل تحت البيض، وتبتلعهم مع قسوتهم، ولم تجتح الخيول البرية قمم تلالهم الحبيبة لامعة أعرافُها تحت أشعة الشمس الساطعة. لم يأتِ الجاموس الوحشي راعدًا من الشمال يدعوهم إلى

تشويق المطاردة وتواصلها، بل كان من سخرية القدر، ونتيجة لسياسات المحميات الطبيعية الحديثة، أنْ عاد الجاموس الوحشي إلى السهول العظيمة، بينما غاب الهنود إلى الأبد.

تشبه الحركات التي تنبئ بالدمار الكامل للعالم رقصة الشبح، فهي صرخات استغاثة لإنهاء المعاناة، ولأن المعاناة لم تنتهِ أبدًا فإن توقهم لم ينطفئ، ونجد هذا في دين عرقٍ أمريكي معذّب آخر، عرق الأمريكان الأفارقة. هؤلاء الذين جُرْجِروا بالقوة من بيوتهم، وجرى نقلهم آلاف الأميال عبر المحيط لخدمة حاجات أسيادهم الذين يعتنقون المسيحية. فإحدى مفارقات التاريخ الديني أن الدين المسيحي الذي تبناه العبيدُ من أسيادهم كان أكثر عمقًا، وصدقًا، وقربًا إلى الأصل من أي شيء يمكن لمالكيهم أن يفهموه.

بدأت اليهودية دينًا للعبيد، فالصوت الذي تحدث مع موسى

من شجيرة مشتعلة قال له أن يحرر أبناءَه من مصر ويقودهم إلى الأرض الموعودة. كيف (لمالك) عبد أن يتعاطف مع ذلك؟ ولكن تخيّل أنت هو (العبد) وتستمع للقصة للمرة الأولى، وكأنك تستمع لقصتك أنت!

هذه القصة عنك أنت! ستفهمها بطريقة لا يمكن أن يفهمها من يشرف على جلد ظهرك بالسوط، لا يهم كم من الترانيم سيغني في كنيسته الخاصة بالبيض يوم الأحد، فاليهودية كانت دين الناس الذين يتوقون إلى حريتهم من العبودية، كذلك الحال

مع العبيد الأفارقة الأمريكان، تبنوا القصة، وجعلوها عنهم، وغنوا الأغاني عنها:

إلى الأسفل اذهب يا موسى،

عميقًا إلى الأسفل، إلى أرضِ مصر

وقلْ لفرعونَ المسنّ

أن يطلق سراح شعبي

بدأت المسيحية كذلك حركة تحررية، فيسوع كان وكيل الله ليقيم على الأرض مملكة لا مثيل لها في التاريخ، مملكة تَنزع المُلك عن العظماء وترفع المتواضعين والودعاء، وتبدل طريق الظلم إلى طريقٍ للعدالة، وتُشفي المرضى، وتُحرر الأسرى، وسيُقيمها المسيحُ الذي سيُجلَد، ويُسخَر منهُ وهو يحمل صليبهُ إلى جبل الجمجمة. فكيف يمكن للعبيد أن يصغوا لتلك الكلمات،

ويخفقوا في سماعها وصفًا لحالتهم هم؟ قد يمتلك أسيادهم الكتاب الذي ينطوي على الكلمات، لكن العبيد هم الذين يحوزون معانيها. كانت المسيحية دينًا للعبيد! فكيف يمكن لمن يملك العبيد العيش به، أو حتى فهمه؟ هم يتنكرون له في كل يوم يعيشونه في حياتهم الباذخة، والعبيد يعيشون به كل يوم! كانوا يعلمون أنه ملكهم. قد لا يعرفون كيف (يقرأون) الكتاب المقدس لكنهم يعلمون كيف يطبقونه، ويتمثلونه. التوق إلى الحرية هو ما يطمحون إليه.

بعد ذلك بدأ يحدث شيء آخر في استخدام الأمريكيين الأفارقة الكتابَ المقدس. من المؤكد أن الكتاب المقدس تغنّى بتوقهم للحرية، فكان صدى توقهم لشيء لا يملكونه بعد، وقد لا يحصلون عليه أبدًا، غير أنهم بدأوا يستخدمونه في عبادتهم بطريقة أعطتهم الحرية داخل نظام سجَنَهم. لم (يتحدث) وعاظهم عن القصص في الكتاب المقدس فحسب، بل أيضًا جعلوها (حاضرة) كذلك، بدت حقيقية بطريقة جعلت المستمعين يعيشونها ويشعرون بها. بهذا الفعل اخترعوا أعظم شكل من أشكال الفن الأمريكي، فن تأليف موسيقى تعكس المعاناة فتفوق بذلك ما تعكسه كلماتُ الأغنية نفسها من أنين وألم - حتى وإن كان لمدة ساعة أو ساعتين يوم الأحد مساءً في كوخ في مزرعة جنوبية، يهربون فيها من السوط، والتهكم إلى سعادة تنقلهم

إلى عالم آخر.

انسلُّ بعيدًا، انسلُّ بعيدًا، انسلّ بعيدًا إلى يسوع!
انسلُّ بعيدًا إلى الموطن،
لن أظلَّ، هنا، طويلاً.

وقد جسدوا غاية أخرى من غايات الدين، ألَا وهي قدرته على المواساة والتسرية عن الكثير من هؤلاء الذين يتحملون أحزانًا، وآلامًا لا تطاق. صادق على هذا الجانب منه فيلسوفُ القرن التاسع عشر كارل ماركس، واحدٌ من أعظم منتقدي الدين. كان ماركس يريد أن يخلّص العالم من الظلم الذي يتسبب بآلام

يُخفّفها الدين، لذلك وصف الدين بـ (أفيون الشعوب). رأى فيه مخدراَ، بيد أن ثمة أوقاتًا يلزمنا فيها المخدر، فحين تحتاج إلى عملية جراحية سترحب بالطبيب الذي يقوم بتخديرك قبل أن يقوم الجراح بإجراء العملية عليك. يمكن للدين أن يكون دواءً يُخفف آلام الحياة ومعاناتها، من يمتلك روحاُ لئيمة فحسب لا يستطيع التعاطف مع هؤلاء الذين يخففون مآسيهم بهذه الطريقة، ومن له قلبٌ من الصخر لا تتحرك مشاعره حين ينظر إلى مجموعة مصلين من العبيد يجدون عزاءً في وعد يسوع لإعادتهم إلى موطنهم.

ليس هذا هو الموضع الوحيد الذي لجأ فيه الأمريكيون الأفارقة إلى الدين المسيحي - اليهودي، وقصصه، فقد قاموا باستخدام الدين في عمل يحمل طابعًا سياسيًا أكثر، موظفين

رسالته في حملة ضد عنصرية أميركا القرن العشرين وظلمها. ففي نظرهم ما زالت أمريكا هي أرض مصر، وما زالوا هم أسرى العبودية. كان موساهم الجديد الواعظ مارتن لوثر كنغ الذي طلب من فرعون المسنّ، مرة أخرى، أن يُحرّر شعبه.

ولد كنغ عام 1929 في مدينة أطلنطا في ولاية جورجيا، في قلب الولايات الجنوبية التي يتم فيها عزل العرق الأسود عن الأبيض في الولايات المتحدة الأمريكية. أصبح في عام 1954 كاهن الكنيسة المعمدانية في مدينة مونتغومري في ولاية ألاباما، ومن هنا بدأ حركة النضال في سبيل الحصول على حقوق مدنية كاملة للأمريكيين الأفارقة. وفى عشية اغتياله عام 1968 شبه

مارتن لوثر كنغ نفسه بموسى الذي رأى الأرض الموعودة من بعيد، ولكنه توفي قبل أن يكون باستطاعته دخولها. يرى كنغ أن الأمريكيين الأفارقة هربوا من مصر حين أُلغيت العبودية عام 1865، ولكن بعد مرور مائة سنة ما زالوا بعيدين عن الأرض الموعودة التي فيها تحقق المساواة كاملة. وبعد مرور أكثر من نصف قرن على وفاة كنغ ما زالوا كذلك.

ما رأيناه يحدث في كثير من الأحيان في كل عصر عند قراءة هذا الكتاب، أن الدين يبدأ بتجارب روحية، ولكن، دائمًا ما يقود إلى السياسة. إنه يبدأ بصوت يسمعه الرسلُ، أدواته المختارة، وما يسمعونه دائمًا، يقود إلى أفعال تؤثر في طريقة معيشة الناس: فهي تختلط بالسياسة. في بعض الأحيان تكون السياسة سيئة، فيُضطهد الناس لأنهم يتبعون دينًا خاطئًا، أو يستمعون إلى

صوت خاطئ، أو يُجبرون على اعتناق رسالة أعلنها آخرُ رسولٍ متحمّس، لذلك فإن التاريخ الديني أصبح دراسةً في أشكالٍ مختلفة من القمع.

ولكن في أحيانٍ أُخَر تكون السياسة جيدة، تساند التحرر لا القمع. وقد رأينا سياسة جيدة في وقوف الكويكرز من بنسلفانيا ضد العبودية عام 1688، وكذلك في كنيسة الأمريكيين الأفارقة اليوم، فالسياسة المسيحية ما زالت عندهم تهتم بالتحرر، واستخدمت نهج موسى، ووعود يسوع لجعل العالم مكانًا أفضل. لم يعد الدين يُستخدم أفيونًا ليخدّر ألم الظلم واللامساواة، بل أصبح باعثًا لتجاوز هذا الألم، وهذا ما يُبقي أناسًا كثيرين في

لعبة الدين. وهي لعبة يحب الأمريكيون أن يلعبوها. لقد انبثقت أديان جديدة في القرنين التاسع عشر والعشرين في الولايات المتحدة الأمريكية، سنبحث بعضًا منها في الفصول القادمة.

الفصل الرابع والثلاثون



ولِدَ في الولايات المتحدة الأمريكية

أعيش في أدنبره، وأحبّ المشيَ، وأُفضّل التوجّهَ إلى التلال التي تقع خارج المدينة، لكن إن لم أجد الوقت، لذلك، أمشي في الشوارع القريبة من بيتي. وكثيرًا ما أسترعي انتباه شباب يعملون دائمًا أزواجًا، ويرتدون بدلاتٍ رسميةً أنيقة بقمصانٍ، وأربطة عنق. كانوا دائما مؤدبين، ويسألونني دائمًا الأسئلة ذاتها

بلهجتهم الأمريكية ذاتها: إن كنت أرغب في أن أعرف المزيد عن يسوع المسيح؟ وأرغب في التعرف أكثر على الكتاب المقدس؟ عادةً ما كنت أرفض بلطف، واستمر على المشي، لكنني أعلم أنهم سيبادرونني بالكلام مرة ثانية، وثالثة في أثناء تجوالي في الحي. هذا لم يُغضبني فأنا أعرف أنهم أتوا إلى اسكتلندا مبشرين، وأعلم أنهم يريدون إنقاذي.

هم لا يعرفون شيئًا عنّي، لكني أعلم ما يكفي عنهم، أعلم أنهم مورمون من كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، وأعلم أن مركزهم في مدينة البحيرة المالحة في ولاية يوتا، ولاية غربية في الولايات المتحدة الأميركية، وأعرف أن على كل عضو من الذكور في الكنيسة أن يقضي سنتين في العمل التبشيري، أمّا في بلده، أو خارجه. ولذلك أتعامل بلطف مع الشباب الذين يحاولون هدايتي، فهم بعيدون عن بلدهم، يعملون في طقسٍ بارد، في بلدٍ لا يعرفون إلّا القليلَ عنه، يحاولون إقناعي بأن يسوع سيعود. طبعًا، لقد سمعت هذا من قبل، ولكن ليس بالطريقة ذاتها التي يخبرونني بها، فقد أبلغوني حين يعود يسوع فسيتوجه إلى أميركا، وليس إلى أورشليم، ولن تكون هذه زيارته الأولى فقد كان هناك من قبل.

كيف يعرفون ذلك؟ من أين جمعوا هذه المعلومات؟ لقد حصلوا عليها بالطريقة نفسها التي دخلت فيها الأفكار الدينية كلها إلى العالم. حصلوا عليها من رسول راودته الرؤى وسمع الأصوات ودوّنً ما أوحيَ إليه، ثم أقنع آخرين ليؤمنوا به. كان أميركيًا اسمُهُ جوزيف سمث، ولد عام 1805 في مدينة شارون، في ولاية فيرمونت، من عائله كانت مزارعة فترةً قصيرة، ثم انتقلت في ما بعد إلى شمال ولاية نيويورك. حين كان صبيًا أقلقته الانقسامات، والمنافسات بين الكنائس البروتستانتية في مدينته، فكيف له أن يختار من بينها؟

وكما فعل الرّسُلُ الذين جاءوا من قبله اختلى جوزيف للصلاة، والدعاء بغيةَ ايجادِ حلٍّ لمشاكلهِ، فرأى رؤية، قال له مَلَك أن يبتعد عن الكنائس المحلية التي انحرفت عما جاء به يسوع، وعن الأفكار الفاسدة التي دخلت إلى المسيحية بعد وفاة الحواريين الأوائل فأضاعت المسيحية طريقها. لكن إحياء الدين قادم وسيكون هو أداته، وعليه أن يكون على أهبة الاستعداد، وعندما يحين الوقت سيُعيد الكنيسة إلى نقائها الأصيل، ويضعها، مرة ثانية، على طريق الحق. لذا فقد انتظر. وحين بلغ الخامسة والعشرين جاء الوحي المُنتظر، ليخبره بوجود مجموعة من الكتابات لرسل أميركا القديمة. ففي وقت ما من القرن الرابع قام رجل اسمه مورمون بتدوين كتاب على ألواح ذهبية، ودَفنها في تل يقع في مدينة تدمر في ولاية نيويورك. تحتوي هذه الصفائح على مادة

تعود إلى قرون قبل ميلاد المسيح، وتحكي قصة نيفي وقبائل أُخَر من الشرق الأوسط هربت إلى أمريكا في الماضي السحيق، والمَلَك الذي نقل هذه المعلومات إلى جوزيف سميث اسمه موروني. وكما اكتشفَ سميث في ما بعد، ظهرَ موروني في الكتاب الذي أُلهم بوجوده، وبعد أن قُتل موروني في المعركة نهَض من جديد ورُقّيَ إلى منزلة الملائكة، وكان في دور الملائكة حين نبه سميث بوجود الألواح الذهبية التي باتت كتاب المورمون.

ويُروى أن سميث أخرج الألواح بعد أربع سنوات، وقام بترجمتها إلى الإنجليزية، وبعد ثلاثة أشهر أنتجَ خمسمائة صفحة أصبحت معروفة في ما بعد بكتاب المورمون. وقيل إن نسخته من

الكتاب جرى تجميعها من المقروآت ما بين عام 311 إلى 385، مثل ترجمة مشهورة أخرى تعود إلى ألف ومئتي سنة لاحقة، وهي إنجيل الملك جيمس الذي نُشِرَ عام 1611، وحظي بحب الكنائس البروتستانتية، وهو أحد المقروآت التي كان سميث مطلعًا عليها. وهذه الأبيات من كتاب المورمون لها أسلوب إنجيل الملك جيمس نفسه:

((وسيحدث ما أقوله لكم، قال أبوكم، في ذلك اليوم كل من لم يتُب، ويأتِ إلى ابني الحبيب، فسأعزله عن شعبي، آه! يا آل إسرائيل. سأصب جامَ غضبي، وانتقامي عليهم، كما على الوثنيين، بما لم يسمعوا به من قبل)).

وينتمي كتاب المورمون إلى نصوص سفر الرؤيا التنبّئية الأخرى التي تعلن عودة يسوع المسيح، وجمعه كلَّ شيء تحت

حكمه. بيد أن الفرق هذه المرة أنه سيتم تأسيس صهيون جديد في أمريكا. والأمر ليس بمفاجأة، حين نعلم من كتاب المورمون أن الله نقل خطته من الشرق الأوسط إلى الغرب الأميركي، مؤكدًا منزلة أميركا أرضًا مقدسةً جديدة من خلال قيام يسوع نفسهُ بزيارة خاصة للقارة عام 34، بعد شهور قليلة من قيامته. يقول لنا الكتاب إن «يسوع المسيح أظهر نفسهُ إلى سكان نيفي، حيث تجمع الحشدُ في أرض بونفل، وأصبحَ كاهنًا عليهم... ». كانت هذه أخبارًا مهمّة، ولابد من أن يطلع العالم عليها، لذلك نشر جوزيف سميث إنجيله في مدينة فايت في ولاية نيويورك في الرابع

من إبريل عام 1830. لم ينظر إلى حركته على أنها كنيسة جديدة، بل على أنها تطهير للكنيسة القديمة، وبما أن المسيحيين الأوائل أطلقوا على أنفسهم اسم القديسين، لذا فإن أعضاء كنيسته هم قديسون أيضًا، قديسو اليوم. وبذلك ولدت كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، وكان كتابها المقدس كتاب المورمون.

وكما رأينا طوال قراءة هذا الكتاب، فإن إطلاق حملة دينية جديدة تضر بالرسل، فالناس لا يحبون أن يقال لهم إن دينهم على خطأ، ويسوع نفسهُ قال إن الرسل لا يُكَرَّمون بين شعوبهم، فمن الصعب الإيمان بأن شخصًا عرفتهُ طوال حياتك اختاره الإله ليصبح رسولاً. ولم يكن سميث استثناءً عن القاعدة، فمن كان يظن نفسه؟ إذًا استشاط قادة الكنائس الأخرى غضبًا من ادعاءاته، ورُميَ هو وأتباعه في السجن وجرت ملاحقتهم من

قرية إلى أخرى. بيد أن الثورة استمرت، وأضيفت كتب أخرى إلى رفّ النصوص المرمونية. لكنّ الأمرَ الذي قضى على سميث، وأسقطه من عيون المسيحيين كان الجنس، فأن تقول إن مَلَكًا أوحى إليك بكتاب مقدس جديد شيء، وأن تقول إنه قال لك أن تأخذ زوجات رجال آخرين شيء آخر.

أخبر المَلَك سميث أن كنيسة قديسي الأيام الأخيرة هي استعادة لدين إسرائيل القديم الصادق، وبما أن إبراهيم والبطاركة الآخرين كان لديهم الكثير من الزوجات، فعليه أن يتخذهم قدوة، ويستعيد الممارسة التوراتية لتعدد الزوجات التي تسمح للرجل باتخاذ عدة زوجات في الوقت نفسه. أطاع سميث الأمر،

واتخذ لنفسه أربعين زوجة، بعضهن كن متزوجات، بالفعل، من رجال آخرين في الكنيسة.

وكانت تلك القشةَ الأخيرة لخصومه، وللهروب من الاضطهاد في الشرق، نقل سميث جماعته إلى الغرب، إلى ولايتي إلينوي وأوهايو، حيث تم بناء أول معبد مورموني عام 1836. ووجد من الصعوبة بمكان أن يبقى متقدماً على هؤلاء الذين يطاردونه، وأن يستمر على تنقله. وفي النهاية، في عام 1844، اغتيل هو، وأخوه هاروم في مدينة قرطاج في ولاية إلينوي، في خلال إحدى الفترات المتكررة التي كان يقضيها في السجن. ولكن من المستبعدِ جدًا أن يؤدي ذلك إلى القضاء على الكنيسة التي بدأها سميث، فدمُ الشهداء يكون دائمًا بذورًا لها. ففي عام 1847 اختار المورمون برغهام الصغير قائدًا جديدًا لهم،

فإذا كان سميث رسولَ المورمونية، فإن الصغير هو موحّدُها، الرجل الذي بنى أنظمة ضمنت لها استمرارَها.

ولد برغهام الصغير عام 1801، وهو التاسع من بين أحد عشر طفلًا، وكان واحداً من بين هؤلاء الرجال الذين يمتلكون ذكاءً عمليًا، ولهم القدرة على إتقان أي عمل، وإن لم يكن لديهم خبرة به، فحين جرى تعميده في كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة عام 1832 وضع موهبته الهائلة في خدمة الحركة الجديدة آنذاك. وفي العمل على استعادة الكنيسة، أسس سميث مجموعة حاكمة تتألف من اثني عشر رسولًا، فجرى ترسيم الصغير رسولًا في عام 1835، ووضعه سميث مسؤولًا عن

العمليات التجارية للكنيسة بسبب قدراته هذه. فواحدة من الأمور المثيرة للاهتمام في المورمانية أنها، منذ البداية، انتهجت منهجَ عملٍ صارماً لإدارة شؤونها في العالم.

كان التحدي الذي واجه الصغير حين تسلّم المهام بعد اغتيال سميث هو كيفية تأمين سلامة الكنيسة، فكان الحل الذي توصل إليه هو الذهاب بعيدًا أكثر إلى الغرب، إلى ولاية يوتا التي كانت حينها تحت سيطرة المكسيك. قد تكون يوتا هي الأرض الموعودة للمرمون، بيد أن هنود يوتا كانوا يقطنونها بالفعل. بدايةً، لم يكن هذا الأمر مقلقًا لجوزيف سميث، فكتاب المورمون بلَّغَهُ أن الهنود هم من سلالة بني إسرائيل الذين جاءوا إلى أميركا قبل ميلاد المسيح بمئات السنين، وعليه فإن هنود يوتا هم خلفاء الناس الذين خاطبهم المسيح حين زارهم بعد قيامته. وهذا يعني، بخلاف المستوطنين الآخرين الذين غزوا الغرب

الأميركي، لم يكن المورمون معادين للهنود الذين صادفوهم، وكانوا بالفعل جزءًا من قصة دينهم، وخططوا لأن يهدوهم إلى الحق، ويكملوا رسالة يسوع التي بدأها قبل ألف وثمانمائة سنة مضت.

وعليه قاد برغهام الصغير قوافل عربات المهاجرين التي تحمل آلاف المورمون إلى أرض صهيون الجديدة يملأهم الحماس للقاء هؤلاء الناس من بني إسرائيل القدماء. واتضحَ، بعد وقتٍ قصير، أن ما أراده المورمون من هنود يوتا لا يتطابق مع ما أراده الهنود لأنفسهم، وأصبح لقاؤهم لقاءً من تلك اللقاءات المأساوية

التي واجهها سكان أمريكا الأصليون في أرجاء القارة كلها. لقد أدرك الصغير أن ما يسميه هو (العادات المتحضرة) لا تتوافق مع طريقة حياة سكان يوتا، فكان لا بد من التغلب على تلك العادات، ولذلك تم حجز سكان يوتا في محميات خاصة بهم، وأصبحت يوتا أرض المورمون المقدسة.

عندما وضعت الولايات المتحدة الأمريكية يدها على يوتا بعد نهاية حربها مع المكسيك، أصبحَ الصغير أول محافظ عليها، وأخيرًا أمَّنت كنيسة قديسي الأيام الأخيرة موطنها، لكن كان عليها أن تدفع الثمن. وكما كان سميث من قبله، آمن الصغير، هو الآخر، بتعدد الزوجات، وكان لديه عشرون زوجة، وأنجب سبعة وأربعين طفلًا. كان عليه، إن كان يريد للمورمون العيش، وممارسة عبادتهم بسلام في يوتا، أن يصل إلى حل وسط مع

الحكومة الفيدرالية التي لا تسمح بالتعدد أبدًا، وعليه تخلى المورمون عن هذا التشريع برغم أن إغراءات ممارسته لم تتلاشَ تمامًا. ففي تاريخ المورمونية كان هناك دائمًا بعض من يحاول إعادة هذا التشريع إلى حياة الكنيسة لكونه جزءًا من نسخة جوزيف سميث الأصلية للمورمونية. وعادةً ما يفشلون في ذلك، لكن كانت ثمة جائزة تعزية تنتظرهم. فما زالت التعددية تُمارس في الجنة، فإذا ما توفيت زوجة الرجل على الأرض، واتخذ زوجة أخرى، فسيُسمح له أن يُبقي على الزوجتين في الحياة الآخرة.

بدأت كنيسة قديسي الأيام الأخيرة بداية نابضة بالحيوية، ولكن لديها تعاليم رصينة اليوم، فالمورمون لا يدخنون التبغ

ولا يستعملون أي نوع آخر من المخدرات، ولا يشربون الكحول، والقهوة، والشاي، ولا يُسمح لهم بالوشم، أو الخرز، ولا يلعبون القمار، ولا يمارسون الجنس قبل الزواج. فهم يُوَقِّرون الحياة العائلية، وينجبون الكثير من الأطفال حين يتزوجون، ويعملون بجد، والكثير منهم أصبحوا في غاية الثراء، ويقضي شبابهم سنتين من حياتهم في التبشير في موطنه في الولايات المتحدة الأمريكية، أو في دول أخرى، وقد تصادف بعضهم حتى في شارعٍ قريبٍ منك.

الفصل الخامس والثلاثون



خيبة أمل كبيرة

لم يكن جيمس سميث، هو، الرسولَ الوحيدَ في ولاية نيويورك في القرن التاسع عشر، ولم تكن كنيسة قديسي الأيام الأخيرة، هي، الدينَ الجديد الوحيد الذي يولد هناك، فقد كان المكان مليئًا بالإثارة، غير أن المتحمسين لم يكونوا لينظروا دائمًا إلى الاتجاهِ نفسِه. لقد حفرَ سميث في الماضي، وأخرجَ صورة جديدة منه، لكن كان ثمة من ينظر إلى الأمام، وليس إلى الخلف،

ولم يكن مهتمًا بالماضي، وما كان يشغله هو المستقبل. لأن الوعود الموجودة في الكتاب المقدس عن عودة المسيح كانت على وشك التحقق! سيعود المسيح! وسيعود قريبًا!

الرجل الذي كان الأكثر إيمانًا بعودة المسيح قريبًا هو وليم ميلر الذي عاش في منخفض هامبتون الريفي في ولاية نيويورك.

كان ميلر قارئًا نهمًا للكتاب المقدس، مأخوذًا باستمرارية الأفكار في العهد القديم، والعهد الجديد، الأفكار التي تتنبأ بعودة المسيح ليحكم على الأحياء، والأموات، وأصبحَ مُقتنعًا أن الكتاب المقدس يحتوي على شفرة مخبأة ستكشف له عن التأريخ الدقيق لعودة المسيح الثانية، إذا ما استطاع أن يفسرها تفسيرًا صحيحًا. ولقد رأينا، بالفعل، أن كتاب دانيال هو الكتاب الذي تقرأه، إذا أردت أن تلعب هذه اللعبة، وهذا، تمامًا، المكان الذي وجد فيه ميلر الشفرة التى كان يبحث عنها.

في الفصل الثامن من كتاب دانيال كتب الرسول (حتى ألفين وثلاثمائة يوم: حينها سيتم تطهير الهيكل)، وكان ميلر متأكدًا من أن هذه هي الشفرة التي يبحث عنها، فهي تعني 2300 سنة! وبالحساب، إلى الأمام، وصل إلى اليوم الحادي والعشرين

من شهر آذار عام 1488 وهو يوم عودة المسيح. وتحضّر لهذا اليوم، ولكن هذا لم يحدث، وقرّر أن حساباته ربما انحرفت قليلاً، لذا قام بالحساب مرة ثانية، وهذه المرة توصل إلى اليوم الثاني والعشرين من تشرين الأول من نفس السنة، جاء هذا اليوم، وذهب، ولم يحدث أي شيء. أصبحَ فشل ميلر معروفًا له، ولأتباعه بخيبة الأمل الكبيرة. تصرف ميلر بعقلانية، وترك لعبة التنبؤ هذه.

استمر آخرون على لعبة التنبؤ، ففي عام 1860 نظموا أنفسهم في طائفة جديدة مع رسولٍ خاص بها، وأطلقوا عليها اسم أدفنتست اليوم السابع (مجيئيو اليوم السابع) (أو الأدفنتست

السبتيين). استخدمت كلمة أدفنتست (مجيئيون) لأنهم استمروا على الاعتقاد بمجيء يسوع القريب، رغم عدم استطاعتهم التأكد من التاريخ؛ واليوم السابع لأنهم أبقَوا على يوم السبت، وتقديسه يوم راحة الرب بدلاً من يوم الأحد. وقد أوقعوا اللوم على الكنيسة الكاثوليكية في تغيير يوم راحة الرب من اليوم الأخير في الأسبوع إلى اليوم الأول من الأسبوع، غير أن تغيير السبت كان أقل تهمهم أهمية ضد كنيسة روما، إذ اتفقوا مع المصلح الاسكتلندي جون كنوكس على أن كنيسة روما كانت معادية للمسيح.

كانت رسولة طائفة (مجيئيو اليوم السابع) هي ايلين وايت، ولدت عام 1827 وتوفيت عام 1915 وكان لكتاباتها سلطةٌ مقدسة بين هذه الطائفة. ومثل الكثير من الطوائف اتبع أفرادُها قوانين أخلاقية صارمة تضمنت الامتناع عن أكل اللحوم، وعن

التدخين، وعن تناول الكحول، وعن الرقص، وعن أشكال الترفيه معظمها، وآمنوا بالتثليث وألوهيّة المسيح، وبحثوا في عودة المسيح مرة ثانية بقوةٍ، ومجد عظيمين، لكنهم لم يوافقوا الأرثذوكس على ايمانهم بما سيحدث بعد الموت.

تنص العقيدة المسيحية أن الناس سينقسمون في يوم الحساب على مجموعتين، المجموعة الأولى ستخلد أبداُ في النار بسبب شرورها، بينما الصالحون سيتمتعون بنعيم الجنة إلى الأبد. وقد رفضت ايلين وايت تلك العقيدة، وكتبت:

«كم هي منفّرة لكل مشاعر الحب والرحمة، وحتى لإحساسنا بالعدالة، تلك العقيدة التي تنص على أن الاموات الاشرار يُعذبون بالنار، والكبريت في جحيم مستعرة إلى الأبد: فعقابًا على خطايا ارتكبوها في حياة قصيرة على الأرض سيعانون التعذيب مادام الرب باقيًا».

وبدلًا من إرسال الخطّائين إلى عذاب أبدي، قالت وايت، إن الرب يُسلّمهم إلى نسيانٍ أبدي. إذًا الفناء، وليس العذاب اللا منتهي، هو قدرهم: «حينها لن تكون هناك أرواح ضائعة تكفر بالرب، وهي تتلوى ألمًا في عذاب أبدي: لن يبقى أحياء بائسون في الجحيم تختلط صرخاتهم مع أغنيات الناجين».

وما كان القس توماس الأكويني ليوافق على ذلك.

تبنى رأي وايت في فناء الجحيم رجل أمريكي آخر في القرن

التاسع عشر كان يبحث في نهاية العالم، وهو تشارلز تاز راسل.

كان راسل صاحب متجر في مدينة بيتسبرغ في ولاية بنسلفانيا، وقد تأثر بتنبؤات وليم ميلر، لكنه بخلاف ميلر لم يعترف بهزيمة (خيبة الأمل) حين لم تحدث عودة المسيح الثانية، وحل المعضلة بقوله إن المسيح قد عاد، مؤكّدًا، ولكنه أخفى حضوره تحت عباءة الإخفاء. فتلك كانت الأيام الأخيرة ونهاية العالم قد بدأت بالفعل وستصل ذروتها بوضوح عام 1914 في خلال المعركة الأخيرة التى ستحدث في هرمجدون.

ومثلهُ مثل المصلح الأسكتلندي جون كنوكس، قام رسل بدمج العهد القديم بالعهد الجديد، وسفر الرؤيا الذي كتبه الرسول جون الذي تم نفيه إلى جزيرة باتموس في خلال اضطهاد الإمبراطور الروماني دوميتيان للكنيسة، وهكذا افتتحَ السِفر: «وحيُ يسوع المسيح، الذي أنزله الربّ عليه، ليُظهر لعبيده أشياء ستحدث عن قريب... » ثم يخبرنا جون أنه كان في غشية في يوم الرب، وسمع صوتاَ يقول: «أنظر، سآتي متخفيًا كاللص. مباركٌ هو من راقب وصولي... » وأعلن الصوت أن المعركة الأخيرة ستندلع في مكان يُسمى في العبرية (لسان هرمجدون)، (هضبة مجيدو) هرمجدون حقل يقع شمال أورشليم شهد عدة معارك في تاريخ بني إسرائيل.

هذا كان كل ما يحتاج إليه رسل، فبدأ حركته عام 1879

واطلق عليها اسم برج المراقبة لأولئك الذين يبحثون عن المجيء الثاني للمسيح، ومعركة هرمجدون التي ستتبعه، وكان على اتباع الحركة تحذير أكبر عدد ممكن من الناس بما سيحدث، على الرغم من أنه سيتم إنقاذ 144 ألف فقط، وكل من تبقى، وكما تنبأت أيلين وايت سيكون مصيرهم الفناء. أخذ رسل الكثير من حركة الأدفنتست، لكنه كان انتقائيًا في خياراته، وكان سعيدًا أنه استطاع التخلص من الجحيم، بيد أنه أراد التخلص من أكثر من ذلك، لابد من أن يتم التخلص من التثليث؛ الرب، أو يهوه، وهو الاسمُ الذي كان يفضل إطلاقه على الربّ، هو كل ما يحتاج إليه.

ضربت معركة هرمجدون أوربا، نوعاً ما، عام 1914 عند بداية الحرب العالمية الأولى، ولكن ليست هذه هي المعركة التي كان يتوقعها راسل. فحين توفي عام 1916 كان ما يزال ينتظر حدوث ما توقعه. الرجل الذي جاء بعده قائدًا لحركة برج المراقبة رجل أعمال صارم اسمه جوزيف فرانكلين رذرفورد، وبعد فترة قصيرة من توليه القيادة نَظَمَ أتباع راسل في حملة طويلة الأمد. وفي عام 1931 بَدَّلَ اسمهم إلى شهود يهوه، وفرض نظامًا صارمًا أبقاهم منفصلين عن المجتمع، وصرف نظرهم بعيداً عن العالم، وعن بعضهم بعضًا.

تحتاج إلى شجاعة لتدير ظهرك للمجتمع الحديث، وترفض قِيمَهُ كلّها بما فيها طريقة ممارسته للطب، فشهود يهوه يرفضون عملية نقل الدم، فالدم يمثل لهم الحياة، والله وحده هو من يهب الحياة، لذلك يتم اضطهادهم أحيانًا حين يرفضون نقل

الدم لأولادهم. فالوقوف ضد العالم بهذه الطريقة يُعطي الجماعة شعورًا قويًا بالانتماء، ويعزز الاضطهاد الالتزام، ويجعل من الصعوبةِ، بمكان، الانفصال عن الجماعة أيضًا إذا غيَّرت رأيك حول معتقداتها.

توفي رذرفورد عام 1942. ولم تحدث معركة هرمجدون لحد الآن، على الرغم من أن الحرب العالمية الثانية كانت مستعرة آنذاك، وكان يمكن أن تمثل تقليدًا جيدًا لها. ومرة أخرى تعرّض شهود يهوه إلى خيبة الأمل. نصحهم قادةٌ جُدد بالتنقيب في عمق التاريخ الطويل، فالمسيح سيعود، لذا استمروا على ترقبه.

كان شهود يهوه مثل المورمون متحمسين للنشاط التبشيري من خلال طرق الأبواب، واستمروا على تحويل الناس لصالح قضيتهم، ولم يطلقوا اسم الكنيسة على أماكن عبادتهم، بل قاعات المملكة. وكانوا يبيعون مجلتهم (برج المراقبة) في جميع أرجاء العالم باستمرار، وبقوا متيقظين يراقبون الأفق، ينتظرون من سيتسلل في الليل مثل لص.

تذكرنا طوائف مثل ادفنتست اليوم السابع، وشهود يهوه بواحدة من أكثر الأمور إحراجاً، وإرباكاً في الكتاب المقدس ألَا وهي حقيقة أن بعد ألفي سنة من الترقب والانتظار لم يعد المسيح بعد. عالج المسيحيون الليبراليون المسألة ببعض الكياسة، فهم لم ينكروا المجيء الثاني للمسيح، وكيف لهم أن يفعلوا ذلك؟ فهذا أمر ثابت بقوة في الكتاب المقدس، تشربوه في عقائدهم، ففي الشهر الذي كان يسبق عيد الميلاد يتوقف الأدفنت (أحد أعضاء

طائفة المجيئيين) عن فعل أي شيء، ويتفرغ للتأمل في معناه.

تقترح جماعة الأدفنتست تفسير مجيء المسيح الثاني بالقول إن مملكة الرب المُنتظرة موجودة بالفعل، وما على المسيحيين القيام به هو البحث عن دليل وجودها، موجودة أينما يجري فيها مساعدة الفقراء، وتحدّي الظلم، موجودة في الأماكن التي يعمل فيها الناس الأخيار ليجعلوا العالم مكانًا أفضل للعيش، مكانًا أكثر شبهًا بالمملكة التي وصفها يسوع. وثمة كلمات على لسان يسوع تؤيد هذا النهج، جاءت الكلمات من كتاب لم يُضمّن فِي العهد الجديد رغم احتوائه على أقوال صادقة

ليسوع ويُسمى إنجيل توما. يسأل الحواريون فيه يسوع: (متى تأتي مملكة الرب؟) فيجيب يسوع: «لن تأتي مملكة الرب من خلال انتظارها. ولن تُقام بمجرد القول، هي هنا، أو هناك. بالأحرى، فإن مملكة الأب منتشرة في أرجاء المعمورة، ولكن البشر لا يرونها».

يجد المؤمنون المتمسكون بفكرة المجيء الثاني للمسيح أن هذا النهج ضعيف، ويريدون شيئًا أكثر دمويةً، يريدون معركة هرمجدون، والمسيحية الأمريكية تغذي هذا جيدًا. ربما لأن الأمريكيين يرون أنفسهم أمةً مختارةً، شعبًا استثنائيًا مصيرُهُ موجّه من الله. وكيفما نظرنا إلى الموضوع، فإن تأريخ المسيحية في أمريكا مليء بالمذاهب التي تبحث عن نهاية العالم، وعودة المسيح، وما زالوا يبحثون، ويظهر رسل جُدد باستمرار يصرحون بأن نهاية العالم قريبة،

ويجدون طرقًا جديدة، مختلفة ليمرّروا رسائلهم. وقد استخدم واحدٌ، من أكثر هؤلاء الرسل نجاحًا، الخيالَ لينشرَ كلماته في سلسلة من الروايات يستطيع الناس التقاطها في أسواقهم المحلية.

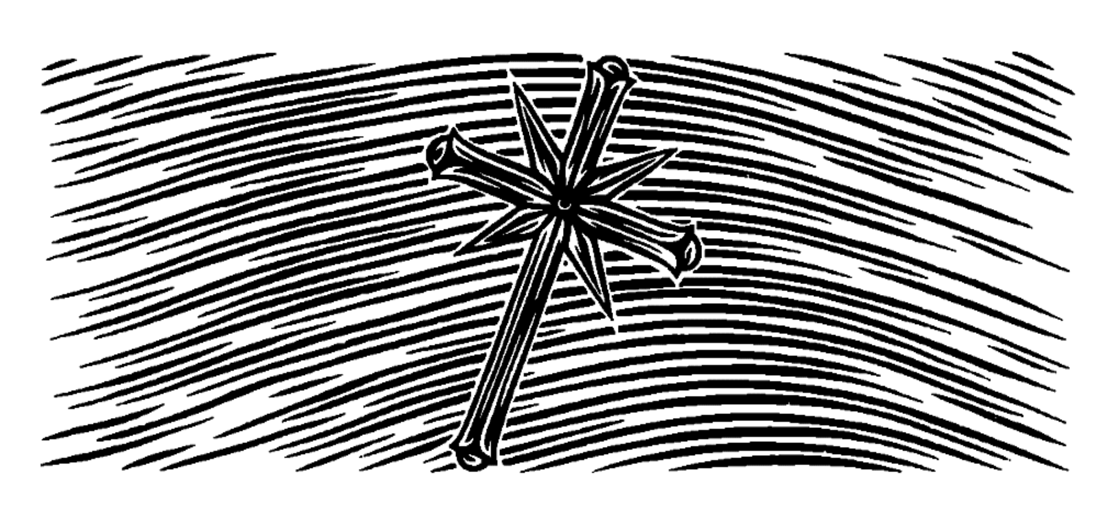
إنه الكاهن الأمريكي الإنجيلي تيم لاهاي الذي وصِفَ بأنه أكثر المسيحيين الأمريكان تأثيرًا في الأربعين سنة الأخيرة، وما قام به هو أنه أعطى لفكرة المجيء الثاني للمسيح بعدًا جديدًا. هناك ست عشرة رواية في السلسة التي كتبها تيم وتحمل عنوان (المتروكون خلفًا). تستمد سلسلة الروايات وقعها من المحيط المعاصر الذي تقع أحداثُها فيه، وليس في عصر بني إسرائيل القديم. فأحداثها تقع في العالم الحالي، المليء بالمشاكل والعنف. في

هذه السلسلة، تكون مرحلة ما يُعرف (بالاختطاف) قد حدثت بالفعل، وبدأت النهاية، حيث يُختَطَف المؤمنون الصادقون ليُرفعوا إلى الجنة، تاركين ما كانوا يفعلون على الأرض مهما كان في اللحظة التي يُكتب فيها لهم الصعود. فإذا كانوا يقودون السيارة، أو الطائرة يتم انتزاعهم من مقاعدهم، ويُنقلون مباشرةً إلى الحياة الأبدية تاركين مراكبهم في الأسفل، تتحطم في انفجار مروع. وينغمس عالم (المتروكون خلفًا) في فوضى عارمة، ويبدأ الناس يطالبون بقائد لينقذهم من هذا العالم المرعب، ثمّ يظهر شخصٌ ينصبونه الأمين العام للأمم المتحدة ويبدو أنه الرجل الذي سيجلب النظام إلى الكون. ولكن ما لا يعلمه العالم أنه المسيح الدجّال الذي ذُكِرَ في الكتاب المقدس، وهو أكبر محتال يهدف إلى قيادة العالم إلى الضلال - إنه الوحش! ولو كُتب هذا الكتاب

في عصر الإصلاحات لجعلوا المسيح الدجّال هو البابا، بيد أن موضوع الكراهية لدى الإنجيليين الأمريكان اليوم لا يتمثل في البابا، بل في الأمم المتحدة. في الروايات، يُدرك طيّارٌ في الخطوط وأصدقاؤه، بعد فترة قصيرة، ما يحدث، فبدأوا بالتصدي لعدوّ المسيح الجديد (المسيح الدجال) لينقذوا الضائعين، ويُعدّوهم للمحنة العظيمة التي تسبق الأيام الأخيرة. بيع أكثر من خمسة وستين مليون نسخة من الروايات، ففي أمريكا ما زال الدين الذي يتحدث عن نهاية العالم له شعبية.

بيد أنه ليس النوعَ الوحيدَ من الدين الذي ما زال مستمرًا هناك فى المائة سنة الأخيرة.

الفصل السادس والثلاثون



المتصوفون ونجوم السينما

ميّز طلاب الدين بين الكنيسة، والطائفة. فالكنيسة أكثرُ تعقيدًا من الطائفة، ولديها مجموعةٌ واسعة من المعتقدات تحاول الاحتفاظ بها بنوع من التوازن. تتشبّث الطائفة بأحد جوانب الدين، وتجعله شاغلها الأساسي. رأينا، في الفصل الأخير، كيف ركز السبتيون، وشهود يهوه على أجزاء الكتاب المقدس التي تنبأت بعودة المسيح ليحكم العالم، ويعجّل بحلول يوم

القيامة. لهذا السبب دوّنهم المُصنِّفون، في الألواح، بوصفهم طوائفَ، لا كنائس. كذلك وُصِفَت كنيسةُ العالم المسيحي التي أُسِّست في بوسطن، في الولايات المتحدة الأمريكية، عام 1879، بأنها طائفة، إذ تناولت جانبًا واحدًا من أعمال يسوع المسيح، وواصلت متابعته موضوعًا جوهريًا لها.

اتخذت جماعة العالم المسيحي جانبًا من عمل المسيح بوصفه معالجًا مهمةً لها. والرسول الذي أسس الحركة هذه هي ماري بيكر التي ولدت في عام 1821 في نيو هامبشاير. كانت مريم طفلةً مريضة رافقها المرض حتى مرحلة البلوغ. ومثل المرأة في إنجيل مرقص التي عانت الكثير على أيدي الأطباء، أمضت ماري الكثير من الوقت في البحث عن الشفاء. فضلاً عن الطب التقليدي، حاولت الخضوع للتنويم المغناطيسي وغيره من البدائل، لكن لا شيء كان ينفع لفترةٍ طويلة. في عام 1866 انزلقت في أحد الشوارع المغطاة بالجليد، وألحقت أضرارًا بعمودها الفقري. حاولت، هذه المرة، شيئًا مختلفًا. لم تلجأ بإصابتها إلى الطبيب، بل إلى العهد الجديد. وفي أثناء التأمل في فقرة في إنجيل متّى، يأمر، فيها، يسوعُ رجلاً مشلولاً بالنهوض، والسير، اختبرت

الشفاء هي نفسها. لم يتم علاج العمود الفقري المتضرر حسب، بل وآمنت أنها اكتشفت العلم الذي يكمن وراءَ عملٍ يسوع المعالج.

الوحي الذي نزل عليها أوحى لها أن المرض مبنيّ على وهْم مفادُهُ أن الجسد له وجود مستقل، وهو لا يمتلكه حقًا، فقدً خلق من عقل الله. العقل هو السبب، والجسد نتيجته. لذا فإن طريقة إيجاد الشفاء كانت بتفوق العقل على الجسد. هكذا وضعته في كتابها (العلم والصحة) قائلة: «تطلق المعرفة البشرية عليه اسم قوى الجسد؛ لكن العلم الإلهي أوضح أنه ينتمي بالكامل إلى العقل الإلهي... وهو متأصل في هذا العقل». يعني تطبيقُ مبدأ تفوق العقل على الجسد عند المعاناة الإنسانية، إدراكَ أن

الأمراض التي أصابتنا ليس لها أساسٌ من الواقع، بل هي خداع، وأوهام، وألعاب يلعبها مبدأ الجسد يتفوق على العقل. فطريقة الشفاء لم تحصل على أيدي الأطباء الذين لعبوا اللعبة نفسها، وإنما حصلت بفتح أنفسنا لقوة الله المحبة، التي من شأنها أن تقضي على وهم المرض، وتعيدنا إلى الصحة والواقع. لم يشفِ العالمُ المسيحي أمراضَنا، بيد أنه عالجنا من وهم استحوذ علينا في المقام الأول!

لم تكن هذه العقيدة من النوع الذي يمكن أن تتقبله الكنائسُ السائدة في نيو إنجلاند، فلم يؤمنوا أن المعاناة يمكن إزالتها بهذه السهولة، فهي معاناة حقيقية، وليست وهمًا. كانوا يشكون أن ماري بيكر لم تكن تؤمن بوجود الخطيئة، والعقاب، والجنة والنار، وهي لم تفعل. في كتابها لا يوجد من لا يمكن إنقاذه، ولا مشكلة

تتجاوز الحلّ، ما أن يُفهَم مبدأ تفوّق العقل على الجسد. أصيبت ماري بالإحباط من المعارضين لمكاشفاتها، فأسست، مع زوجها الثالث آسا جيلبرت إيدي في عام 1877، كنيسة المسيح العالم في بوسطن عام 1879. وأسّست في عام 1908 صحيفة الكريستيان ساينس مونيتور التي ما تزال تطبع، وتحظى بالاحترام على نطاق واسع. واشتهرت الكنيسة الأم للعالم المسيحي التي تحتل أربعة عشر فدانًا في منطقة باك باي في بوسطن.

تتكون خدمات جماعة العالم المسيحية من قراءات من الكتاب المقدس، والصحة، وقراءات من أعمال ماري بيكر إيدي، خصوصًا من كتاب (العلم والصحة). وهناك تراتيل

وصمت، لكن الشكل الوحيد للصلاة المستخدمة هو صلاة الربّ. لم تتحولْ جماعة العالم المسيحي أبدًا إلى حركة جماهيرية، لكنها انتشرت على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم. ستجد في معظم المدن إحدى قاعات المطالعة التي تُعرَض فيها كتابات ماري بيكر إدي، ويمكنك أن تعرف بنفسك كيفية تطبيق مبدأ تفوق العقل على الجسد على الأمراض التي تصيبك. توفيت بيكر في منزلها في إحدى ضواحي بوسطن عام 1910.

بعد مضي أربعين سنة، في عام 1952، ولدت ديانة أمريكية أخرى كانت أكثر ازدراءً للطب الحديث من مذهب العلم المسيحي. وقد أطلقت على نفسها اسم الكنيسة السينتولوجية (الكنيسة العلمولوجية)، وكان نبيُّها كاتبًا للخيال العلمي يدعى لافاييت رونالد هوبارد، الذي ولد في ولاية نبراسكا عام 1911،

المشهور بين نجوم السينما في هوليوود. فالممثلان توم كروز، وجون ترافولتا ينسبان نجاحهما إلى مبادئه، وممارساته. تستخدم العلمولوجيا التقنياتِ الحديثة، وتقنيات استكشاف العقل، لكن الفلسفة الكامنة وراءها هي العقيدة الهندوسية القديمة للتناسخ، أو سامسارا. إنها تؤمن بوجود أرواح خالدة تدعى (الثيتان) التي تهاجر من جسد إلى آخر على مدى تريليونات السنين. من الصعب التأكد من التفاصيل في العلمولوجيا، لكن يبدو أن الأرواح الخالدة ذاتها لم يتم خلقها، فهي من خلقت الكون، ولكي تتمكن من العمل داخله، قامت بصنع وسائل

نقل لأرواحها، وما كان جسم الإنسان إلّا شكلا من بين الكثير من الأشكال التي اعتمدتْها.

في هذه النقطة تبدأ الأمور بالتعقيد. فالأديان جميعها تحاول شرح علاج للمعاناة الشريرة في العالم، وتقديمه له. ألقى الكتاب المقدس باللوم على فعل العصيان، الذي أدى إلى السقوط من النعيم، وطرد آدم، وحواء من جنة عدن. لقد تحوّل التاريخ البشري إلى سعي للخلاص، واستعادة الجنة. في اللاهوت الهندوسي كان الًكرما، أو قانون الفعل الذي حشرنا ضمن ملايين الحيوات حتى نتطهر من خطايانا وننزلق أخيرًا إلى السعادة القصوى (النيرفانا). يستخدم مذهب العلمولوجيا، عناصرَ من كليهما في تعاليمها.

في تجوالها بين ملايين الحيوات، يلمّ شقاءٌ عاطفي ونفسي

بالأرواح بسبب التجارب التي تخوضها. تتركها محطمة، مثلما تلقي الطفولة القاسية بظلالها على حياة الشخص البالغ. بعض هذه التجارب الموجعة تحدث عن طريق الصدفة، أطلق عليها هوبارد مصطلح الآثار الدائمة (engrams)، وهي مجرد كدمات يتركها الزمن على الأرواح في رحلتها بين ملايين الحيوات، وهو الاستهلاك، والتمزق العاديين. وفي بعض الأحيان كان الوجع مقصودًا تُسبّبه الأرواح التي ذهبت إلى الجانب المظلم، وتريد السيطرة على الأرواح الأخرى.

دعا هوبارد هذه الإصابات المتعمدة في النفس البشرية بغرس الأفكار. (implants) لقد كانت مصدرًا رئيسًا ليس

للبؤس الجسدي النفسي فحسب، ولكن للأفكار السيئة المزروعة عمدًا لتقود الأرواح إلى الضلال. كتب هوبارد: «ينتج عن غرس الأفكار شتى أنواع المرض، واللامبالاة، والتدهور، والعصاب، والجنون، وهي الأسباب الأساسية لهذه الأعراض في الإنسان». وقال إن فكرة المسيحية عن الجنة قد تم إدخالها قبل ثلاثة وثلاثين تريليون عام مضت. وكانت نتاجًا لغرس فكرتين تمّ وضعهما بعناية لخداع الأرواح لتعتقد أنها ستحصل على حياة واحدة بدلًا من السلسلة اللانهائية التي تنتظرها.

الآثار الدائمة، وغرس الأفكار هما نسخة مذهب العلمولوجية لما يسميه المسيحيون (سقوط الإنسان)، وتمثل البؤس البشري. العلاج، بحسب هذا المذهب، لما يصيبنا هو علاج خاص جدًا. تحبس الآثار الدائمة نفسها في العقل الباطن للإنسان، أو (العقل

التفاعلي) كما سماه هوبارد، وتستدعي الأسى إلى حياتنا. ويأتي الخلاص بواسطة تطهير المعانين، أو (تنقيتهم) عبر عملية تسمى (الاستماع). يشبه الأمر مستشارًا يستمع إلى العملاء الذين يكشفون ببطء أحداث الماضي التي تسببت لهم بمحنة حالية. لا تسير الأمور على هذا النحو في مذهب العلماوجية. فالمستمعون ينصتون، لكن باستخدام التكنولوجيا للقيام بذلك. ولديهم مجموعة من الأدوات تسمى المقياس النفسي الكهربائي، أو المقياس الكهربائي يعمل مثل كاشف الكذب. يساعد المقياس الإلكتروني المستمع على العثور على السؤال الذي سيجلب الحدث الدّفين إلى السطح. يكمن الهدفُ من كل جلسةٍ في

الحصول على (لحظة فوز) في الكشف. هذه اللحظة تجلب تجربة الإحساس بالذنب إلى السطح ليجري محوها من الوجود، وليس تذكر الحادث، ومن ثم يتم الشفاء. لا ماضيَ يتم الاعتراف به، واسترجاعه. إنه يُزال من الذاكرة حسب.

هناك أساليب تعويضية أُخَر في مذهب العلمالوجية تقدم نسختها عن الخلاص. لكنه خلاص بمعنى خاص. إنه مقتصر على هذه الحياة، تلك التي يعيشها المؤمن في هذه اللحظة. فلا يوجد خلاص نهائي، أو إدانة بالخطيئة نهائية، لا جنة، ولا نار. فالحياة ليست أمرًا يحدث مرةً واحدة. لا يوجد سوى العودة الأبدية للحياة. ثمة تدفّق مستمر (سامسارا) بلا سعادة قصوى (نيرفانا). فجوهر مذهب العلمالوجية يكمن في مساعدتك على تحسين حياتك التي تعيشها الآن عن طريق تطهير آثارك

الدائمة، وجعلك تدرك الأفكار المغروسة فيك.

لكن ذلك لم يكن ثمنه بخساً. فستدفع مقابل هذه التقنيات الموفرة نقدًا حقيقيًا فهي باهظة الثمن. وكلما تعمقت أكثر وأعمق في أسرار مذهب العلماوجية، زادت مبالغ المال التي عليك دفعها مقدمًا. لهذا السبب يقول النقاد إنها تجارة، وليست ديانة. وقد ردّ علماء هذا المذهب على هذا الاتهام بأن الأديان الأخرى، جميعَها، لديها طرقٌ للحصول على المال من الناس كي تبقى مستمرة، فلماذا لا يفعلون هم ذلك؟ توفي لافاييت رون هوبارد في عام 1986. ومن المستحيل التكهن إن كان سيعود بصفة عالم

من علماء المذهب، أو يظهر في كيانٍ آخر، وبالتالي لا نعرف ما إذا كان ما يزال في البرنامج!

تستمرّ الأديان مثل العلمالوجيا في الظهور، لكن من الصعب إيجاد ما هو جديد في ما يقولونه. ربما سبب هذا – كما يقول كتاب العهد القديم من سفر الجامعة – أن لا شيءَ جديدًا يقال عن أي شيء «إن ما كان هو ما سيكون، وما تمّ فعله هو ما سيحدث؛ وليس تحت الشمس من جديد». يبدو هذا بالتأكيد صحيحًا عن الديانة الأخيرة التي أريد إلقاء نظرة عليها في هذا الفصل، وهي كنيسة التوحيد، أو جمعية الروح القدس لتوحيد المسيحية في العالم، والملقبة بمون (القمر) على اسم مؤسسها ونبيّها سون ميونغ مون. وُلِد مون في كوريا في عام 1920 وعندما كان في السادسة عشرة من عمره ظهر له يسوع، وأخبره أنه قد جرى

تعيينه ليكمل مهمته، كان مون مولعًا جدًا بالجنس. كان يعتقد أن حواء دمرت الجنس بالنسبة للبشرية حين فصلته عن الحب، فإلى جانب ممارستها الزنا مع آدم، ارتكبته مع الشيطان، وجرى تمرير هذا الفساد.

لذلك اختار الله يسوع لينقذ الوضع من الخطيئة. كانت خطته أن يتزوج، وينجب أطفالاً بلا خطيئة. وبهذه الطريقة – ولنستعر مصطلحاً من مذهب السينتولوجيا – فإن (غرس) حواء لفكرة الخطيئة في التجربة الإنسانية للجنس قد جرى محوه، وأن يسوع، وعروسه سيجلبان أطفالاً منزهين عن الخطيئة. لسوء الحظ، صُلِب يسوع قبل أن يتمكن من العثور على الرفيق المثاليّ، وتخليص

البشرية. أي جرى إحباط خطة الله مرة أخرى. لكن، الآن، عاد كل شيء إلى مساره، على يد ميونغ مون الذي عُيِّن مسيحًا لإكمال عمل يسوع. وسوف يتم ذلك بإنشاء أسرةٍ مثالية، سيؤدّي نقاء حبّها، في النهاية، إلى إبطال خطيئة حواء.

تطلب الأمر من مون أن يتزوج أربعَ مرات ليكتشف رفيقته المثالية، وليتمكن، بعدها، من بدء حملة الخلاص بواسطة الزواج. مون دعا تلاميذه إلى أن يحذوا حذوه، وشجّعهم على القيام بذلك في احتفالات جماعية، مقابل أجر، ليتزوج الآلاف من الأزواج في الوقت نفسه، كثيرٌ منهم جرى اختيار شركائهم. لابد من أن يكون الأمر مربحًا. فعندما توفي سون ميونغ مون في عام 2012 عن عمر يناهز 92 عامًا، قيل إن ثروته بلغت 900 مليون دولار.

انتقلت كنيسة التوحيد إلى الغرب في عام 1970 وجذبت

العديد من الشباب إلى صفوفها. يوضح هذا الوصف لتعاليمها الكيفية التي يتم فيها تكرار موضوعي الخطيئة، والخلاص، وتجديدهما في الدين. يبحث السخطُ البشريّ، باستمرار، عن إجابة لمشاكله. وهناك دائمًا من ينتظر الفرصة توّاقًا لتوفيرها لهم، ولكن عبر إنشاء دين جديد آخر. لذا سيكون من المريح، في الفصل الآتي، النظر في الحركة التي لا تهدف إلى مضاعفة الأديان، وإنّما إلى جمعها معا.

الفصل السابع والثلاثون



فتح الأبواب

ثمّةَ مصطلحٌ من المفيد إضافته إلى مفرداتك الدينية، هو مصطلح المسكونية، المشتق من الكلمة اليونانية المسكن (oikos). توسع هذا المصطلح ليُعبّر عن فكرة العالم المأهول بالسكان (oikoumene) أو البشرية جمعاء. إنه الانتقال من عائلة واحدة محبوسة خلف أبواب مغلقة إلى الجنس البشري برمته، الموجود

في العالم. أن تكون مسكونيّاً هو أن تصل إلى الآخرين، وتحتفي معهم بالأشياء المشتركة فيما بينكم. إنّهُ الخروج من وراء الأبواب المغلقة، والتكاتف مع جيراننا. هذا النوع من الانفتاح كان قصّة الدين الكبرى في القرن العشرين. حدث ذلك في عدد من الأماكن، ولكننا سنبدأ مع المسيحية.

أدى الإصلاح الديني في القرن السادس عشر إلى تقسيم المسيحيين على جماعات متناحرة. عندما توقفوا عن قتل بعضهم بعضًا قضوا القرون القليلة القادمة بتجاهل بعضهم بعضًا. حافظت كل طائفة على وجودها، وواصلت حياتها الخاصة، وببطء بدأت الأبواب الثقيلة تفتح، وغادر المسيحيون خارجًا، وبدأوا بالتحدث مع بعضهم من فوق الأسوار العالية. بدأ الحوار في مؤتمر عقد في أدنبره عام 1910 حيث التقى عدد من الجمعيات التبشيرية البروتستانتية للإعراب عما يشغلها. ثم صوّت قادة مئات الكنائس في عام 1938 لتشكيل مجلس الكنائس العالمي على غرار الأمم المتحدة. ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية في عام 1939 وضع هذا الطموح في قائمة الانتظار. وفي عام 1948 عقد مجلس الكنائس العالمي اجتماعه الأول الذي مُثّلت فيه 174

كنيسة. اليوم وصلت عضويتها إلى 345 عضوًا ينتمون لطوائف مختلفة، وهو رقم يذكرنا بأن المسيحية ما تزال مجزّأة.

في بداياتها كانت الحركة المسكونية تأمَلُ بلمّ شمل الجماعات المسيحية المنقسمة، وتوحيدها في كل واحد، كنيسة واحدة. رغم أنه ليس تشبيهًا مثاليا، ولكن قد يرى بعضهم أنها محاولة لدمج عدد من المؤسسات المتنافسة في عمل واحد كبير. كانت نموذجًا هندسيًا. خذ قليلا من هنا، أضف قليلاً من هناك، وثبتهما مع بعضهما وانظر: الكنيسة المتحدة! لم ينجح إلّا عدد قليل من الكنائس البروتستانتية في الاتحاد فيما بينها، مثل كنيسة المسيح المتحدة التى دمجت طائفتيها المنفصلتين في عام 1957، والكنيسة

الموحدة في أستراليا التي جمعت بين ثلاث طوائف في عام 1977. وبصرف النظر عن النجاحات المحلية القليلة، فشل البحث عن هذا النوع من التوحيد، بيد أنه غيَّر الحالة بين الكنائس.

لم ينجح السعي من أجل التوحيد إلّا باتباع نهج أكثر تساهلاً، حين قررت الكنائس أنها قد لا ترغب في الاندماج فيما بينها، لكن هذا لا يمنعها من أن تصبح أصدقاء. كان الأمر سيكون أكثر سهولة لو كان لديها بالفعل أشياء مشتركة، واستعدادٌ لتجاهل الاختلافات. وباللغة الاصطلاحية للحركة المسكونية، يكونون، عندها، قد (دخلوا بشراكة مع بعضهم). لذا انضمت الكنائس الإنجليكانية في الجزر البريطانية بشراكة مع الكنائس اللوثرية في شمال أوروبا في عام 1992. لم يتم دمجها لتصبح طائفة جديدة، وإنما بقي كلٌّ منها في مسكنه، لكنها أشرعتْ أبوابها لبعضها، وأصبحت عائلة موسعة.

من السابق لأوانه القول أين سيقود هذا النشاطُ المسكونيّ المسيحيةَ، فالتخمين المنطقي هو أن السعي لتحقيق وحدة مدبرة ربما سيأتي يومه. وقد ساد نهجٌ أكثر تساهلاً إذ عُدّت الاختلافات بين الكنائس أمرًا يستحق الاحتفال به. وفي نهاية الأمر، كل عائلة تمتلك أسلوبها الخاص، وطريقتها للقيام بالأشياء، ولكنها تنتمي جميعا إلى المجتمع البشري المنتشر في أنحاء العالم. وبدأ بالظهور نهجٌ يُقيّم التنوع، ويرى فرصة ضئيلة في دمج آلاف الطوائف المسيحية في مؤسسة واحدة كبيرة. بل بدأ هذا النهج

يرى الفضيلة، والجمال في التعددية. ومثل حديقة تزهر فيها مائة زهرة، يمكن فهم الله، وعبادته بطرق عديدة، ومختلفة.

إن كان هذا يبدو شرقيًا أكثر منه غربيًا، وهندوسيًا أكثر مما هو مسيحيٌّ، فلأنه فعلاً كذلك. ربما تكون الحركة المسكونيّة قد اتخذت أول منعطفٍ لها في المسيحية في عام 1910، لكن الدافع وراء ذلك كان موجودًا منذ فترة طويلة. وسبق أن شهدناه يحدث في الديانة السيخية، مع موقف منفتح تجاه التقاليد الدينية الأخرى. وفي هذا يتجسد التعبير المجازي الهندوسي القائل: جداول كثيرة تشق طريقها إلى البحر. لم تكن هذه الفكرة لتروق للنبي محمد، الذي لم ير الإسلام دينًا ضمن باقي الأديان، بل متممًا، ومحققًا لها.

لذا فمن المثير للاهتمام أن أكثر الأديان مسكونيةً على وجه

الأرض، اليوم، لا يعود أصله إلى الهندوسية، بل إلى الإسلام.

ويطلق عليه البهائيّة التي يعود تاريخها إلى عام 1844 في بلاد فارس، أو إيران الحالية. ومثل المسيحية والإسلام، البهائية هي دين نبويّ كلاسيكيّ. فجوهر النبوة يكمن في أن فكر الله يتكشف لأشخاص مختارين بصفة خاصة – وعادة ما يكونون من الرجال – لينقلوا ما رأوه وسمعوه، ومن ثم يتم تشكيل مجتمع لتقديم التعاليم الجديدة إلى العالم. يحتفل الإسلام بهذا التقليد النبويّ، الذي انتقل من إبراهيم عبر يسوع إلى محمد. غير أنه يُعتقد أن محمدًا كان النبى الأخير، تتويجًا، أو اكتمالًا

لتدفق الوحي، وختم الأنبياء. فقد وجد النهر أخيرًا بحيرته. وتوقفت النبوة.

هذه ليست الطريقة التى يرى فيها البهائيّون الأمر. بالنسبة لهم لا توجد بحيرة، ولا يوجد سدٌّ يحدّ من الوحي المنزّل من الله. ما يزال النهر يجري، والنبوءة تتدفق، وستستمر في التدفق حتى نهاية التاريخ، ومن وقت لآخر سيظهر على الملأ نبيّ جديد. والبهائيّون يعتقدون أنه قد ظهر في منتصف القرن التاسع عشر في إيران عندما أرسل الله آخر أنبيائه إلى الأرض. ولابد أن تتذكر أن الأناجيل تخبرنا أن يسوع المسيح كان لديه نذير يدعى يوحنا المعمدان. سأل الناس يوحنا إذا كان هو المسيح، فأجاب إنه ليس هو، لكنه جاء ليمهد الطريق للمسيح الذي سيأتي.

وحدث الشيء نفسه في إيران في عام 1844. إذ أعلن شابٌ يُطلق على نفسه اسم باب أو البوابة أنه كان نذيرًا من الله أُرسِل

ليُهيّئ الطريق لمجيء النبي التالي. باب لم يكن نبيا لكنه عانى من مصير الأنبياء المعتاد. ادعاؤُهُ أنه البوابة التي سيدخل منها النبي الجديد كان بدعة للمسلمين السُّنة. بالنسبة لهم كان محمدٌ آخرَ الأنبياء، ولا يمكن أن يكون هناك غيره. لذلك في عام 1850 ألقي القبض على باب، وأعدم.

بعد ذلك بسنتين، ظهر الوحي لرجل يدعى ميرزا حسين علي نوري، الذي كان قد سُجِن لاتباعه (باب)، ولانتظاره، بفارغ الصبر، النبيَّ الذي تنبأ به، وأوحى له أنه هو نفسه النبيّ الذي كان يبحث عنه. اتخذ اسم بهاء الله، ويعنى (مجد الله)،

وولد عندها الدين البهائي. كان بهاءُ الله أوفر حظًا من (باب)، فلم تقم السلطات الإيرانية بإعدامه، ولكنه قضى الأربعين سنة التالية مرغمًا بين السجن، والنفي. توفي في سجن مدينة عكّا في فلسطين عام 1892. وهو مثالٌ آخرُ على الكيفية التي يمكن فيها لبدء دين جديد أن يعرّض سلامتك لخطر بالغ.

جاء ابنُهُ عبدُ البهاء، الذي شاركه سجنه، ليحل محله زعيمًا، وعندما أطلِق سراحُهُ من السجن في عام 1908، سافر، على نطاق واسع، إلى مصر، وأوروبا، وأمريكا، لينشر خبرَ الوحي الجديد، وليجمع الأتباع. عندما توفي عام 1921 خَلَفَهُ حفيدُهُ شوقي أفندي. استمر الدين البهائي على النمو في أنحاء العالم جميعًا، وعندما توفي شوقي أفندي في لندن عام 1957، انتقلت قيادة الحركة من فرد في الخلافة النبوية إلى مجموعة من المؤمنين

المعروفين باسم بيت العدل الأعظم.

يكمن جمالُ البهائيّة في أنه لا يوجد ما هو معقّد فيها. ففكرتها الأساسية هي الوحي المتدرّج. يستمر الله على إرسال أنبيائه، وحدث أن يكون بهاء الله هو الأخير. هذا لا يعني أن الوحي الذي أنزل على بهاء الله هو الوحي الأخير. وإنما يعني أنه النبيّ الذي يجب على البشرية أن تُولي اهتماماً له في الوقت الحاضر، لأن دينه هو آخر وحي يمكن أن نتعلم منه. إنه درس بسيط، درس ينسجم مع الروح المسكونيّة في ذلك الوقت. هناك إله واحد، وجوده أبعد من الاستيعاب الإنساني. ما يمسك به الأنبياء هو لمحةٌ خاطفة عن عقل الله. لسوء الحظ إن الأديان

التي تشكل نفسها حول هذه اللمحات تحصل دائمًا على شيء خاطئ، وخطأها هو نفسه دائما، فهي تعتقد أن هذه هي الكلمة الأخيرة بشأن الله.

يعتقد البهائيون أن أديان العالم جميعًا قد فهمت سرًا من أسرار الله، لذا يجب احترامها جميعًا. فلمحاتها كانت صحيحة، ولكن لم يحصل أيٌّ منها على الصورة كاملة، ولا حتى البهائيون، وقد صادف أن دينهم كان أحدث نسخة أُنزلت، وهي نسخة تتمتع بجمال البساطة. لقد أدركت البهائية أنه، على الرغم، من وجود العديد من الأديان، فهي تتطلع جميعها إلى الإله نفسه. ومن هذا المنطلق فهم بالفعل يشكلون دينًا واحدًا. وهذا ما كانوا ينظرون إليه ليوحدهم، وليس الزاوية التي يرونها منه. تنسى الأديان ذلك، وتخلط بين ما يُرى، ومن يقوم بالرؤية. إنها حكاية

العميان والفيل مجددًا، فكر بها بطريقة مختلفة. قد يكون الفيل واحدًا، لكن لكل رجل زاوية مختلفة ينظر فيها إليه.

إذن ما هي وجهة نظر البهائية؟ لا يوجد شيءٌ جديد في قولك إن هناك الهًا واحدًا. وما واصل البهائيون في الإشارة إليه هو أن الإنسانية، أيضًا، واحدة. إن وحدة الجنس البشريّ درسٌ مهم يجب أن نتعلمه بأهمية وحدة الله، وله تداعيات عملية راسخة. فمأساة الأديان التي تعتقد أنها آخر ما أُنزِل تتمثل في تقسيم الإنسانية على كتل متحاربة، فيصبح الدين عندها أعظم عدوّ للبشرية. لكن بمجرد أن تدرك أنه، على الرغم من أن جميع

الأديان ترى الله من زوايا مختلفة، فهو الإله ذاته الذي يرونه جميعًا. يمكن للدين أن يصبح قوة للاتحاد بدلاً من الانقسام.

لهذا السبب كان البهائيون بارزين في التحرك نحو جمع أديان العالم معًا في نوع جديد من المسكونية العالمية (توحيد الكنائس) يدعى البرلمان العالمي للأديان. اجتمعوا، المرّةَ الأولى، في شيكاغو في عام 1893، وبعد قرن من ذلك اجتمعوا في عام 1993. وكان آخر اجتماع لهم في مدينة سولت ليك في تشرين الأول من عام 2015. والبرلمان هو علامة على أن بعض الأديان تحوّلت في الحقبة التي نعيش فيها، بعد سنوات، من الانقسام والشك لتبدأ عصرًا جديدًا من الصداقة، والحوار.

إلى جانب شهادتهم العالمية بوحدة الله، ووحدة الإنسانية، امتلك أتباع البهائيين أسلوبهم البسيط، المميّز في الممارسة الروحية.

فالبهائيّة ليس لديها كهنوت خاص، كما أنها لا تفرض التوحيد العقائدي على أعضائها. إنها عقيدة داخلية، تمارسُ طقوسَها، أساسًا، في غرف المعيشة الخاصة بها، لكنها تعكس أصول البهائيّين في الإسلام. فبعد طقس الوضوء، يؤدي البهائيّون الصلاة في اتجاه معين، ليس باتجاه مكة، بل نحو قبر نبيّهم بهاء الله في إسرائيل. وصلاتُهم صلاة بسيطة. «اشهد يا الهي، بأنك خلقتني لعرفانك، وعبادتك، أشهد في هذا الحين بعجزي، وقوتك، وضعفي، واقتدارك، وفقري، وغنائك، لا إله إلّا أنت المهيمن القيّوم».

تُمثّل البهائيّة اتجاهًا داخل الدين في وقتنا الحالي، بعيدة عن انقسامات الماضي، وتنزع نحو نوع مختلف من الوحدة. إنها ليست من النوع الذي ينتج عن وضع الأنظمة معًا في مؤسسات جديدة، ولكن من خلال الكشف عن وحدة موجودة بالفعل: وحدة إنسانيتنا المشتركة التي يجري اكتشافها من خلال الاستماع أكثر من الكلام، والتعبير عنها بصمت أكثر من الضوضاء. لكنها أبعد ما تكون عن كونها اتجاهًا عالميًا، إذ حققت توازنها بوجود اتجاه معاكس للأصوليين الغاضبين الذين يعدون أنفسهم المالكين الوحيدين لحقيقة الله. هؤلاء مسؤولون عن بعض أبشع الصراعات التي تدور في العالم اليوم. وفي الفصل الآتي سنلقي نظرة على قصتهم.

الفصل الثامن والثلاثون



الدين الغاضب

الأصولية هي التسمية التي يتم ربطُها بالعديد من المجموعات الدينية اليوم، وقد استخدمت، المرّةَ الأولى، في أوائل القرن العشرين لوصف نوع معين من البروتستانتية الأميركية. حوّل العلم الحديث حياة أولئك المسيحيين الذين اتبعوا ما جاء في الكتاب المقدس حرفيًا إلى حياة أكثر صعوبة. أخبرهم الكتاب المقدس أن الله استغرق ستة أيام ليخلق الكون قبل أن يأخذ

اليوم السابع عطلة له. وفي لحظة خاصة من اليوم السادس أخرج كائنات بشرية مكتملة التكوين. ظن الكثيرون حتى القرن التاسع عشر أن هذه هي الطريقة التي حدثت بها الأمور بالفعل. ثم دخل علماء حقيقيون اللعبة وبدأوا بالتشكيك في الأمر. وأحدهم تسبّب بصعوبات للمؤمنين.

كان اسمه تشارلز داروين. توصل داروين في بحثه إلى استنتاج مفاده أن الأنواعَ، جميعًا، على كوكبنا قد تطورت على مدى فترة زمنية طويلة، عبر عملية من التكيّفات البسيطة مع بيئتها. خلقٌ ظهر في ستة أيام. كان هذا سيئًا بما فيه الكفاية. الأسوأ من ذلك، هو، ادعاؤه أن البشر الذين تشكلوا بصورة كاملة لم يظهروا خلقًا استثنائيّاً في يوم واحد منذ ستة آلاف عام. وهم أيضًا تطوروا ببطء على مدى ملايين السنين. وأحدث أسلافهم هم القرود! عندما ظهر كتاب داروين (أصل الأنواع) في عام 1859، تسبّب في أزمة لأولئك الذين لم يقرأوا القصة في الكتاب المقدس بوصفها قصيدةً تُمجّد خلق الآلهة للكون، وإنما وصفًا دقيقًا للطريقة التي فعلت بها ذلك. وردّ المسيحيون على كتاب داروين بطرق مختلفة.

قرأ كثيرون كتاب داروين، وأصبحوا مقتنعين أنه كان على حقّ. وبالتالي لا بد من أن يكون الكتاب المقدس على خطأ! فانتهى الإيمان في دواخلهم. بيد أن فقدان دينهم جعلهم حزينين، مثلما يشعر الأطفال عندما يتوقفون عن الاعتقاد بوجود بابا نويل. لكن بعض المؤمنين الآخرين اقتدوا بكتاب داروين، وعدّلوا دينهم على وفق العلم الجديد، وفعلوا ذلك من خلال تعلم قراءة الكتاب المقدس بطريقة جديدة. كان فنّاً لا علمًا، وُضِع ليجعلك تفكر في معاني الحياة، لا ليعطيك معلومات حول آليات الحياة. نجا دينهم، لكنه فقد اليقين القديم به، ما يعني أنه تحول إلى الإيمان المرةَ الأولى! فاليقين ليس إيمانًا، إنه عكس الإيمان.

إذا كنت متأكدًا من شيء فلا تحتاج إلى تصديقه، أنت تعرفه. فلا أصدق أن 2 + 2 = 4، لأني أعرف النتيجة، وأنا على يقين منها، وأستطيع أن أفعل ذلك على أصابعي. لكنني لا أستطيع أن أجزم أن الحياة لها معنى شامل، وأنّ للعالم خالقًا يُحبّه، أو أجزم أني سأذهب إلى حياة أخرى بعد الموت. لا يمكن معرفة أيّ من هذا على وجه اليقين. نحن إما نصدقه، أو لا نصدقه. لدينا إيمان، أو ليس لدينا إيمان. لقد قدم العلم الحديث معروفًا للدين من خلال مساعدته على فهمٍ أفضلَ لنفسه، وعلى تغيير طريقة خطابه التي يقدم فيها نفسه.

لكن بعض المسيحيين رفضوا التصالح مع العلم الحديث. ولم يقبلوا بانصياع دينهم له، ولا بإيجاد طريقة لفهم مختلف للإيمان

بسببه، فقرروا محاربته. لم يجعلهم العلم حزينين، كما لم يجعلهم يفكرون، وإنما جعلهم غاضبين! وأصبح الغضب العنصر الرئيس في مذهب الأصولية. ولكي تفهمه عليك أن تشعر بالغضب، والإحباط الذي أفضى إلى وجودها.

هل سبق لك أن فقدت أعصابك مع قطعة من المعدّات العاطلة، وأردت أن تقذفها عبر الغرفة؟ هل سبق لك أن شاهدت لاعبًا للتنس يُحطّم مضربَهُ في الملعب كما لو كان مسؤولاً عن الضربة الفاشلة التي فوّتَها للتّو؟ الحياة تطرح باستمرار تغييرات تلقينا خارج منطقتنا المريحة. يبرع بعضنا في التعامل معها أفضل من غيره، وبعضنا يتكيف بسهولة مع التحديات الجديدة. نسمّيهم (المتبنون الأوائل). من لا يمكنهم الانتظار للحصول

على أحدث الهواتف، أو أجهزة الحاسوب (الآي باد)، وآخرين يتكيّفون على مضض، ويرفض بعضهم التكيف على الإطلاق، فهم يكرهون التغيير، ويقاتلون بغضب ضده، خصوصًا إذا كان يتحدى المعتقدات العزيزة عليهم! كان العلم أعظمَ عاملِ تغييرٍ في العصر الحديث، لذلك أصبح هدفًا للمؤمنين الغاضبين الذين شعروا بأنه نصب كمينًا لهم، فتفجر غضبهم في الولايات المتحدة بين عامي 1910 و1925. وكانت نظرية داروين للتطور هي التي بدأت الحرب.

كان وابل الهجوم الأول ضدها عبارة عن سلسلة من الكتيبات المنشورة لمجموعة أطلقت على نفسها اسم (المؤسسة العالمية للأصوليين المسيحيين). فأسسُ الأصوليين متينة، إذا أردت أن تبني بيتك عليها فلن تمحوها فيضانات الزمن. أما

بالنسبة لمؤلفي الكُتيبات، فكان الأساس الذي بنيت عليه المسيحية هو حقيقة الكتاب المقدسة التي لا تخطئ. لقد أملى الله كل كلمة منها والله لا يخطئ. كل شيء في الكتاب المقدس كان صحيحًا، فهو كلمات الله، وأيّ كلمة بشرية تناقضها خاطئة. وداروين قد ناقضها، لذا كان داروين على خطأ!

لم يحاول الأصوليون دحض العلم، ولم يجادلوا ضده، وإنما أعلنوا رأيهم المخالف له. يماثل ذلك قيام أحد الوالدين بالتمسك برأيه أمام طفل عن طريق الصراخ: (لأنني أقول ذلك). هذا ما يفعله الدين الأصولي، إنه لا يدحض بالأدلة ولكن بالسلطة. ما هو خطأ داروين؟ لأن الكتاب المقدس يقول ذلك! لكنهم

فعلوا أكثر مما يفعله الأسقف، فقد حاولوا حظر العلم نفسه، عندها بدأ العلم بالتصدي لهم.

وبتحريض من الاحتجاجات الغاضبة للأساقفة المسيحيين، حظرت ولاية تينيسي في عام 1925 تدريس نظرية التطور في مدارسها، وغدت جريمة يعاقب عليها القانون تدريس «أي نظرية تدحض قصة الخلق الإلهي للإنسان، كما يقولها الإنجيل، وتعلِّم بدلاً من ذلك أن الإنسان قد انحدر من مرتبة أدنى من الحيوانات». قرر مدرس علوم شاب يدعى جون توماس سكوبز تحدّيَ القانون الجديد، فأدى ذلك إلى القبض عليه، لأنه كان يدرس طلابه نظرية التطور. كانت خطته هي استخدام قضيته في المحكمة ليبيّن كم كان من الغباء محاولة دحض نظرية التطور عبر الاقتباس من سفر التكوين. وبدعم من الاتحاد الأميركي

للحريات المدنية، دافع عنه كلارنس دارو، المحامي الأكثر شهرة في الأمريكيتين آنذاك، فأصبحت قضية سكوبز تعرف باسم محاكمة القردة بسبب ادعاء داروين أن البشر ينحدرون من القرود. أقرّ سكوبز بالذنب لتدريس التطور، فغُرِّم بمبلغ مائة دولار. استخدم دارو الدفاع ليظهر التناقضات في الموقف الأصولي، وليثبت أن المتحدث الرسمي الرئيس باسم الأصولية لم يكن يعلم ما كان يتحدث عنه. خسر سكوبز القضية، لكن دارو فاز بالجدال. لكن لم يتم إلغاء القانون الذي يحظر تدريس التطور في المدارس حتى عام 1968، وقامت بذلك حتى المحكمة العليا فى الولايات المتحدة.

أظهرت محاكمة سكوبز كيف أثارت المعرفة الجديدة غضب الأصوليين، فهم، أيّاً كان وصفُهم لا يحبون التاريخ، ولا التغييرات التي يجلبها، ويفضّلون تحطيم مضاربهم في الملعب على الاستجابة لما سيأتي به المستقبل. الماضي هو كل ما يريدون، صارخين لماذا تستمر في الحديث عن المستقبل؟ الأصولية هي فورة غضب، ونوبة صراخ، ورفض لقبول حقائق جديدة.

ولكن إذا كان يصعب على العقل الأصولي تقبّل التغيير العلمي، والمعرفة الجديدة التي يجلبها المستقبل، فإن تقبّلَ التغير في الطريقة التي ندير بها المجتمع سيكون أكثر صعوبة. وفي عصرنا، ازداد هياج الأصولية الدينية تجاه التغيير الاجتماعي أكثر منه تجاه ضغوط العلم، وفي بعض أشكالها لم يتصاعد غضبها فحسب، وإنما تحوّلت إلى العنف.

كان التغيير الأكثر ثورية الذي هزَّ العالم في القرنين العشرين والحادي والعشرين، هو، تحرير المرأة. جاء الكتاب المقدس، والقرآن من مجتمعات يسيطر عليها الرجال، وهذا ليس مستغربًا. هكذا كان يُدار العالم في كل مكان حتى وقت قريب جدًا. وثمة ما يستحق الملاحظة قبل أن نتعمق في هذه القضية. فالتاريخ يظهر أن الرجال المسؤولين لا يتخلون عن امتيازاتهم طوعًا. هم لا يستيقظون في يوم ويقولون: «لقد أدركت فجأة أن الطريقة التي أتحكم بها في الآخرين وأسيطر عليهم خاطئة، ولابد أن أغير من أساليبي، لذا سأشارك سلطتي معهم، وسأمنحهم حق التصويت!».

ليس هكذا تسير الأمور. فالتاريخ يظهر أن السلطة يجب دائمًا أن تنتزع من أولئك الذين امتلكوها. وقد تعلمت المناضلات في سبيل منح المرأة حق التصويت الدرس، فالرجال لا يتطوعون من حالهم لإعطاء النساء هذا الحق، وعليهن النضال من أجله.

هناك أمر آخر يجدر ملاحظته لا يتعلق بالسلطة، بل له علاقة بالدين حين يتدخل في الموضوع. فالأقوياء يحبون السلطة في حد ذاتها، لكنهم يحجبون شهوتهم بالنظريات التي تبرر ذلك. والنظرية التي استخدموها لمنع تصويت النساء هي أن دماغ المرأة لا يستطيع استيعاب تعقيد السياسة، فالسياسة كانت للرجال، وحمل الأطفال للنساء. ظل الدين دائمًا أفضل مصدر لتوفير المبررات لإبقاء الناس في أماكنهم، ورأيناه كيف كان فعّالاً في الجدل بشأن العبودية، فالكتاب المقدس، والقرآن كلاهما أخذ

العبودية كأمر مسلم به، كذلك فعلا مع تبعية النساء. لذلك نحن نواجه حقيقة محرجة، أن النصوص المقدسة يمكن أن تستخدم لتوفير الأدلة لأولئك الذين يريدون إبقاء الناس تحت السيطرة.

ما يزال من الممكن استخدام هذه الطريقة حتى اليوم. فبالنسبة للمسيحيين الأصوليين، يُعَدُّ تحرير المرأة من سيطرة الذكور مشكلة جسيمة، لأن الكتاب المقدس يقول إن المرأة يجب أن تكون تابعة للرجل، ولا سلطة لها عليه. وما زال معظم الديانة المسيحية حتى يومنا هذا يرفض السماح للنساء بشغل وظيفة كهنوتية رسمية في الكنيسة. وهذا الموضوع غير مطروح حتى للنقاش فِي الكنيسة الكاثوليكية، وهى أكبر منظمة على

وجه الكوكب، حيث تضم أكثر من مليار عضو. وقد خاضت حتى أكثر الصيغ تحررًا من الديانة المسيحية صراعًا ضد تحرر المرأة لمدة طويلة. ولم تسمح كنيسة إنجلترا للنساء بالحصول على درجة الأسقفية إلّا في عام 2015. وكما تعلمت الأديان الليبرالية كيفية التكيّف مع داروين، تتعلم أن تتكيف، مهما كان الأمر مؤلمًا، مع تحرير المرأة. لكن الزمن لا يقف ساكنًا، وعلى الكنسية، الآن، أن تتعامل، حتى لو كان الأمر أكثر إيلاما، مع تحرر الأشخاص المثليين.

كلُّ هذا صعبٌ بما فيه الكفاية للمسيحية، ولأسباب عدة أكثر صعوبة للإسلام. هنا أصبح الصراع من أجل التصالح مع التغيير عنيفًا. فالمسلمون الأصوليون لم يكونوا غاضبين حسب، بل صاروا في أكثر أشكالهم تطرفا ينزعون إلى القتل بوحشية. ثمة

العديد من العوامل التي أسهمت في هذه الأزمة في الإسلام، قسم منها يقع خارج نطاق هذا الكتاب. لكنهم يتقاسمون مشكلة مشتركة مع الأصوليين الدينيين في كل مكان، بما في ذلك الموجودون في إسرائيل. فثمة يهود أصوليون في إسرائيل يرفضون أي محاولة لتقاسم الأرض المقدسة مع الفلسطينيين، وحجتهم أن الله أعطاهم فلسطين منذ آلاف السنين، وهم لا يستردون إلّا ما سُرِق منهم. ومجرد محاولة الإشارة إلى تبعات هذا الموقف الخطيرة سيكررون ما قاله الأصوليون المسيحيون لداروين: نحن على حق وأنتم على خطأ، لأن الكتاب المقدس يقول ذلك.

ولمّا كان الكتاب المقدس، أو القرآن يستخدمان هذه الطريقة، فيبدو أنهما، هما، المشكلة، والسبب في نشوب هذه الصراعات. بعبارة أخرى، تكمن المعضلة في فكرة أن هذه النصوص إيحاءات منزّلة من الله. في النهاية، يمكنني أن أجادل معك حول وضع النساء، أو مثليّي الجنس، ويمكننا أن نتفق أو نختلف، لكن عندما تخبرني أن وجهة نظرك في هذه المواضيع لا تعود لك بل إلى الله، يصبح النقاش مستحيلاً، ويتحول إلى إعادة لمحاكمة القردة!

الأصوليون لا يناقشون، ولا يقيّمون الأدلة، بل يُصدرون حكمهم، والآخر دائما (مدان) لأن كتابهم المقدس قد حسم الأمر بالفعل. هذا يعني أن أزمة الأصولية في عصرنا، بما في ذلك صيغها العنيفة، تطرح سؤالاً في صميم الأديان التي تدعي أنها تستند إلى الوحي المنزل مباشرة من الله. بلا شك، إن كان الدين قد جرى

استغلاله ليس لتبرير التعصب للجهل فحسب، بل للتعطش للعنف، فثمة خطأ جوهريّ في ذلك، وهذه استعارةٌ من لغتهم الخاصة. فكيف يُمكن للدين أن ينأى بنفسه عن هذا المأزق على وجه خاص؟ هذا هو السؤال الذي سنناقشه في الفصل الآتي عندما نتمعن، عن كثب، فِي التأريخ العنيف للدين.

الفصل التاسع والثلاثون



الحروب المقدسة

هل الدين هو السبب الرئيس للعنف وبالتالي للاقتتال والحرب في تاريخ البشرية، كما يشير كثيرون؟ فالدين، بالتأكيد، ليس بعيدًا عن التحريض على مقارعة الظالمين بالقتال، وقد استخدمه في الماضي، ويستخدمه اليوم. لكن هل الدين هو المسبب للحرب؟ يعتقد الكثير من المتعمقين في هذه الفكرة ذلك، ويواصلون القول إن طريقة تخليص العالم من الحروب والاقتتال، هي بالتخلص

من الدين نفسه. بل ويتمادى بعضهم في الادعاء بأن الإله هو الذي أمر بالعنف فكان بذلك لعنة بحدّ ذاته على البشرية، وأن أفضل طريقة لإنقاذ البشرية من لعنتها، هي بالتخلص من فكرة الإله والألوهية. إنه إتهام قوى لا يمكننا تجاهله.

إذا حصرنا النقاش في الديانات الإبراهيمية الثلاث، اليهودية، والمسيحية، والإسلام، فسيظهر لنا أن هذه التهم ثابتة. هناك الكثير من العنف في التاريخ المبكر لليهودية. ولم يكن من الممكن تحرير اليهود من العبودية في مصر من دونها؛ ولهذا السبب يجب أن نتوقف، هنا، لنسأل ما إذا كان العنف ضروريًا. ادعت قلة قليلة من الناس أن العنف ضد الآخرين لا يمكن تبريره أبدًا، فهو دائمًا يمثل الشرّ، ولكنه في بعض الأحيان، يكون أهونَ الشرّيْن. كانت العبودية هي محور الشر. تتم معاملة الرجال والنساء ليس بوصفهم بشرًا، ولكن حيوانات يمكن التخلص منها في نزوة من نزوات أسيادهم. يدعم معظم الناس، اليوم، حقّ العبيد في النهوض ضد أسيادهم، والنضال من أجل حريتهم. وهذا ما فعله اليهود، انتفضوا ضد أسيادهم وهربوا إلى الصحراء.

ما حدث بعد ذلك هو ما جعل الأمر صعبًا.

في نحو عام 1300 قبل الميلاد فعل الإسرائيليون بالقبائل التي كانت تعيش في كنعان (الآن فلسطين) - الذين اعتقدوا أنهم مذنبون بحق الله - ما فعله المستوطنون المسيحيون بالأمريكيين الأصليين في القرن التاسع عشر. والمصطلح الحديث التي نستخدمه لوصف اقتلاع شعب بأكمله من موطنه وتدميره، هو (الإبادة الجماعية)، وهو يتناسب مع الحدث هنا. الكتاب المقدس هو الذي ينبغي توجيه التهم إليه. قد يتجادل المؤرخون حول المدة التي استغرقتها عملية استيطان اليهود في الأراضي الفلسطينية، ومدى العنف الذي مورس فعليًا. فالكتاب المقدس واضح بشأن

أحداث القتل التي وقعت، ويقول إن الله قد أمرنا بها. ويُدعَى الكتاب الذي وصفها بسفر يشوع. تتناثر في هذا النص عبارات مثل (سوف تدمّرهم تماماً)، و(لقد دمّروهم) و(لم يتركوا أي شيء يتنفس). يُخبرنا يشوع أن استيطان قبائل إسرائيل في أرض الميعاد قد تحقق بأعمال العنف التي أمر بها الله.

عندما نأتي إلى المسيحية، يُظهر التاريخ أن بدايتها كانت، هي الأخرى، بداية عنيفة. لكنها هي من كان هدفاً للعنف، وليس الفاعل. ففي سنواتها الأولى لم تكن تتوقع أن تستمر طويلاً بما يكفي للانخراط في السياسة الدنيوية. لكن لم يكن ذلك الذي منعها من التعرض للاضطهاد. كانت تعبد الإله المصلوب، وتحتضن معاناته. وقد وصلت إلى نهايتها عندما اعتمدها الإمبراطور قسطنطين، ووظّفها لصالحه. بعد ذلك

طوّرت الكنيسة ميلاً للعنف، وتعلّمت كيفية استغلاله أداة للتحكّم. ولقرون عدة استخدمت العنف ضد اليهود، واصفة إياهم بـ (قتلة الله) بسبب صلب المسيح، متناسين كلّ ما قاله المسيحُ في الخطبة على الجبل بهذا الشأن. واستخدمت، الكنيسةُ، العنفَ ضد المسلمين في خلال الحروب الصليبية، والعنف ضد المسيحيين الهراطقة في خلال محاكم التفتيش. وفي الحروب الدينية التي أعقبت حركة الإصلاح قاتلت الجماعات المسيحية المتناحرة ضد بعضها حتى سئم المجتمع من عنفهم، وتدخّلَ لوقفه.

لذا فالسؤال لا يكون ما إذا كان الدين، هو، سَبَبَ الكثير من العنف في التاريخ، وإنما لماذا ينبغي أن يُوقع ذلك الضيقَ

في أنفسنا؟ في اللمحة التي قدمناها عن العبودية، لاحظنا أن هناك حالات يكون فيها العنف خيارًا أخلاقيًا صالحًا. إنه المبدأ الذي يوجّه معظم الدول في سياساتها الداخلية، فضلاً عن سياساتها الخارجية. وتشير الإحصائيات إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية، هي، أكثرُ الدول التزامًا بالمسيحية على وجه الأرض، وهي، أيضًا، واحدة من أكثر الدول عنفًا. فهي تسمح بعقوبة الإعدام، وتؤمن بحق المواطنين العاديين في حيازة الأسلحة النارية، واستخدامها في الدفاع عن النفس. ونتيجة لذلك يُقتَلُ الآلافُ من مواطنيها كلَّ عام. كما أنها، ومثل الدول في بقاع العالم كلها، استخدمت العنف ليس للدفاع عن نفسها ضدّ أعدائها فحسب، بل للتدخل في شؤون الدول الأخرى. إذا استطعنا تبرير العنف في هذه الظروف، فلماذا نشعر بالاستياء

عندما تستخدمُهُ الأديانُ لخدمة أغراضها؟ نحن من الأنواع العنيفة، فلماذا يجعلنا العنفُ الديني شديدي الحساسية؟

هناك سببان، الأول يكمن أنّ الدين حينما يدخل في نزاع، فإنه يُضيف عنصرًا سامّاً إلى المزيج، لا يوجد دائمًا في الصراعات الأخرى. يميل البشرُ إلى للعنف على أية حال، لكن إذا استطاعوا إقناع أنفسهم بأنهم يفعلون ذلك طاعةً لله، فإن ذلك يستبعد أيَّ فرصة للرحمة، والاعتدال من هذا الصراع. في خلال فترة الحرب الدينية في اسكتلندا، في القرن السابع عشر، المعروفة باسم (أوقات القتل)، كانت صرخة المعركة من أحد الجوانب هى (الله، بلا رحمة)، ما يعنى أنه يجب ألّا يُظهروا رحمةً، وأنهم

لن يأخذوا أيَّ أسرى. بمشاهدة مسلّحي فصائل المسلمين المتناحرين يقصفون بعضهم بعضًا في الشرق الأوسط على شاشة التلفزيون، هذه الليلة، فعلى الأرجح نحن نسمعهم يهتفون مديحًا باسم الله، وهم يُطلقون صواريخَهم ضدّ بعضهم.

إذا كنت تتصرّف بدافع من طاعة قاضي الكون الأخلاقي فأنت معصوم من الخطأ. (اللهً، ولا رحمة!) لهذا السبب يمكن للصراعات بين المتطرفين دينيًا أن تمتد قرونًا من دون أن يسعى أيُّ طرف إلى المصالحة. وعندما يكتسب عداءٌ قديم موجةً جديدة من الحِدّة، فإنه يوصف، أحيانًا، بـ (سياسة إثبات الهوية). فقد تحقق مجموعةٌ لا تتمتع بشعبية إحساسًا بالهدف والهوية حين تتبنى عقيدة تعرّف الآخرين بها. قد يُخفف هذا مشاعرَ الضياع عند من يحسون بعدم الانتماء، ويمكن أن يحرّك غضبهم، ويمكن

أن يعطيَهم سببا لتفجير أنفسهم في قطار تحت الأرض مكتظّ بالركاب في لندن عام 2005.

إن كان السببُ الأول في ترويع العنف الديني لنا، هو الحدّةَ المفرطة، غير المنطقية التي يضفيها على الصراع البشري، فإن السببَ الثانيَ يكمن في التناقض الرهيب في جوهره. إنه تناقضٌ غالبًا ما يراه الملحدون بوضوح أكثر من المؤمنين، ويُدعى الله. تستند معظم الأديان إلى الادعاء بأن الله هو الحقيقة الأسمى، وأنه مصدر قانونها الأخلاقي. قد يكون لكل منها طريقة مختلفة للتعبير عنه، لكنها، جميعًا، ترى الله الوالدَ الكونيّ، والبشرَ أبناءَه، كما يقول العهد الجديد عن الله (به نحيا، ونتحرك، ونوجد).

ولكن إذا كنا، جميعًا، أبناءَ الله، فلِمَ يمضي اللهُ وقتًا طويلاً في التاريخ يأمر أحدَ فروع عائلته الكونية لتقضيَ على فرع آخر؟ لماذا يجب التعبير عن حبّه لأبنائه اليهود بإبادة أبنائه الفلسطينيين؟ لماذا تخلّى عن أبنائه اليهود في وقت لاحق لصالح أبنائه المسيحيين، ويشجع المفضّلين لديه، الجُدد، على تعذيب أشقائهم الأكبر سنًا؟ لماذا أمر أبناءَه المسلمين الذين يعبدونه بوصفه الواحد الأحد بأن يضطهدوا أبناءه الوثنيين الذين يعبدونه؟ لِمَ يوجد الكثير من العنف في التاريخ الديني، تنفّذُهُ كلَّهُ جماعاتٌ تدعي أن الله إلى جانبها؟

الفصل الاربعون



نهاية الدين

تكرَهُ كلبتي ديزي حلولَ الأسبوع الأول من تشرين الثاني. ففي الحدائق والمتنزهات القريبة من بيتي يفجّر الناس الألعاب النارية حتى الليل، فيجعلُها الضجيجُ ترتجف خوفًا، ولكي تختبئ من العدوّ الذي يلاحقها تحاول أن تحفر حفرةً في سجّاد مكتبي. من الواضح أنها ليست في خطر، لكنني لا أستطيع حمْلَها على فهم ذلك، ولديها ما يُعرَف بمكوّنٍ إدراكيّ مُفرط

النشاط، كاشف للقوى الفاعلة، فهي تستشعر تهديدًا لا وجود له. هذا يمكن أن يحدث لأيٍّ منا، أن نسمع صرير السقف في العلية، فنتخيل وجودَ متطفلٍ هناك، ثم ينطلق الجزء العقلاني منا، وندرك أن عاصفة رياح مفاجئة تسببت في اهتزاز الطابق القديم. إلّا أن الكلبة ديزي لا تستطيع أن تفسر ذلك، وهذا هو

السبب أن أوائل شهر تشرين الثاني، وموسم البارود يشكلانِ كابوسًا لها. فهي مبرمجة للاستجابة للأصوات الصاخبة عبر الهروب، ولا يمكن لأي تفسيرٍ مني أن يجعلها تفهم أن ليس ثمة من يطاردها.

ديزي ليست المخلوقَ الوحيدَ في التاريخ الذي طوَّر هذا المكوّنَ الإدراكيّ. فقد أثّر في معظم الإنسانية قرونًا. فالدين كان يُخبر الرجال، والنساء أن العالم ليس خاضعًا لسيطرة القوانين الطبيعية، وإنما لقوى خارقة. إن الكلمة التي تصف ذلك هي (الخرافة)، بمعنى الاعتقاد بأن الأشياء تحدث من خلال السحر من دون أي سبب طبيعي. بدأت طريقة التفكير هذه تتغير في القرن السابع عشر في خلال فترة عُرِفت باسم عصر التنوير، عندما حلّ العلمُ محل الخرافات بوصفه أفضل طريقة لتفسير

ما يحدث في العالم. فكل شيء له سبب طبيعي، وهناك منطق

لكل ما يحدث. كان شعار التنوير (تجرّأ لتعرف)، ولا تستسلم

للخرافات. تجرّأ لمعرفة السبب الحقيقي وراء الأشياء. وإحدى

النتائج التي تمخضت عن عصر التنوير كانت تخفيفَ تأثير
تفسيرات ما فوق الطبيعة في العقل البشري، وتنورت عقولُ

الناس، وبدأوا يفكرون في أنفسهم.

إذا كانت الجرأة لمعرفة كيفية عمل الطبيعة أحدَ دوافع

التنوير، فالدافع الآخر كان شعور الاشمئزاز الذي أثارته

قرونٌ من العنف الديني. فالخرافات كانت سيئة بما يكفي،

بيد أن الحرب كانت الأسوأ. لاحظ مفكرو عصر التنوير كيف

اختلفت الأديان، دائمًا، مع بعضها، فكلٌّ منها يعتقد أنه يمتلك الحقيقة التي كشفها الله، وأنّ الآخرين على خطأ. عندما كان الدين يُسيطر على بلد ما فإنّه يحاول أن يجعل الجميع من أتباعه. كان ذلك سيئًا بما فيه الكفاية، والأمر الأسوأ إن كان لا يوجد غير ديانتين في بلد تتنافسان، فسيمسكان برقاب بعضهم بعضًا طوال الوقت، كما فعلا في أوروبا منذ زمن الإصلاح. لكن إذا كانت هناك ثلاثون ديانة، فيبدو أنها ستتعايش بسلام!

استخلص عصرُ التنوير استنتاجين من هذا، أولهما أنه كلما ازداد عدد الأديان في المجتمع، كان ذلك أكثر أمانًا للجميع. لذا كان أفضلُ ضمانٍ للسلام هو حظر التمييز، وممارسة التسامح. أما استنتاجهم الثاني فيقول إذا كان ينبغي التسامح مع الدين داخل المجتمع، فلا يجب أن يُسمح أبدًا بسيطرته عليه. فسلطة

الزعماء الدينيين يجب أن تقتصر على مجتمعاته الدينية.

لم يُنفَّذ هذا المبدأ تنفيذاً صارماً إلّا في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد تأثر مؤلفو الدستور الأميركي بالتفكير التنويري في الدين، وتذكروا كيف فرَّ المستوطنون الأمريكيون الأوائل من الاضطهاد الديني في أوروبا، وكانوا عازمين على تجنب ذلك في أرضهم الجديدة الموعودة. لهذا السبب، نصح توماس جفرسون، أحد واضعي إعلان الاستقلال، والرئيسُ الثالث للجمهورية الجديدة، الشعبَ الأمريكيّ بـ «ألاّ يسنّ أي قانون يفرض ديانةً معينةً، أو يحظر حريةَ ممارسةِ أيِ ديانة »، فلابد

من الفصل بين الكنيسة والدولة. وأصبح ذلك أحد المبادئ التأسيسية للولايات المتحدة الأميركية.

كان الوضع أكثر تعقيدًا في أوروبا حيث كانت الكنيسة والدولة مرتبطتين بشراكة لعدة قرون. لكن الأفكار التي أطلقها عصرُ التنوير بدأت في تقويض سلطة الدين على شؤون الدولة. وبمرور الوقت تحقق انقسامٌ أكثر جذرية بين الكنيسة والدولة في أوروبا مقارنة بالولايات المتحدة الأمريكية حيث ما يزال للدين، رغم أنه لا يتمتع بموقف رسمي، تأثيرٌ اجتماعيّ، وسياسيّ كبيران.

ما حدث في أوروبا كان ظهور ما يسمى الآن بـ (الدولة العلمانية). وكلمة العلمانية مشتقة من كلمة (saeculum) اللاتينية التي تعني فترة من الزمن. جاءت كلمة العلمانية لتصف الزمن

المعيش مقابل الأبدية، والدنيويّ مقابل الكنيسة، والتفكير الإنساني مقابل الوحي الديني. فضّلت الدولة العلمانية إلّا تتدخل في شأن أولئك الذين يديرون حياتهم على وفق مبادئ مستمدة من الدين، لكنها قرّرت أن تبنيَ قراراتها الخاصة على المبادئ المستمدة من هذا العالم لا غير. وهذان مثالان على الكيفية التي يسير فيها هذا الأمر اليوم.

كما رأينا، يُمارس العديدُ من الأديان التمييز ضد المرأة، لأن كتبها المقدسة تُخبرها أن الله قد قدّر للنساء أن يكنّ عونًا للرجال، ولا سلطة لهن عليهم على الإطلاق. يُعدّ التمييز ضد المرأة في المجتمعات العلمانية خطيئة أخلاقية، وفي بعض

الحالات يعدّ جريمة يمكن أن تتسبب بسجنك. برغم ذلك، ونظرًا للمبدأ العلماني الذي يسمح للدين بأن يقوم بعمله الخاص داخل مجتمعه الخاص، فإن الدولة غالبًا ما تتغاضى عن ممارسات تجري في المجتمعات القائمة على الأديان من شأنها أن تكون جريمة في المجتمع.

يتعلق المثلُ الآخر بالمثلية الجنسية. ومن جديد، تعارض الكتبُ الدينية المقدسة ذلك. فالمثلية هي دائما خطيئة يمكن أن يُنفذ فيها حكم الإعدام، وفي الوقت الحاضر ما يزال المثليون يُقتَلُون في بعض أجزاء العالم، بيد أنه في معظم المجتمعات العلمانية الحديثة يُعَدّ اضطهاد المثليين في حد ذاته جريمة. وهم الآن يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها مغايرو الجنس، بما في ذلك الحق في الزواج في العديد من البلدان. ومع ذلك

تتغاضى الدولة العلمانية عن ممارسات التمييز ضد المثليين في العديد من المجتمعات القائمة على الأديان.

في الوقت الذي تتغاضى فيه (الدولة) العلمانية عن التحيّز الجنسي، ورهاب المثلية في المجتمعات العقائدية، فإن العديد من مواطنيها يُولون الكثيرَ من الاهتمام لذلك، ولا يحبون ما يرونه. لأنه، بالإضافة إلى ظهور (الدولة) العلمانية، فإن حركة التنوير ساهمت في تكوين العقل العلماني، وهي طريقة للتفكير في الحياة لا تعود إلى الله، وآرائه مرجعًا لها في شأن الكيفية التي ينبغي أن ينظم بها العالم، فالعقل العلماني يقوم بأكثر من رفض تطبيق المبادئ الدينية على حياته الخاصة. تشعر العلمانية بالهلع من

إمكانية الدين في التأثير في حياة الآخرين، وتعارض أولئك الذين يمارسون التمييزَ ضد النساء وضد مثليي الجنس على أساس كتابات مقدسة من أواخر العصر البرونزي. أدى ظهور العقل العلماني إلى التآكل التدريجي لسلطة الدين في الغرب. ونتيجة لذلك، بدأت المسيحية، وهي الدين الذي سيطر على أوروبا قرونًا، في التراجع، وأظهرت حتى بوادر توقّف.

إنه تراجعٌ يُحزن كثيرًا من الناس، بما فيهم بعض الذين توقفوا عن ممارسة الدين أنفسهم. هم يعرفون أن الكنيسة قد طوّرت العديد من الرذائل في رحلتها الطويلة عبر التاريخ، لكنهم يعترفون أن لها فضائلها أيضًا. لقد كانت صديقة إلى جانب كونها عدوة للإنسانية، معالِجة، ومعذِّبة لها في آنٍ واحد. لكن الطبيعة البشرية تكرهُ الفراغ، لذا فإن الفجوة التي خلّفها تراجعُ الدين المسيحي في الغرب دفعت إلى تشكيل حركة تسمى (الإنسانية

العلمانية)، وهي حركة ليست أهلاً لنعرفها دينًا، ولكن بما أنها استعارت بعضًا من أفضل الأفكار الدينية، فإن نظرة سريعة عليها ستكون طريقة جيدة لإنهاء هذا التاريخ.

وكما يُوحي اسمها، يحاول الإنسانيون العلمانيون مساعدة الرجال، والنساء على العيش حياة كريمة لا تستند إلى المبادئ التي يفرضها الدين، ولكن إلى المبدأ الذي أعده البشر لأنفسهم، فهم يؤمنون أن الإنسانية قد نضجت، ولابد من أن تتحمّل، الآن، المسؤولية نفسها. فقد تلقت التعليمات في طفولتها من الدين، أو من الله، ماذا تفعل، وماذا لا تفعل، وكانت بعض

هذه التعليمات صادمة. فالعبودية، واضطهاد المرأة، ورجْم مثليي الجنس اضطرهم إلى التحوّل عن الدين، وفرض العقوبات على الاعتقاد بما هو خاطئ. فبإمكانهم القيام بعمل أفضل من ذلك! لكونهم بشرًا أنفسهم، وكانوا في أفضل وضع ليعرفوا ما هو نافع للبشرية. فالتسامح جيد، والاضطهاد سيئ، والرحمة جيدة، والقسوة سيئة، فلا تحتاج أن تؤمن بالله لتعرف ذلك، ولست بحاجة إلى دين ليقول لك إنه من المنطق أن تُحبّ جيرانك وتعاملهم كما تُحب أن يعاملوك.

سَعدَ الإنسانيون العلمانيون بالعمل مع أيّ مجموعة ترغب في جعل العالم مكانًا أفضل، بما في ذلك الجماعات الدينية. وكانوا مستعدين حتى لتبني بعض الأفكار الدينية. كان الإنسانيون يدركون أن الأشياء الجيدة كانت تُهدَر مع تراجع الدين، لذا

بذلوا قصارى جهدهم لاستعادة بعضٍ منها واستخدامها، بطريقة إنسانية. الدين كان نافعًا في مساعدة الناس على تحديد نقاط التحوّل الكبيرة في حياتهم. فقد كان للدين مراسيمُ لمناسباتٍ عديدة مثل الولادة، والزواج، والموت، ولكن المشكلة أنها انطوت على العالم السماويّ الذي لا يؤمن به الإنسانيون العلمانيون. فالأطفال كان لابد من تطهيرهم من الخطيئة، والأزواج قيل لهم إن الزواج كان لمدى الحياة سواء أحبوا ذلك أم لا، وإن الموتى سيذهبون كلهم إلى حياة أخرى. ولم يؤمن الإنسانيون بأيّ من ذلك.

لهذا بدأوا بكتابة خدماتهم الخاصة، وقامت الدولة العلمانية الحديثة بترخيصهم للقيام بها. يتولّى القائمون الإنسانيون على

المراسيم، الآن، إعدادَ الكثير من حفلات الزفاف في اسكتلندا مثل رجال الدين المسيحيين، ويقيمون الجنازات، ويُجرون مراسم تسمية للرضع، وصاروا بارعين في تصميم هذه الاحتفالات وفقًا للاحتياجات الخاصة للأشخاص الذين يطلبونها. فبإمكان القائم الإنسانيّ على المراسيم أن يساعدهم على وضع قيمهم الخاصة، وأفضلياتهم في مناسباتهم المهمة، وبذلك يضفي عليها أهمية شخصية. ويمكن أن يمنح نوعًا مختلفًا من القيم الروحانية إلى لحظاتٍ في الحياة كان الدين التقليدي يحتكرُها في يوم. تجد الروحانيةُ العلمانيةُ المعنى والجمالَ في هذه الحياة. فهي الحياة الوحيدة التي سنشهدها، لذا يجب أن نكون ممتنين لها، ونستثمرها جيدًا.

هذا ليس الأمرَ الوحيد الذي تستعيره العلمانيةُ الإنسانية من الدين. فهي معجبة بالطريقة التي يجتمع بها أهلُ الإيمان من

أجل العبادة، وتجربة العيش، والاندماج ببعضهم مقدّمين الدعم للأشخاص الذين قد لا يلتقون بهم. فالحضور الأسبوعي للتعبّد هو فرصة للجديّة، ولاختبار نوع الحياة التي تعيشها، وربما يجعلك تقرر إجراء بعض التغييرات. يقدر الإنسانيون العلمانيون قيمة هذا، لذلك أنشأوا جمعيات يوم الأحد الخاصة بهم، التي تُعرف في بعض الأحيان باسم (ارتياد الكنائس للملحدين)، حيث يلتقون من أجل التأمل، والاحتفال، والاستماع إلى المواعظ، والخطب العلمانية، وإنشاد الأغاني، ومن أجل لحظات من الصمت، والتفكير. إنه دين بلا عالم ما ورائى إنه دين (إنساني).

من السابق لأوانه معرفة ما إذا كانت النزعة الإنسانية من هذا النوع ستبقى مستمرة، وتنمو، أو تتلاشى، وتنتهي. لقد سبق أن وجدت محاولات للدين العلماني من قبل، واختفت بعد فترة قصيرة. فدائمًا ما يشبه النقاد هذه المحاولات بشرب البيرة الخالية من الكحول، أو القهوة منزوعة الكافيين. ما الجدوى من ذلك؟

كل ما يثبته هذا، هو أن الدين كان جاذبًا للعلمانيين من الرجال والنساء، وصعبًا في الوقت ذاته. فقد يعجبهم الكثير مما حققه الدين، لكنهم لم يعودوا قادرين على قبول المعتقدات الخارقة للطبيعة التي يستند إليها. إنهم يشكّون في أشكال السلطة التي تدعي أنها فوق إصلاح الإنسان. لقد لاحظوا كيف أن الدين كان متلكئًا في التكيّف مع التغيرات الجيدة في السلوك البشري،

وكذلك في تقبل نتائج المعرفة الجديدة. وبدلاً من الجرأة لمعرفة الجديد، عادة ما يفضل الدين التمسك بالقديم.

وكما لاحظنا من قبل، فإن الدين هو السندان الذي أبلى الكثيرَ من المطارق. قد يكون عمَّرَ أكثر من الإنسانية العلمانية. وعلى الرغم من تراجعه في العديد من الأماكن، اليوم، إلّا أنه يعدّ أكبر عرْضٍ على وجه الأرض، يجري تقديمه في مكان العبادة القريب منك. لكن الأمر متروك لك تمامًا سواء أكنت ستشترى التذكرة، أم لا!